ـــ رواية ـــ

شِتَاءٌ أَخِير

مُنْتَصِر أَمِينْ

عنوان الكتاب : شِتَاءٌ أَخِير
المؤلف : مُنْتَصِر أَمِينْ
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
موديل الغلاف: دينا الدياري
صورة الغلاف: د. محمد ناجي عبدالله
تصميم الغلاف : محمد إبراهيم
رقم الإيداع : ١٥٣٧/ ٢٠١٧
ردمك : 978-977-6549-21-0
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ـــ رواية ـــ

شِتَاءٌ أَخِير

مُنْتَصِر أَمِينْ

دار تويا للنشر والتوزيع

هل شعرتَ من قبلُ أن حياتَك تحوَّلت إلى
شيءٍ لم تكن تتخيله؟!..
لا تفزعْ.. فالخوفُ لن يصيبَك..
فقط بعض القلق، ومعه ستتجسد كل خطاياك..
لا تتراجع وأكمل دربك، ستكتشف الحقيقة..
لا أحد حينها سيتصور ما فعلته..
لا أحدَ على الإطلاق..

مُنْتَصِر أَمِينْ

ما الحياةُ إلَّا حُلمٌ باهتٌ لروحٍ ميْتةٍ هاجعةٍ؛
فالأشياءُ ليست كما تبدو!..

(هنري وادسورث لونجفيلو)

(١)

طنـينٌ فظيـعٌ دوى في أذنيهـا، سـيطر عـلى كل حواسـها حتـى باتـت لا تسـمع سـواه.. أغمضـت عينيْهـا في ألمٍ وهـي تُحـاول مقاومـة ذلـك الـدوار المخيـف الـذي عصـف برأسـها، أخـلَّ بتوازنهـا.. اسـتندت بكفهـا عـلى طـرف المكتـب وهـي تقـاوم السـقوط عـلى الأرض.. فتحـت عينيهـا بصعوبـةٍ، كانـت الرؤيـة أمامهـا مضطربـةً.. اهتـزت كل الأشـياء أمـام ناظريهـا.. أحسـت أن الأرضيـة الخشـبية تتشـقق مـن تحـت قدميْهـا، والسـقف ينهـارُ أعـلى رأسـها.. جـزَّت عـلى أسـنانها حـين بـدأت تصطـك، وضغطـت عليهـا بقـوةٍ حـين ضرب الألم فكهـا.. ومعـه بـدأ ظـلامٌ كثيـفٌ يغـشى رؤيتهـا..

"إنت كويسة؟!، قلقتيني.."

انتبهـت حـين سـمعت تلـك العبـارة، لكنهـا لم تُجـب مـن شـدة الألم، اكتفـت بإيمـاءةٍ خفيفـةٍ مـن رأسـها..

"لسه مش عارفه تنامي؟!"..

بلعت ريقها بصعوبةٍ لتقاوم جفاف حلقها ثم أجابت بحدة، وهي تمسك برأسها من شدة الألم:

- إنتِ عارفة إني مش بنام.

- لسه بتحبيه؟!.

ازدادت حدة الطنين ومعه ازداد الألم في رأسها، فقالت بصوتٍ خرج مرتجفًا من بين أسنانها التي كانت تصطك بعنفٍ:

- السؤال هو، إنتِ بتحبيه؟!.

لم يأتها رد، فقط ضحكة هازئة.. قالت وهي تُكافح الألم الفظيع الذي تملَّك كل كيانها، وتلك الرعشة القوية التي اجتاحت جسدها:

- بلاش تعملي كده، أرجوكي.

كان الصمت هو الجواب مجددًا.. بدأ الظلام يسيطر على عالمها فانتفض جسدها في عنفٍ، أردفت قبل أن تسقط متهاويةً:

- هتندمي.

***

جلس المقدم "معتز الشامي" في مكتبه بقسم شرطة قصر النيل شاردًا.. كانت الأيام القليلة الماضية قد حملت له من المفاجآت ما عجز عقله عن تصديقه.. تغيرت معها قناعاتٌ كثيرةٌ كان قد رتب حياته على الإيمان بها.. أطفأ سيجارته بغضبٍ في مطفأةٍ معدنيةٍ امتلأت عن آخرها بأعقاب السجائر.. أسند مرفقيه على المكتب ثم دفن وجهه بين راحتيه، أغمض عينيه في يأسٍ وهو لا يدري ما القرار الذي يجب عليه اتخاذه..

سمع صوت طرقتين مهذبتين على الباب، دخل في عقبهما أحد العساكر يرتدي زيًّا مدنيًا ووقف أمامه في احترامٍ شديدٍ.. وضع جرائد الغد أمامه بعد أن أدى له التحية ثم انصرف في خطواتٍ سريعةٍ.. تأمل "معتز" الجرائد لوهلةٍ ثم أمسك بها يقرأ عناوينها الرئيسية دون أدنى اكتراث.. كانت الأخبار مكررةً كالعادة، لا جديد فيها..

اتسعت عيناه حين وقعتا على خبرٍ مكتوبٍ في أسفل الصفحة الأولى من جريدة "الأهرام" كعنوانٍ رئيسي بخطٍّ واضحٍ:

"نجحت مباحث القاهرة بقيادة المقدم/ معتز الشامي في كشف غموض قضية مقتل الفنانة/ صفاء عبدالحميد، بعد أن صدرت التعليمات من قيادات مديرية أمن القاهرة

تـم تشـكيل فـرق بحـث جنـائي حققـت في كل ملابسـات الجريمـة. توصلـت المصـادر السريـة إلى معلومـاتٍ مفادهـا تـورط طبيـب نفـسي، كانـت الفنانـة تـتردد عـلى عيادتـه، في قتلهـا. بعـد الحصـول عـلى إذن النيابـة المختصـة.....".

لم يُكمـل "معتـز" قـراءة الخـبر، رنَّ هاتفـه الداخـلي فـردَّ صائحًـا وقـد تملكـه الغيـظ:

- أنا مش قلت مش عاوز إزعاج.

صمـت لوهلـةٍ يسـتمع لصـوت مُحدثـه ثـم ألقـى بالجريـدة عـلى المكتـب، وتسـارعت أنفاسـه بشـكلٍ لاهـثٍ.. أغمـض عينيْـه في ألمٍ وهـو يقـول في حـزنٍ:

"مش ممكن!!".

أمسـك مفاتيـح سـيارته سريعًـا، وغـادر مكتبـه متجهًـا إلى طريـق مـصر الإسـكندرية الصحـراوي.. طـوال الطريـق لم يتوقـف عقلـه عـن العمـل لحظـةً واحـدةً.. لم يشـعر بتلـك السرعـة المخيفـة التـي أشـار إليهـا مـؤشر عـداد السرعـة، لم يُبـال بالرؤيـة التـي كانـت شـبه منعدمـةٍ نتيجـة الأمطـار الغزيـرة ولا بالطريـق الـذي أصبـح زلقًـا.. كان يفكـر كيـف يمكـن أن تتسـارع الأحـداث وتتطـور حتـى تصـل إلى تلـك الدرجـة مـن العبـث..

أوقـف سـيارته فجـأةً، بعـد أن قطـع المسـافة في زمـنٍ قيـاسي، أمـام السـور الضخـم لتلـك المصحـة الشـهيرة.. تُزيـن مدخلهـا لافتـةٌ دعائيـةٌ ضخمـةٌ، مضـاءة بنـورٍ مبهـرٍ، كُتـب عليهـا بخـط أنيـق: (مستشـفى د. هشـام وهـدان للصحـة النفسـية).. عـلى الرغـم مـن صـوت الرعـد الـذي كان هزيمُـه يـدوي بعنـفٍ في تلـك الليلـة الشـاتية الغزيـرة المطـر إلا أن صـوت توقـف السـيارة كان مسـموعًا.. كان الصـوت مرتفعًـا حـادًّا بـدَّد الهـدوء المعـروف عـن تلـك المنطقـة الصحراويـة النائيـة بعـد أن ضغطـت قدمـه بعنـف عـلى دواسـة الفرامـل..

هبـط مـن السـيارة بسرعـةٍ، وجـال ببـصره يفتـش في المكان مـن حولـه.. بصعوبـةٍ أبـصر سـيارة "أكـرم رشـدي" تقـف في الظـلام، بالقـرب مـن نهايـة الشـارع الجانبـي قبـل السـور المرتفـع للمصحـة.. وعـلى مسـافةٍ قريبـةٍ منهـا تقـف سـيارة بـدا لونهـا الأزرق باهتًـا، خمَّـن أنهـا تخـص "ليـلى".. اختلـس النظـر داخـل السـور، كان المـكان غارقًـا في ظـلامٍ يُماثـل تلـك العتمـة التـي سـيطرت عـلى الأجـواء.. فقـط القليـل مـن أضـواء باهتـةٍ تناثـرت في أنحـاء مختلفـةٍ مـن المصحـة، ضـوء بعيـد بـدا واضحًـا في مبنـى متطـرفٍ منعـزلٍ، عنـد الطـرف الجنـوبي للمـكان..

توتـرت عضـلاتُ وجهـه حـين تحسـس سـلاحه المـيري في جانـب بنطالـه الأسـود، تحـرك نحـو مدخـل السـور في حـذرٍ اكتسـبه مـن سـنوات عملـه بالمباحـث.. وجـد البـاب الحديـدي الضخـم مغلقًـا بإحـكامٍ، الحـراس محتمـون بغرفتهـم توقيًـا للبلـل.. دار دورةً كاملـةً حـول السـور المرتفـع حتـى وجـد نقطـةً تصلـح لتسـلقها، قفـز إلى الجهـة الأخـرى في رشـاقةٍ لا تتناسـب مـع جسـده الضخـم.. وارتسـمت عـلى وجهـه علامـاتُ الإرهـاق الشـديد بعـد أن أمـضى يومـه كلـه في العمـل..

تحـرَّك بخطـواتٍ حـذرةٍ نحـو الطـرف الجنـوبي، صـوب المبنـى المنعـزل.. تفحصـه جيـدًا، كان المبنـى أشـبه باسـتراحةٍ خاصـة مـن طابقـين.. أبـصر ضـوءًا في واحـدةٍ مـن غـرف الطابـق العلـوي.. دنـا مـن بـاب المبنـى الزجاجـي، المزيـن بنقـوشٍ ورسـوماتٍ أنيقـةٍ.. وجـده مفتوحًـا فدخـل عـلى الفـور بعـد أن سـحب سـلاحه، أمسـك بـه في يـده.. كان السـكون مسـيطرًا عـلى الأجـواء بصـورةٍ مقلقـةٍ، دارت في رأسـه الهواجـس والظنـون حـين تذكـر مـا آلـت إليـه الأمـور منـذ أن تـولى أمـر هـذه القضيـة..

انتبـه عـلى صرخـةٍ أنثويـةٍ هائلـةٍ، شـق صوتهـا حاجـزَ السـكون تـأتي مـن الطابـق العلـوي.. تحـرَّك في خفـةٍ وسرعـةٍ

نحوهـا، أخـبره حدسـه أنـه صـوت "ليـلى".. صعـد درجـات السـلم الرخامـي وقـد بلـغ منـه التوتـر أقـصى درجاتـه.. عـلى الرغـم مـن الـبرودة الشـديدة التـي كانـت تسـود الجـو فإنـه شـعر بسـخونةٍ غريبـةٍ تـسري في جسـده، وتجمعـت فـوق جبينـه حبـات مـن العـرق.. تحـرك عـلى أطـراف أصابعـه في ممـرٍّ طويـلٍ، عـلى جانبيـه غـرف موصـدة الأبـواب.. التـزم الصمـت تمامًـا، يُحـاول اسـتراق السـمع لتحديـد مـكان الصرخـة..

أتـاه صـوتٌ بـدا خافتًـا في البدايـة مـن غرفـةٍ مغلقـةٍ في نهايـة الممـر، اقـترب منهـا بخطـواتٍ حـذرةٍ.. كلـما اقـترب أكـثر زاد الصـوت وضوحًـا.. لم يتبـين منـه سـوى كلـماتٍ متفرقـةٍ غاضبـةٍ..

- هقتلك، هقتلك.

تحـرَّك سريعًـا نحـو البـاب يُحـاول فتحـه، لكنـه كان موصـدًا مـن الداخـل بإحـكامٍ.. ألصـق أذنـه بالبـاب فسـمع بصعوبـة..

- بلاش، أرجوك بلاش.

- بلاش إيه بالضبط؟

- بلاش موت.

- مش ممكن أسمح....

انتفـض جسـده حـين شـق سـمعه دوي طلـق نـاري في الغرفـة، اندفـع معـه "معتـز" عـلى الفـور يطـرق عـلى البـاب بقـوةٍ صارخًـا:

- افتحوا الباب!

لم يجـد جوابًـا فأخـذ يـركل البـاب بقدمـه بعنـفٍ شـديدٍ، ثـم اندفـع بكتفـه نحـوه بـكل قوتـه.. فجـأة، تـردد في فضـاء المـكان دوي طلقـةٍ ثانيـةٍ..

معها انهار البابُ تحت ثقل جسده..

دخـل "معتـز" الغرفـة فتسـمَّر في مكانـه، واقشـعر جسـده.. اعـتراه الذهـول، سـالت الدمـوع مـن عينيْـه..

***

..قبل أَرْبعة أيَّام..

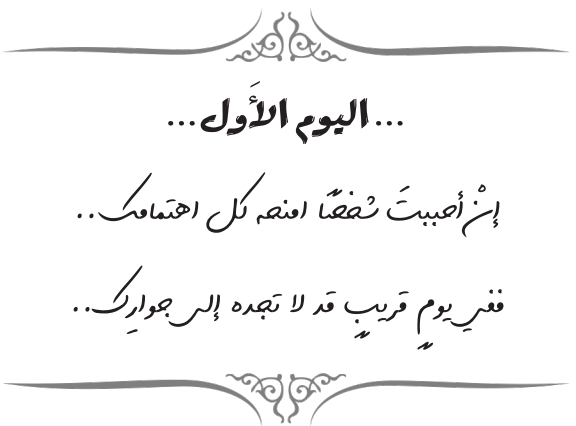

... اليوم الأَول ...

إنْ أحببتَ شخصًا امنحه كل اهتمامك..

ففي يومٍ قريبٍ قد لا تجده إلى جوارِك..

(٢)

داعبت أصواتٌ خافتةٌ أذنيْه فأقلقت نومَه، فارق النعاسُ عينيه المنهكتين ففتحهما في بطءٍ شديدٍ مشوبٍ بالحذر.. اعتدل "أكرم رشدي" فوق فراشه رافعًا عنه الغطاء الصوفي الذي كان يلتحف به فصدمه تيارٌ باردٌ من الهواء، يُناسب الجو القارس المميز لشتاء يناير.. كان الليل لا يزال يسدلُ أستاره على الأجواء فحاول أن يركز بصره ليخترق حجب الظلام التي تجمَّعت أمام عينيه، لكنه لم يتمكن.. فقط كان جُلُّ ما استطاعه أن يُحاول الإنصات لهذه الأصوات الخافتة..

بعد فترةٍ قصيرةٍ تمكنت أذناه من تمييز صوت ضحكةٍ طفوليةٍ صغيرةٍ أشرقتْ لصداها روحه، لكن في نفس الوقت انتابه إحساسٌ غامضٌ بالخوف الشديد فور سماعها، خوف لا يعلم له سببًا.. دفعه ذلك الخوف إلى

توخي المزيد من الحذر، فتحرَّك على أطراف أصابعه في اتجاهها..

خارج غرفته كان هناك ممرٌّ طويلٌ يُوجد في نهايته غرفة لها بابٌ مُغلق، من جهته يصدر الصوت.. لم يكن الباب مغلقًا بالكامل بل كان مواربًا فقط، يسمح بخروج الصوت من الغرفة وكذا بصيص من نورها يكفي لإضاءة الممر..

تحرَّك ببطءٍ شديدٍ يجر قدميْه في اتجاه باب الغرفة، كأن قدميْه مربوطتان إلى الأرض بحجرٍ ثقيلٍ.. توقف في منتصف المسافة بعد أن سمع تلك الضحكة الطفولية مجددًا تتردد في فضاء المكان.. تلفت حوله لكنه لم يجد لمصدرها أي أثر..

أكمل سيره مقتربًا من الباب أكثر فأكثر.. ومع اقترابه كان قلبه يخفق بشدةٍ ويعلو صوت دقاته، حتى كادت تلك الدقات أن تُشكل إيقاعًا متجانسًا مع وقع خطواته المتجهة إلى الغرفة.. حاول أن يختلس النظر مستغلًا تلك الفرجة البسيطة في الباب علَّها تسمح له بالرؤية، لكنها لم تكن كافيةً..

فجـأةً سـمع صـوت صراخٍ أنثـوي يـدوي عاليًـا داخـل الغرفـة، اسـتجمع شـجاعته وأمسـك بمقبـض البـاب بيـدٍ مرتعشـةٍ.. وبـدأ في دفعـه ببـطءٍ شـديدٍ.. و..

انتفـض جالسًـا عـلى فراشـه والعَـرق الغزيـرُ يتصبَّـب مـن جسـده.. كابـوسٌ جديـدٌ كتلـك التـي اعتـادت أن تُقلـق منامـه كل ليلـة في الآونـة الأخـيرة.. تلفـت حولـه في قلـقٍ حـين سـمع "ليـلى" زوجتـه تسـأله في لا مبـالاة:

- كابوس برضه؟!

التفـت نحوهـا بحـدةٍ بعـد أن اغتـاظ مـن سـؤالها السـخيف.. كانـت تنظـر لـه مـن أسـفل جفنيهـا المتثاقلـين، لا يـزال النعـاس يُسـيطر عليهـما فبـات منظرهـما غريبًـا.. لا هـما بالمفتوحـين ولا بالمغلقـين، فقـط جفنـان منتفخـان تصـدر مـن خلفهـما نظـراتٌ جامـدةٌ لا أثـر فيهـا للحيـاة.. حالـةٌ عجيبـةٌ مـن اللامبـالاة والتبلـد انتابـت زوجتـه مؤخـرًا، كانـت تُسـبب لـه ضيقًـا منهـا كدأبهـا حيـال كل الأمـور في الفـترة الأخـيرة.. تجـاوز تلـك المشـاعر السـلبية التـي اجتاحتـه دفعـةً واحـدةً حـين سـمع صوتهـا، وحـاول أن يجعـل الحـوار بينهـما عاديًـا، فسـألها:

- خدتي الدوا بتاعك؟!

- أُمال يعني أنا خِلقتي كِده.

أيقـن أنـه لا فائـدة مـن الحـوار معهـا فآثـر السـلام، وانتفـض مـن الفـراش مغـادرًا غرفـة النـوم نحـو الشرفـة عـسى أن يسـاعد هواؤهـا البـارد عـلى تصفيـة ذهنـه.. توقـف في منتصـف الممـر الموصـل لهـا حـين سـمع صـوت نفـس الضحكـة الطفوليـة يصـدر مـن غرفـةٍ مغلـق بابهـا بإحـكامٍ منـذ فـترةٍ.. هـمَّ بـأن يفتحـه لكنـه عـدل عـن رأيـه في اللحظـة الأخـيرة بعـد أن شـعر بغصـةٍ مؤلمـةٍ في حلقـه فأكمـل الطريـق نحـو الشرفـة..

وقـف يسـتمتعُ بلسـع الهـواء البـارد في وجهـه ورقبتـه ثـم أشـعل سـيجارة أخـذ يسـتمد مـن دخانهـا قليـلًا مـن الـدفء.. كان النعـاس قـد فارقـه تمامًـا فتداعـت أمامـه ذكريـاتٌ وأفـكارٌ عديدةٌ..

فكَّـر في "ليـلى" التـي لم يعـد بينهـما وفـاقٌ مـن أي نـوعٍ بعـد أن كانـت حياتهـما هادئـةً، يتحـاكى النـاس بحُسـن عشرتهـما.. سـأل نفسـه كثـيرًا هـل أحبهـا؟!، أم أنـه كان فقـط التعـود؟!..

كانـت لـه فلسـفةٌ خاصـة في شـأن الحـب.. كان مقتنعًـا في قـرارة نفسـه أنـه لا وجـود لمـا يُسـمى بالحـب، لكنـه فقـط الاعتيـاد.. فالرجـل يعتـاد امـرأةً معينـةً حتـى تتأصـل فيـه

تلك العادة، فيظن أنه يحبها.. تمامًا كالسجائر، فما الفرق بين من يدخن "المارلبورو" ومن يدخن "الميريت"؟!.. لا شيء على الإطلاق، فقط التعود.. حتى إننا حين نتحدث عن تلك العادة نقول إننا نحب السجائر ماركة كذا ولا نقول إننا نعتاد عليها.. ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ واسعةٌ وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته ثم ينفثه في قوةٍ مراقبًا تراقص دوائر دخانه أمام عينيه، كان معجبًا بتحليله للأمور..

لكن مشكلته كانت تكمن في أنه رجلٌ متعدد الأذواق.. فتارة تعجبه "المارلبورو" وتارة أخرى تفتنه "الميريت"، وأحيانًا تشتاق نفسه إلى "الكليوباترا".. وكذا كان حاله مع النساء، مرة يصحب الشقراء الراقية، أخرى بيضاء مثقفة، ولا يوجد أدنى مانعٍ من أن تكون سمراء شعبية.. لا يهم، فقط هو يحب النساء.. ليس كلهن بالطبع، فقط صاحبات تلك المواصفات التي حددها بدقةٍ شديدةٍ..

كان يُفضلها أربعينيةً متوسطة الطول والقوام، أرملة أو مطلقة أو حتى متزوجة.. يشترط فقط ألا تكون عذراء.. لها شَعرٌ ناعمٌ قصيرٌ أيًّا كان لونه، أما عن باقي التفاصيل فلم تكن تُسبب له مشكلةً من أي نوعٍ.. فقد كان مؤمنًا أن كلهن متساوياتٌ في نهاية الأمر، لا فرق بين قُبلة

إحداهـن وأخـرى.. كان دائمًـا مـا يفخـر بقولـه أمـام أصدقائـه: "اجعـل الإضـاءة خافتـةً أو اطفئهـا تمامًـا، عندهـا تتسـاوى كل الأمـور"..

هـزَّ رأسَـه في عنـفٍ طـاردًا عنهـا تلـك الأفـكار العابثـة التـي ضربـت عقلـه في هـذا التوقيـت الغريـب، وعـاد يفكـر في "ليـلى" مجـددًا.. كان يعلـم أنـه يحترمهـا ويُقدرهـا فهـي المـرأة الفاضلـة الوحيـدة في حياتـه، كان ذلـك كافيًـا بالنسـبة إليـه كي يتزوجهـا.. لكنـه أبـدًا لم يشـعر معهـا بتلـك الـشرارة التـي كان يشـعر بهـا مـع غيرهـا..

"مـا الـذي غـيَّر الحـال في الفـترة الأخـيرة؟!، لم أفقـد حتـى هـذا الاحـترام نحوهـا؟!".. سـأل نفسـه كثـيرًا دون أن يجـد إجابـة..

مـن جديـدٍ سـمع تلـك الضحكـة الطفوليـة فالتفـت خلفـه سريعًـا لكنـه لم يجـد أحـدًا.. قطَّـب جبينيْه في ضيـقٍ، كان يعلم بحكـم تخصصـه أنـه يُعـاني مـن جـراء صدمتـه الأخـيرة.. يُـدرك أنـه مريـضٌ بحاجـةٍ إلى العـلاج، لكنـه كان في ذات الوقـت يُنكر قـدرة أحـد عـلى شـفائه.. كان يعلـم بحكـم خبرتـه الطويلـة أن أصعـب أنـواع المـرضى هـو المريـض المثقـف، حيـث يُصـور لـه غـروره قدرتـه عـلى عـلاج نفسـه مـن أي عـارضٍ يُلـم بـه.. فكيـف يكـون الحـال إذا كان المريـض طبيبًـا نفسـيًّا؟!..

أغمض عينيْه في ألمٍ بعد أن ضربته ذكرى ذلك الحادث الذي سبَّب له تلك الهلاوس والأوهام، ثم فتحهما في قوةٍ وهو يدهس بقدمه بقايا سيجارته على الأرض.. تذكر ذلك الحوار الذي دار بينه وبين "ليلى" بالأمس حين كانت تُحاول إقناعه بالذهاب إلى زميل دراستهما الذي أصبح طبيبًا نفسيًّا مرموقًا الآن، الدكتور "هشام وهدان".. لا يذكر عنه الكثير سوى أنه كان سمجًا لزجًا، ينافسه على الفوز بقلب "ليلى".. لكنها اختارته هو في النهاية على الرغم من عدم خوضه لغمار هذه المنافسة لإيمانه بأنه لا توجد فتاةٌ تستحق الصراع من أجلها.. كان مبدأه الذي لا يحيد عنه، لا ينفك يردده دومًا:

"إذا احتار قلبك في الاختيار بيني وبين غيري، لا تختاريني"..

زفر في ضيقٍ، ثم غمغم وهو يُغادر الشرفة:

- حسنًا يا دكتور، فلنلهُ معًا قليلًا.. وليفز الأفضل.

***

وقف "أكرم" أمام المرآة الضخمة لدولاب ملابسه طويلًا.. يتأمل هيئته بعد أن شارف على بلوغ الأربعين، كانت قد اختلفت كثيرًا عما مضى.. فبعد صدمته الأخيرة

أهمل في مظهره، وأصبح لا يكترثُ بتصفيف شعره خصوصًا بعد ظهور تلك الشعيرات البيضاء فيه.. فقد شغَفه القديمَ بالاهتمام بهندامه بعد أن كان يقضي وقتًا في اختيار الألوان المتناسقة.. أصبح ينسى حلاقة ذقنه التي كان يهتم بها صباح كل يوم.. حتى جسده الذي يحرص عليه فكان رياضيًا ممشوقًا ظهر فيه بروزٌ خفيفٌ عند البطن.. لوى "أكرم" شفته السفلى في امتعاضٍ ثم نظر لساعة يده، كان موعده مع الدكتور "هشام وهدان" في تمام الخامسة مساءً..

ما زالت أمامه فُسحة من الوقت، قرَّر أن يُلبي طلب واحدةٍ من مرضاه القدامى حادثته صباح اليوم لتحديد موعد.. وجد أنها فرصةٌ جيدةٌ للمرور على عيادته التي أغلقها منذ أكثر من عام، بعد أن حدث ما حدث..

نظر نحو "ليلى" التي كانت مستلقيةً كعادتها في الفراش، لا هي بالنائمة ولا بالمستيقظة.. عيناها مستقرتان عند نقطةٍ وهميةٍ في سقف الغرفة، لا تتوقف عن التحديق فيها.. أغمض عينيْه في ضجرٍ، ثم قال:

- أنا نازل، عايزة حاجة؟

حرَّكت عينيْها ببطءٍ شديدٍ نحوه ثم مضت تتأمل هيئته غير المتناسقة ولم تُعقب، أشاحت بوجهها عنه ثم

عـادت لسـيرتها الأولى تتأمـل سـقف الغرفـة.. هـزَّ "أكـرم" كتفيـه في لا مبـالاة ثـم تحـرَّك مغـادرًا الشـقة.. لم يُعـر أدنى انتبـاهٍ لصـوت الضحكـة الطفوليـة الـذي عـاد يـرن مجـددًا في ممـرِّ الشـقة قبـل أن يُغادرهـا..

طـوال الطريـق مـن مـصر الجديـدة حيـث يسـكن وحتـى منطقـة الدقـي التـي تقـع بهـا عيادتـه كان عقلـه يفكـر في تلـك المريضـة التـي مـا زالـت تُصر عـلى الـتردد عـلى عيادتـه.. وعـلى الرغـم مـن إيمانـه الراسـخ بخطـأ الاعتقـاد الشـائع مـن أنـه يكفـي المريـض الذهـاب مـرةً أو مرتـين للطبيـب النفـسي حتـى يتـم شـفاؤه.. فالطبيـب النفـسي في رأيـه أشـبه برجـلٍ يحفـر حفـرةً هائلـةً في نفـس كل مريـضٍ كي يصـل إلى أعـماق نفسـه ويسـبر أغوارهـا، يعـرف علتـه ويُحـاول علاجـه.. وعمليـة الحفـر هـذه أو العـلاج قـد تسـتمر شـهورًا وسـنواتٍ، بـل قـد تمتـد لتكـون عمـرًا بأكملـه.. عمـر المريـض، وعمـر الطبيـب!!..

إلا أنـه كان موقنًـا كذلـك بوجـود طائفـةٍ مـن المـرضى يكـثرون مـن الـتردد عـلى العيـادات النفسـية لمجـرد التـزود بجرعـةٍ مـن الراحـة يجدونهـا لدى الطبيـب.. أو بدافع السـعي وراء الموضـة، كـما هـو حـال عمليـات التجميـل هـذه الأيـام.. دون أن يسـتدعي مرضهـم كل هـذا الـتردد، بـل قـد لا يكونـون

مـرضى مـن الأسـاس، فقـط هـم يُعانـون مـن فـراغٍ شـديدٍ.. مـع مـرور الوقـت يتحـول تـردد بعضهـم عـلى العيـادات النفسـية إلى إدمـان، تمامًـا كإدمـان الخمـر أو المخـدرات.. كان في غالـب الأحيـان لا يقبـل هـذه النوعيـات مـن المـرضى، غـير أن بعضهـم كان اسـتثناء.. و"صفـاء عبدالحميـد" كانـت واحـدةً مـن بـين هـذه الاسـتثناءات..

أوقـف سـيارته صـف ثـاني أمـام العـمارة التـي تقـع بهـا العيـادة في شـارع التحريـر بالدقـي.. رأى عـم "صـلاح" البـواب جالسًـا عـلى كـرسي خشـبي أمـام مدخـل العـمارة يُدخـن سـيجارة وينظـر نحـوه بـلا اكـتراثٍ، فتحـرك نحـوه بعـد أن وضـع يـده في جيبـه.. انتفـض الرجـل العجـوز مـن مكانـه واقفًـا فـور أن شـاهده يضـع يـده في جيبـه وألقـى بسـيجارته أرضًـا، ورسـم عـلى وجهـه علامـات ترحيـبٍ زائفـةً، ثـم صـاح:

- أهـلًا أكـرم بيـه، حمـدا للـه عـلى السـلامة يـا باشـا.. دي العـمارة نـورت واللـه.

نقـده "أكـرم" ورقـة مـن فئـة الخمسـين جنيهًـا فتلقاهـا العجـوز وعينـاه تلمعـان بجشـعٍ واضـحٍ ثـم قبَّلهـا في حنـانٍ ودفنهـا في جيـب جلبابـه البنـي.. صعـد "أكـرم" درجـات السـلم في هـدوءٍ تتبعـه دعـوات وبـركات عـم "صـلاح"، وهـو يُفكـر مبتسـمًا أن بـواب العـمارة هـو أهـم شـخصية بهـا.. لـو

علـم السـكان أهميـة هـذه الخمسـين جنيهًـا لأغدقـوا عليـه الأمـوال، ولأصبـح البـواب أغنـى مـن أي سـاكنٍ في العـمارة..

تذكـر وقـت أن كان طبيبًـا شـابًّا، يصحـب الفتيـات لعيادته فـكان عـم "صـلاح" يمنـع صعودهـن.. حتى تشـاجر معـه ذات يـومٍ وهَـمَّ بتعنيفـه إلا أنـه فوجـئ بـه يصيح بأعـلى صوته:

"هذه عمارة محترمة وسكانها ناس أفاضل"..

ذكـره بـأن السـت أمـه حـين كانـت تقيـم في الشـقة قبـل أن يحولهـا لعيـادةٍ لم يكـن أحـد يسـمع لهـا صوتًـا.. ابتسـم حـين تذكـر ذلـك الخـوف والتوتـر اللذيْـن سريـا في عروقـه وقتهـا، لكـن فطنتـه التـي ورثهـا عـن أمـه جعلتـه يُحسـن التـصرف فوضـع يـده في جيبـه وأخـرج ورقـة مـن فئـة الخمسـة جنيهـات شـهق لهـا عـم "صـلاح" مـن الفرحـة..

مـن ذلـك الوقـت وعـم "صـلاح" يقـوم بتوصيـل ضيوفـه وخاصـة النسـاء حتـى بـاب العيـادة، بـل ويجلـس في انتظارهن حتـى يُغـادرن ويحـرص عـلى توديعهـن وداعًـا مصحوبًـا بـأرق العبـارات والأمنيـات بقضـاء سـهرة سـعيدة.. بالطبـع لم تعـد تلـك الخمسـة جنيهـات تكفـي بـل زادت كل فـترةٍ لتتناسـب طرديًّـا مـع زيـادة الأسـعار وارتفـاع سـعر الـدولار!!.. حتـى أصبحـت الخمسـة جنيهـات خمسـين جنيهًـا!!.

دفع بيده باب العيادة فأصدر صريرًا خافتًا يناسب تلك الفترة التي بقيت خلالها الشقة مغلقة.. ضغط على زر الإضاءة فلم تستجب له الكهرباء.. حاول معه مرةً أخرى لكن بلا جدوى.. خرج إلى سلم العمارة مناديًا على عم "صلاح" الذي صعد السلم برشاقةٍ لا تناسب سنوات عمره السبعين.. أخبره عم "صلاح" أن فواتير الكهرباء تراكمت على الشقة وأنه قد أرسل له أكثر من مرةٍ دون إجابةٍ، لم يجد مُحصل الكهرباء أمامه سوى أن يفصل العداد عن الشقة.. تبرم "أكرم" في ضيقٍ، لكن عم "صلاح" كان عنده الحل كالعادة..

أخبره أنه يمكن أن يمنحه توصيلة مؤقتةً يُنير بها العيادة حتى يمنحه المال اللازم لسداد قيمة الكهرباء المتأخرة.. وافقه "أكرم" على الفور وهمَّ بالدخول للعيادة لكنه سمع نحنحةً مهذبةً من عم "صلاح".. رماه "أكرم" بنظرةٍ حانقةٍ ثم مدَّ يده في جيبه وأخرج ورقةً خمسينية أخرى ووضعها في قبضته.. انهالت عليه الدعوات والبركات من فم عم "صلاح" حتى خُيل إليه أنه لن يتوقف..

تركه "أكرم" متأففًا ودخل إلى العيادة على ضوء كشاف هاتفه المحمول.. من خلال ضوئه الخافت لاحظ أن كل

شيء في مكانه تمامًا كما تركه من عام بالتمام والكمال، فقط بعض التراب والغبار المتراكم..

تحرَّك نحو غرفته الخاصة بعد أن ترك باب العيادة مفتوحًا حتى يتمكن عم "صلاح" من عمل التوصيلة المطلوبة.. نظر نحو مكتبه بترددٍ ثم استجمع شتات نفسه وجلس خلفه.. أخذ نفسًا عميقًا حين تذكر أيامه الخوالي في هذه العيادة.. ارتسمت على محياه ابتسامةٌ خفيفةٌ، مدَّ على أثرها يده فاتحًا الدرج الأيمن العلوي من المكتب.. عبث قليلًا في محتوياته على ضوء الكشاف حتى عثر على ملف أحمر اللون مكتوب عليه "ملف السيدة/ صفاء عبد الحميد".. فتحه أمامه ثم بدأ يقلب في أوراقه وذكريات تعارفه عليها تلح على عقله..

قابلها للمرة الأولى منذ خمس سنوات.. في ذلك المركز الرياضي الشهير على ضفاف نيل الجيزة، رواد هذا المركز هم صفوة المجتمع ونجومه.. لم تكن لديه مشكلة في تحمل تكلفة الاشتراك به، على الرغم من تكلفته الباهظة إلا أن إيمانه بأهمية المحافظة على تناسق جسده كانت تفوق تلك التكلفة..

في هذا اليوم كان قد أنهى تدريباته اليومية الصارمة، التي تبدأ في تمام الثامنة من كل صباح.. انتفخت عروقه

وبـرزت عضـلات صـدره وذراعيـه القاسـية مـن تحـت ملابسـه الرياضيـة، أكسـبه العـرق المنتـشر عـلى وجهـه ورقبتـه جاذبيـةً أضافـت لوسـامته الطبيعيـة رونقًـا خاصًّـا.. لم يعـد باقيًـا أمامـه ليختتـم برنامجـه اليومـي سـوى نصـف سـاعة فقـط يقضيهـا في السـير عـلى تلـك الآلـة المخصصـة لممارسـة رياضـة المـشي..

هنـاك التقاهـا للمـرة الأولى، كانـت تركـض عـلى الآلـة المجـاورة لـه بالضبـط.. كان شـكلها في الطبيعـة أجمـل بكثـيرٍ عـما شـاهده عـلى الشاشـة.. حقًّـا هـي تبـدو أقـصر قليـلًا وأنحـف بعـض الـشيء.. إلا أن بيـاض بشرتهـا كان بالفعـل ثلجيًّـا، وشَـعرها القصـير كان حقًّـا أحمـر.. تشـاغل عـن متابعـة فتنتها الأخـاذة بالركـض بعـد أن كان يُخطـط لممارسـة المـشي، غـير أن عينيْـه خانتـاه بعـد برهـةٍ قصـيرةٍ وأخذتـا تختلسـان النظـرات لرجرجـة جسـدها البـضِّ أسـفل ملابسـها الرياضيـة الكاشـفة.. كان جسـدها سـاحرًا بحـق تشـعر حـين تـراه برغبتـه العارمـة في الانطـلاق، كأنهـا مهـرةٌ بريـةٌ جامحـةٌ تبحـث عـن حريتهـا.. تناسـق سـاقيْها مـع اسـتدارة ردفيْهـا تـرى فيهـا مدلـول كلمـة الإعجـاز، كأن جسـدها منحـوتٌ بيـد أمهـر نحـاتي العـالم بـأسره..

أخـذت نظراتـه تسـتكين عـلى مفاتنهـا شـيئًا فشـيئًا، كان ذلـك كافيًـا لأن يـشرد ذهنـه عـن متابعـة حركـة قدميْـه عـلى

آلـة المـشي فسـقط متعـثرًا مـن فوقهـا.. اعـتراه حـرجٌ بالـغٌ حين حـاول النهـوض، بقـي رأسـه منكسًـا لا يجـرؤ عـلى مواجهـة أعـين رواد المركـز المتطفلـة.. انتبـه عـلى يـدٍ رقيقـةٍ تمتـد لـكي تعاونـه عـلى النهـوض، سـمع صوتًـا أنثويًّـا رائقًـا يُخاطبـه:

- ولا يهمك ما يقع إلا الشاطر.

رفـع رأسـه صـوب محدثتـه دون أن يعقـب، تحامـل عـلى نفسـه حتـى وقـف دون أن يسـتعين بيدهـا.. بادرتـه قائلـةً:

- إنت بقى الدكتور أكرم رشدي؟!

- حضرتك تعرفيني؟!

سألها بتعجبٍ، فأردفت في دلالٍ:

- طبعًـا، هـو في حـد يشـوف القمـر ده ومـا يحاولـش يعرفـه.

باغتـه أسـلوبها الهجومـي وشـعر بالدمـاء الحـارة تندفـع إلى وجنتيـه، لكنـه لم يستسـلم لهـا فحـاول التماسـك أمامهـا ليظهـر أنـه مجـرب خبـير فقـال:

- هو في قمر ممكن يتشاف جنب الشمس؟!

أطلقت ضحكةً رنَّت في أرجاء المركز وتراقصت معها قلوب رواده، رمته بنظرةٍ ناعسةٍ من عينيها الزرقاوين، ثم قالت:

- طيب ابقى خلي بالك بعد كده، اللي يبص للشمس كتير ممكن يعمى.

تعددت لقاءاتهما بعد ذلك اليوم كثيرًا، توطدت علاقتهما فقد كان إعجابهما متبادلًا.. فعلى الرغم من فارق العمر بينهما الذي يجاوز سبع سنوات، لم تجد هي أدنى حرجٍ في صحبته.. أما هو فلم يكن يعي ما يفعله، فقط كان منساقًا وراء إعجابه بها دون أن يجد له مبررًا.. أكثرت من زيارته في عيادته تشكو له من معاناتها مع زوجها السابق، الذي كان لا يرى فيها سوى وجه جميل وجسد يشتهيه للمتعة على فتراتٍ متباعدةٍ.. حكت له عن طلاقها منه بعد أن ضبطته متلبسًا بخيانتها.. شكت له إحساسها الفظيع بالوحدة، شعورها البغيض بالحرمان.. أخبرته بكل حواسها أنها تعاني من فراغٍ شديدٍ..

كان يعلم بحكم مهنته معنى تلك النظرات اللامعة التي ترميه بها حين ينفردان في حجرة مكتبه، يُدرك أنها فطنت لسقوطه أسيرًا في شَرك جسدها الساحر.. كان موقنًا من أنها نجحت في قراءته وفك طلاسمه، تمامًا كما كان

يُحاول هو أن يفعل.. لم يكن يُصدق نفسه، ولم يدر ماذا يفعل؟!.. كان يُحاول الهرب من شِراكها دومًا بالتقليل من قدر نفسه في حديثه معها، لكنها كانت دائمًا تقول بنبرةٍ صادقةٍ:

- بلاش تواضع، أكيد إنت عارف قدرك كويس.

لم يستطع مقاومة فتنتها كثيرًا فاستسلم صاغرًا، وفي نهاية الأمر ألقى بنفسه في أحضانها الدافئة.. حين قبَّلها أول مرة كانت قبلته هادئةً تحمل خوفًا ونهمًا في وقتٍ واحدٍ.. أزاحته من فوق شفتيها برفقٍ، ثم قالت ضاحكةً:

- إنت محتاج دروس كتير على فكرة.

لم يفهم معنى عبارتها في ذلك الوقت، لكنه الآن يعلم أنها قد لقنته من فنون الحب ما قد تعجز كبرى الجامعات والمدارس عن تعليمه..

انتبه من شردوه وأفكاره حين أضاءت غرفة المكتب فجأةً، تلفت حوله مندهشًا من قدرات عم "صلاح" التي تفاجئه على الدوام.. سمع حركةً خافتةً عند مدخل العيادة، بعد وهلةٍ ظهرت "صفاء" تقف على باب غرفة مكتبه.. تميل قليلًا بنصفها العلوي فيظهر نهداها بارزين

خـارج قميصهـا المفتـوح.. ترجـع برأسـها للـوراء قليـلًا فتهتـز خصلـة حمـراء مـن شـعرها الناعـم ثـم تقـول في غنـجٍ:

- إنت هتفضل قاعد عندك كتير.

ارتفعـت حـرارة جسـده وفـارت دمـاؤه فيـه فاندفـع نحوهـا حتـى وقـف أمامهـا يتأمـل بديـع خلقتهـا، فجـأةً رفـع كفـه ثـم هـوى بـه عـلى وجههـا في قـوةٍ.. تأوَّهـت في ميوعـةٍ، ثـم قالـت:

- وحشتني يا طفلي العنيد.

صفعهـا مـرةً أخـرى فتأوهـت مجـددًا، مـدَّ يـده يجذبهـا نحـوه فشـعر بهـا تلـين بـين ذراعيـه مرتميـةً في صـدره القـوي.. تنـاول شـفتيها المكتنزتـين ناهـلًا منهـما مـا لم يشـبع منـه أبـدًا..

***

(٣)

كانت عقارب ساعة يد "أكرم" قد أشارت إلى تجاوزها الخامسة والنصف حين أوقف سيارته أمام "كوستا كافيه" بشارع جامعة الدول العربية في حي المهندسين، حيث كان موعده المضروب للقاء "هشام وهدان".. كانا قد فضَّلا أن يكون اللقاء في مكانٍ عام خارج عيادة الأخير حتى يتمكنا من كسر الحواجز بينهما في البداية..

وقف يعدل هندامه أمام زجاج واجهة الكافيه بعد أن انعكست صورته عليه.. كان قد استعاد الكثير من ثقته في نفسه بعد أن أنهى لقاءه الملتهب مع "صفاء".. عاد لوجهه تورُّده وشعر بعودة الدماء لشتى أجزاء جسده..

عدل بكفه خصلةً نافرةً من شعره، وابتسم حين تذكر كيف كانت تجذبه من شعره وتنشب أظفارها في ظهره

وهـي تتـأوه مـن فـرط نشـوتها.. دخـل إلى الكافيـه شـاحذًا كل أسـلحته للقـاء زميـل دراسـته القديـم..

رآه مـن بعيـدٍ جالسًـا في القسـم المخصـص لغـير المدخنـين، أشـار إليـه بيـده مُحييًـا، فقـام "هشـام" يسـتقبله حـين اقـترب منـه.. وجـده كـما تركـه بالضبـط لم يتغـير فيـه شيء سـوى قليـلٍ مـن الشَّـعر الأبيـض غـزا رأسـه، وذلـك الشـارب واللحيـة الدوجـلاس اللـذان تركهـما ينبتـان عـلى وجهـه.. طويـلًا رفيعًـا، نحيـل الوجـه.. نظـارة طبيـة أنيقـة تقـف أمـام عينيـه اللامعتـين كأنهـما تحرسـانهما.. تفاحـة آدم تـبرز بوضـوحٍ في منتصـف رقبتـه بالضبـط.. كل شيء فيـه مرتـبٌ مُنمـقٌ، لكـن ذوقـه ارتقـى كثـيرًا في الملبـس فلـم يعـد واضحًـا عليـه أصولـه الريفيـة مـن اختياراتـه الفاقعـة للألـوان كـما كان معتـادًا منـه..

بعـد تحيـةٍ فاتـرةٍ جلـس "أكـرم" عـلى مقعـدٍ مقابـلٍ لمقعـد "هشـام"، الـذي نظـر في سـاعته كأنـه يلومـه عـلى التأخـير، ثـم قـال:

- أنـا فضلـت يكـون ميعادنـا بـره العيـادة، علشـان نكـون عـلى راحتنـا.
- هو أنا اتأخرت عليك شوية؟!

قالها "أكرم" بطريقةٍ مستفزةٍ، لكن "هشام" تجاوزها بابتسامةٍ صفراء، ثم قال:

- تشرب إيه يا أكرم؟

- دوبل اسبرسو.

أشار "هشام" للنادل إثر عبارة "أكرم" الأخيرة فحضر من فوره وأضاف للقهوة شايًا أخضر طلبه "هشام".. ارتسمت ابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتي "أكرم" بعد أن سمع طلب "هشام"، كان آخر ما يذكره عنه أنه لا يشرب الشاي إلا مغليًّا.. بعد انصراف النادل نظر "هشام" نحو "أكرم" مليًّا ثم قال بهدوءٍ:

- إيه أخبارك يا أكرم؟!

دقَّق "أكرم" في وجهه لبرهةٍ فوجده هادئًا ليس فيه ما يبعث على العصبية، إلا أن عينيْه كانتا تلمعان بذلك البريق الخبيث الذي كان مشهورًا عنه أيام الجامعة.. ضاقت حدقتا "أكرم" وباغته قائلًا:

- ليلى قالتلي إنها اتصلت بك.

- صحيح.

أجاب من فوره دون أدنى ترددٍ، وإن كانت عيناه قد ازداد بريقهما.. ابتسم "أكرم" حين علم أنه قد أصاب غريمه بالتوتر وقال:

- يا ريت ما تصدقش كل كلامها، إنت عارف إن الصدمة كانت كبيرة عليها.. الله يكون في عونها ويصبرها، دي كانت مش...

- وإنت يا أكرم، أخبار الصدمة معاك إيه؟

"هذا اللعين، يُحاول أن يلعب معي دور الطبيب النفسي".. حدث بها "أكرم" نفسه وهو يجزُّ على أسنانه غضبًا، لكنه تمالك أعصابه مرتديًا قناع الهدوء، وقال بنبرةٍ رصينةٍ:

- فعلًا الصدمة كانت قوية عليا، لكن هنعمل إيه؟!.. أمر الله.

- صحيح، ربنا يصبرك.

ضاقت حدقتا "هشام"بعد أن قال عبارته الأخيرة، ثم تفحص تعبيرات وجه "أكرم" جيدًا.. ساد الصمت بينهما لفترةٍ عندما جاء النادل يحمل ما طلباه، كانت بمثابة الهدنة بينهما حتى يستعدا للجولة الثانية من النقاش.. لكن "أكرم" لاحظ أثناء وضع النادل للطلبات على المائدة

التفاتـةً سريعـةً مـن عينـي "هشـام".. لفتـة تحمـل نظـرةً خاطفـةً لهـا ذات البريـق الخبيـث حـين أبـصر يـد "أكـرم" اليـسرى خاليـةً مـن خاتـم الـزواج.. اغتـاظ "أكـرم" لمـا فعلـه "هشـام" فثبـت نظـره عـلى عينـي الأخـير.. فـما كان منـه إلا أن حـوَّل بـصره صـوب فتـاةٍ كانـت تجلـس عـلى مائـدةٍ بالقـرب مـن مجلسـهما..

ارتسـمت ابتسـامة ظفـر عـلى وجـه "أكـرم" وحـدَّث نفسـه:

"أهـذا كل مـا لديـك يـا دكتـور؟!، لعلـك نسـيت أني أيضًـا طبيـب نفـسي.. كلنـا نفعـل نفـس الـشيء عندمـا نشـعر أن غريبًـا ضبطنـا ننظـر إلى شيء يملكـه، لا نريـد أن نجعلـه يعلـم بنظراتنـا فنحيـد بهـا عـلى الفـور نحـو أقـرب الجالسـين منـا.. حتـى نخـدع هـذا الغريـب، نقنعـه أننـا لسـنا مـن النـوع الـذي ينظـر لِمِلـك غـيره"..

صـبَّ "هشـام" شـايه الأخـضر في هـدوءٍ، ورشـف منـه على مهـلٍ بعـد أن اعتـدل في جلسـته وأسـند ظهـره إلى الكـرسي.. ثـم قـال:

- قول يا أكرم أنا سامعك!

استند "أكرم" بمرفقيْه على الطاولة، ثم قال بتحدٍّ:

- الحقيقة أنا مستغرب جدًّا للوضع إللي إحنا فيه.

- ليه؟!

- إيه إللي يخللي ليلى تتصل بك وتطلب مساعدتك؟!

- ودي فيها إيه؟!

ضحك "أكرم" مقهقهًا، ثم تراجع بظهره للوراء وقال في سخريةٍ:

- فيها إن ليلى دكتورة، وأنا كمان دكتور يا دكتوورر.

مال "هشام" بجسده إلى الأمام، واستند بمرفقيه إلى المائدة كأنه قبل التحدي، ثم قال:

- صحيح، بس أكيد إنت عارف يا دكتور إن المريض النفسي مستحيل يقدر يعالج نفسه.

أخرج "أكرم" علبة سجائره وأشعل واحدةً منها، وأخذ ينفث دخانها في عصبيةٍ، ثم قال:

- مش صحيح.

- مش فاهم.

- لأن علم النفس أصلًا مبني على إن المريض يعالج نفسه بنفسه.

- فعلًا، لكن ده لا يمنع أن الدكتور دوره مهم في كشف أعماق المريض أمام نفسه.

مطَّ "أكرم" شفتيه في ضيقٍ، ثم قال:

- مش مهم، مش عاوز أدخل معاك في جدل مالوش لازمة.. المهم لو ليلى كلمتك تاني قولها إني مش محتاج علاج، وأنا هبقى أتصرف.

رماه "هشام" بنظرةٍ متحديةٍ، ثم قال:

- آسف، ما أقدرش أعمل كده.

قال "أكرم" في تعجبٍ فشل في مداراته:

- يعني إيه ما تقدرش؟!

أردف "هشام" وقد ازداد لمعانُ عينيه:

- يعني ما أقدرش أتخلى عن مسئوليتي تجاه كل إللي بيلجأ لي.

جزَّ "أكرم" على أسنانه ثم قام واقفًا في غضبٍ، لملم أشياءه من فوق المنضدة، ثم تذكر شيئًا فلمعت عيناه وقال بنبرةٍ ذات مغزى:

- قوللي يا هشام، هو إنت اتجوزت ولا لسه؟

تراجع "هشام" إلى الخلف كالملدوغ، لكنه تمالك نفسه سريعًا ثم أجاب:

- لسه، لكن ليه السؤال؟!.. عندك عروسة؟!

ارتسمت على شفتيْ "أكرم" ابتسامةٌ ساخرةٌ، ثم قال متهكمًا:

- يا ريت، كان نفسي أساعدك.. بس على العموم ما تقلقش، أكيد هتلاقي واحدة تناسب مستواك.

صمت بعدها قليلًا، ثم قال وهو يضغط حروف كلماته ليفهم "هشام" مقصده:

- متشكر على وقتك يا دكتور، ويا ريت نبقى نتقابل تاني.

قالها "أكرم" ثم انصرف مغادرًا المكان دون أن ينتظر ردًّا.. ترك "هشام"وحده يراجع كل كلمة دارت في حوارهما بعد أن استند بظهره إلى المقعد.. جزَّ "هشام" على أسنانه في ضيقٍ وهو يلعن الساعة الذي وافق فيها على مقابلة هذا المتغطرس المغرور.

***

مضى وقتٌ طويلٌ لم يُحْصه "أكرم" انهمرت فيه المياه الساخنة في تتابعٍ ورتابةٍ من صنبور الإستحمام على رأسه التعب ووجهه المنهك.. كان لصوت انسيابها أثرٌ طيبٌ على ذهنه بعد أن استفاق جسده قليلًا، واستعاد جزءًا من حيويته بفعل البخار الكثيف الذي ملأ الحمام وتكاثفت قطراته على جدرانه.. أخذ عقله ينشط شيئًا فشيئًا بعد أن ذهب عنه مفعول الكحول قليلًا.. فبعد أن أنهى مقابلته مع "هشام وهدان" توجه إلى بار "ديلز" بالمهندسين، مكث فيه ما يقرب من ساعةٍ واحدةٍ شرب خلالها عدة كؤوس من شرابه المفضل "شيفاز ريجال".. كانت تلك عادته في الفترة الأخيرة، يحرص على المواظبة عليها بعد أن انقطع تمامًا عن ممارسة الرياضة..

حين عاد للبيت لم يجد "ليلى"، كان ذلك شيئًا غير اعتيادي.. فلم يكن من عادتها مغادرة البيت بعد أن كان ما كان، وامتنعت عن الذهاب إلى الجامعة لمزاولة عملها.. لم يُعر لغيابها اهتمامًا بل على العكس شعر بقدرٍ يسيرٍ من الحرية، وقرر الحصول على حمَّام منعشٍ يزيل به آثار لقائه مع "صفاء" ويسترد به حيويته..

خرج من حوض الاستحمام وقطرات الماء تتساقط من جسده العاري على أرضية الحمام البورسلين.. لم يتكبد عناء

تجفيف شعره واكتفى فقط بأن أحاط خصره بمنشفةٍ من الحجم الكبير ثم توجه إلى غرفة نومه يجرُّ خلفه خطًّا طويلًا من الماء ظهر واضحًا على الأرضية الخشبية للممرِّ الواصل بين الحمام وغرف النوم.. وقف طويلًا أمام المرآة الضخمة لدولاب ملابسه يتفرس في ملامحه جليًّا، ينظر لجسده الذي بدا عليه الترهل قليلًا.. تساءل بحنقٍ: "من هذا؟!"..

كان يشعر أنه ينظر إلى شخصٍ آخر.. مؤكد أنه ليس هو "أكرم رشدي" كما يعرفه، وكما عرفه الجميع.. لم يكن يتخيل على الإطلاق أن يكون هذا هو نهاية المطاف بالنسبة إليه.. دومًا كان إيجابيًّا، ينظر إلى نصف الكوب الممتلئ.. إرادته وعزيمته كانتا أبرز سمات شخصيته، تحميانه في كل الظروف.. حتى في أحلك اللحظات وأشدها قسوةً كان دائمًا ما ينظر إلى بصيص النور البسيط الذي يظهر باهتًا في أقصى الصورة.. لكنه الآن يرى حطام إنسان، بقايا شخصٍ كان يُدعى في يوم ما "أكرم رشدي"..

أشاح ببصره بعيدًا بعد أن آلمه ما رأى، ثم هوى بيمينه في غضب على المرآة فتهشمت قطعًا صغيرةً.. نظر إلى الدماء التي سالت من قبضته في سعادةٍ غريبةٍ بعد أن شكلت بقعًا داكنة حمراء اللون على أرضية الغرفة

الخشـبية، لكنـه تجاهلهـا حـين لمـح قميصًـا أسـود اللـون ملقـى داخـل دولاب ملابسـه.. مـدَّ يـسراه يمسـك قماشـته الناعمـة في إهتـمام بعـد أن تعجـب مـن وجـود ملابـس "ليلى" الداخليـة في دولابـه، أخـذ يتفحصـه في فضـولٍ.. كان قميـص نـوم أسـود اللـون قصـيرًا للغايـة، يبـدو مـن تصميمـه الفاضـح أنـه يكشـف أكـثر مـما يسـتر مـن مفاتـن صاحبتـه.. اتسـعت حدقتـاه حـين لاحـظ عنـد منطقـة الصـدر رسـمًا لفراشـة مـن الدانتيـل.. ألقـى بالقميـص مـن يـده في ذعـرٍ ثـم تراجـع إلى الخلـف خطوتـين بعـد أن تذكـر عـلى الفـور صاحبتـه.. هـذا قميـص "صفـاء" المفضـل، كانـت معتـادةً عـلى ارتدائـه وقـت لقاءاتهـما المتعـددة.. كان لهـذا القميـص مفعـول السـحر في نفسـه تتحـرك لـه كل غرائـزه وشـهواته..

التقطـه مجـددًا حـين تذكـر أن مجـرد النظـر إلى "صفـاء" وقـد ارتـدت هـذا القميـص كان كفيـلًا بـأن يُذهـب عنـه أي أثـر للتعـب والإرهـاق، يتحـرر حينهـا مـن مظاهـر التحـضر الزائفـة التـي تُكبـل نفسـه ويرتـد للبدائيـة الأولى معتنقًـا مـن شـهوانيته مذهبًـا..

"هـل يحبهـا؟، أم هـي فقط الرغبـة؟!".. دائمًا ما كان يسـأل نفسـه هـذا السـؤال دون أن يصـل لإجابـة قاطعـةٍ.. فقلبـه كان لغـزًا كبـيرًا لـكل مـن عرفـوه، حتـى هـو نفسـه لم يتمكـن مـن

فـك طلاسـمه.. مؤكـد أن قلبـه لم يُخفـق بحبهـا حـين تلاقـت أعينهـما لأول مـرة، ذاك الخفقـان المتسـارع الغريـب الـذي يسـلب الأنفـاس ويُسـبب نشـوةً عجيبـةً لصاحبـه.. لكـن الأكيـد أنـه قـد ألـف صحبتهـا بعـد أن سـاندته كثيرًا في حياتـه وعلَّمتـه فنـون الحـب والحيـاة..

انتبـه مـن أفـكاره وتسـاؤلاته حـين تذكـر أن "صفـاء" كانـت ترتـدي هـذا القميـص قبـل سـويعاتٍ قليلـةٍ، عنـد لقائهـما في عيادتـه..

"مـا الـذي جـاء بـه هنـا؟!، مـن الـذي أتى بـه؟!".. اسـتعرت تسـاؤلاته مجـددًا لكـن دون إجابةٍ..

حـاول التركيـز حتـى يتمكـن مـن إخفـاء هـذا القميـص قبـل عـودة "ليـلى" للبيـت.. لـفَّ قبضتـه بمنشـفةٍ صغيـرةٍ بعـد أن رشَّ فـوق الجـرح قليـلًا مـن العطـر، ثـم وضـع القميـص خلـف ظهـره في حركـةٍ لا إراديـة، تحـرَّك متجهًـا نحـو الغرفـة التـي كانـت مغلقـةً منـذ فـترةٍ طويلـةٍ.. منـذ عـامٍ بالتحديـد..

فتـح بابهـا بيـدٍ مرتعشـةٍ ثـم ضغـط عـلى مفتـاح الإضـاءة بهـا.. كان يتلفـت حولـه في توتـرٍ باحثًـا عـن مـكانٍ يصلـح لإخفـاء القميـص فيـه.. تحـرَّك مقتربًـا مـن الفـراش الـوردي الصغـير الـذي يتوسـط الحائـط المقابـل للبـاب تمامًـا، مـن جديـدٍ سـمع صـوت تلـك الضحكـة الطفوليـة يمـلأ أرجـاء

الغرفة.. حانت منه التفاتةٌ نحو الفراش فتسمَّر في مكانه بلا حراك..

كانت طفلةً صغيرةً لا تتجاوز العامين تستلقي على ظهرها وتُحرك أطرافها كأنها تُداعب شخصًا خفيًّا، تصدر تلك الهمهمات الطفولية غير المفهومة ثم فجأةً تصدر عنها تلك الضحكات التي باتت تؤرق حياته.. أغمض عينيْه في قوةٍ لا يُصدق ما يراه، حين فتحهما لم يكن للطفلة أي أثر.. جُنَّ جنونه وأخذ يتلفت حوله في عصبيةٍ بحثًا عنها، لكن بلا جدوى..

وقعت عيناه على إطارٍ فضي موضوعٍ على منضدةٍ وردية اللون صغيرة الحجم في أقصى يسار الغرفة.. تحرك نحوه بأقدامٍ متثاقلةٍ كأنه في واحدٍ من كوابيسه التي باتت ترافقه في الآونة الأخيرة.. تغلب على ألم يده اليمنى من أثر الجرح حين أمسك بالإطار الفضي، ثم نظر للصورة الفوتوغرافية بداخله.. كانت تجمع بينه وبين "ليلى" و.. ابنته "فريدة".. كانت ملامحهم تنطق بالفرحة، وابتسامتهم تشع ضياءً من السعادة..

شعر بغُصةٍ في حلقه أخذ يُقاومها في البداية فوضع الإطار الفضي في مكانه.. لكن عينه اليسرى ارتعشت رغمًا عنه، بدأت شفته السفلى في الاهتزاز قليلًا ومعها بدأ

يفقد قدرته على المقاومة.. فقد السيطرة على نفسه تمامًا، وأجهش في البكاء كطفلٍ صغيرٍ تركته أمه وحيدًا في الطريق.. ولم يعد إلى أحضانها أبدًا..

انتفض مستفيقًا من خيالاته المريضة على صوت "ليلى"، التي فاجأته صائحةً في غضبٍ:

- إنت بتعمل إيه هنا؟!

تغلب على ارتباكه سريعًا وعلى الفور أخفى القميص خلف ظهره، ثم قال متظاهرًا بالهدوء:

- كنت بدور على حاجة قديمة.

- هنا!! أنا مش قلت الأوضة دي محدش يدخلها أبدًا غيري.

صرخت في وجهه بحدةٍ، فأشار إليها بيده أن تسكت ثم تحرك يطفئ مفتاح الإضاءة.. تحركت "ليلى" نحو غرفة النوم، تمتمت معترضةً على تصرفاته، بينما عاد "أكرم" سريعًا يُخفي القميص الأسود أسفل المرتبة الموضوعة على الفراش الصغير..

حين ارتدى ملابسه حاول كسر حاجز الصمت الذي كان يسود علاقته مع "ليلى" منذ فترةٍ طالت حتى ظن أنها لن تنتهي أبدًا.. سألها برفقٍ:

- كنتي فين؟!

رمته بتلك النظرات الجوفاء مجددًا ثم ألقت بجسدها فوق الفراش، ركزت بصرها على تلك النقطة الوهمية ولم ترد.. جزَّ على أسنانه في غضبٍ، لكنه قرَّر المحاولة من جديدٍ، فسألها:

- أعملك شاي معايا؟!

كان الصمت المطبق هو الجواب كالعادة فاندفع خارجًا من الغرفة وهو نادمٌ على محاولة التقرب منها.. وقف في المطبخ يُعد لنفسه كوبًا من الشاي فتداعت في رأسه الذكريات من جديدٍ.. صبَّ شايه في كوبٍ زجاجي وأشعل سيجارةً نفث دخانها في ضيقٍ وهو يلعن تلك الأفكار والذكريات البغيضة التي لا تنفك تُحاصر خياله وذهنه في كل لحظةٍ حتى بات كالمجنون..

ابتسم ابتسامةً خفيفةً حين وصف نفسه بالجنون، فقديمًا كان يرى ذلك المجذوب الذي كان كل صبيان الحي يلقبونه بفتحي المجنون..

قديمًا وقت أن كان صبيًا.. كان يُقيم لدى عمته في شارع الجيش بالعباسية بعد انفصال أبويه وموت أمه.. لم يكن هناك مكانٌ آخر يأمن فيه عليه أبوه، خاصة مع ظروف

عملـه التـي كانـت تسـتدعي تواجـده طويـلًا خـارج البيـت.. دائمًـا مـا كان يـرى هـذا المجـذوب مرتديًـا ملابـس باليـة ويجـرُّ خلفـه شـوالًا مـن الخيـش ممتـلأ بالقمامـة وبقايـا الزجاجـات المهشـمة.. كان يـردد دائمًـا عبـارةً واحـدةً لا تتغيـر أبـدًا:

"ملعونة أنت يا سعاد.. ملعونة في السماوات والأرض"..

يبـدأ بعدهـا في سـبِّ المـارة بأقـذع العبـارات والألفـاظ ثـم يقذفهـم ببقايـا الزجاجـات المهشـمة، وأطفـال الحـي يركضـون خلفـه يسـخرون منـه ويقذفونـه بالحجـارة والحـصى.. كان يهـزأ ورفاقـه مـن ذلـك المجنـون الـذي ذهـب عقلـه مـن حـب امـرأةٍ.. كانـوا يرونـه ضعيفًـا عاجـزًا..

كان هـذا المشـهد يتكـرر كل يـوم تقريبًـا حتـى أصبـح جـزءًا أصيـلًا مـن حيـاة أهـل الحـي.. فـلا الرجـل توقـف عـن السـباب ولا الأولاد توقفـوا عـن سـخريتهم منـه، ولا مسـئولو الحـي تدخلـوا بإيـداع المسـكين مستشـفى الأمـراض العقليـة..

تناثـرت أقاويـل وشـائعاتٌ كثـيرةٌ حيـال قصـة هـذا الرجـل لكـن أيًّـا منهـا لم يُقـارب الحقيقـة.. حتـى علـم بحقيقتهـا ذات يـومٍ مـن صاحـب أحـد الأكشـاك، الـذي أقسـم أنـه كان يعـرف الرجـل قبـل أن تصيبـه تلـك اللوثـة..

أخبره صاحب الكشك أن ذلك المجذوب اسمه "فتحي"، وأنه كان يعمل مدرسًا للغة العربية.. كان يُحب تلك المرأة "سعاد" حبًّا جمًّا، وأن قصة حبهما كانت تُروى وتتناقل على ألسنة أهل الحي.. كانت مثالًا يُحتذى به بين العشاق.. حتى مرضت المسكينة مرضًا عضالًا، ولم يقدر على نفقات علاجها فماتت ببطءٍ أمامه.. ذهبت المسكينة، وذهب معها عقله بغير رجعةٍ..

ابتسم حين أدرك أنه لم يُصبح مجنونًا بعد، فحالته لم ترق بعد لحالة "فتحي".. أمسك بهاتفه المحمول وأخذ يداعب شاشته بأنامله، يتأمل آخر الأخبار من شبكات المواقع الاجتماعية.. سرقه الوقت فلم يشعر إلا حين انتصف الليل، دخل إلى فراشه وهو يأمل في نومٍ عميقٍ يُريح به نفسه من تلك الأفكار والهواجس التي تتنازعها.

***

(٤)

كانت الأمطارُ تنهمرُ بغزارةٍ تُناسب طبيعة الطقس في مثل هذا الوقت المتأخر من ليل شتاء القاهرة حين أوقف المقدم "معتز الشامي" سيارته أمام أحد البنايات القديمة في شارع السيد البكري بحي الزمالك..

فتح باب السيارة على عجلٍ فخرجت غيمةٌ كثيفةٌ من دخان سجائره ترافق جسده الضخم خارج السيارة.. ألقى بأصابعه الغليظة ما بقي من سيجارته المشتعلة على الرصيف المبتل فأصدرت صوتًا ملحوظًا وسط السكون المخيم على الأرجاء..

أحكم إغلاق سوستة الجاكت الجلدي طلبًا للدفء فظهر بطنه الضخم واضحًا، ونفخ في كفيه الضخمتين ثم تحرَّك في سرعةٍ محاولًا تفادي الأمطار الغزيرة نحو مدخل

البنايـة الـذي كان ممتلئًـا برجـال الشرطـة.. أفسـح لـه الجميـعُ الطريـقَ فتحـرك وهـو يرفـعُ يـده بالتحيـة عـلى مـن يقابلـه دون اكـتراثٍ.. كان عقلـه منشـغلًا بتلـك القضيـة التـي سـتكون محـور اهتـمام الـرأي العـام في الفـترة القادمـة، مـا زال صـوتُ رئيـس مباحـث القاهـرة يـرنُّ في أذنيـه حـين سـمعه يـصرخ في المحمـول:

- مفيـش حاجـة تشـغلك عـن الموضـوع ده يـا معتـز، دي قضيـة رأي عـام.. كلامـي واضـح؟!

لم يسـتخدم المصعـد الخشـبي القديـم، مـارس عادتـه بصعـود درجـات السـلم حتـى يـرى بنفسـه كل مداخـل ومخـارج مـسرح الجريمـة.. وصـل للـدور الرابـع، فـرأى مـن خـلال عينيـه البنيتـين بـاب شـقة المجنـي عليهـا مفتوحًـا عـلى مصراعيْـه.. تجمَّـع أمامـه الكثـيرون مـن أصحـاب الفضـول، يحاولـون التلصـص لرؤيـة مـا يجـري بالداخـل.. قـال بصوتـه الأجـش في نـبرةٍ رسـميةٍ:

- يـلا يـا جماعـة كل واحـد يـروح يشـوف أشـغاله، عاوزيـن نشوف شـغلنا.

نظـر الوقـوفُ نحـوه في بلاهـةٍ، ولم يتحـرك أحدهـم مـن مكانـه.. فرسـم عـلى وجهـه القمحـي علامـات الجديـة والصرامـة، ثـم صـاح:

- الأُمنا فين؟!.. يلا يا رجاله، عاوزين نفض المولد ده.

تحـرك عـددٌ مـن أمنـاء الشرطـة فـور سـماعهم لصيحتـه الأخـيرة.. صرفـوا النـاس في أقـل مـن نصـف دقيقـة مكنتـه مـن دخـول الشـقة بعـد أن رمـى ببـصره سريعًـا نحـو بابهـا.. لم يجـد أي أثـر لكسرٍ أو اسـتعمالٍ للعنـف.. عـدَّل بيـده ترتيـب شـعره الأسـود الـذي أصابـه شيء مـن البلـل بسـبب ميـاه الأمطـار وهـو يُجيـل بـصره في أنحـاء المـكان..

كان أول مـا لفـت نظـره تلـك الفتـاة العشرينيـة الشـقراء، تجلـس عـلى أريكـةٍ فاخـرةٍ في أقـصى يمـين المدخـل.. ترتـدي مـن الملابـس قـدرًا يسـيرًا لا يتناسـب مـع بـرودة الطقـس عـلى الإطـلاق، لكنـه أرجـأ الاهتـمام بأمرهـا لحـين معاينتـه لموقـع الحـادث..

- معتز بيه، إحنا هنا يا باشا.

تحـرَّك نحـو غرفـة النـوم فـور أن سـمع نـداء النقيـب "عمـرو الوقـاد" بعـد أن طبـع في ذهنـه المتقـد صـورةً مطابقـةً بالضبـط للمـكان.. كانـت ديكـوراتُ الشـقة عـلى طـرازٍ حديـثٍ، يبـدو الأثـاث الفخـم كأنـه جديـدٌ.. كل شيء في هـذه الشـقة يـدل عـلى الإسراف والبـذخ الشـديدين.. الأرضيـة مـن خشـب الباركيـه تغطيهـا قطـعٌ صغـيرةٌ مـن السـجاد الفاخـر.. الحوائـط مغطـاة بتلـك الألـوان التـي تواكـب أحـدث صيحـات

الموضـة.. معلـق عليهـا عـددٌ كبـيرٌ مـن البراويـز الخشـبية والنحاسـية الأنيقـة، تضـم بـين أركانهـا صـورًا للمجنـي عليهـا في أوضـاعٍ متعـددةٍ ومراحـل عمريـة مختلفـة.. حتـى الإضـاءة والتماثيـل الصغـيرة المتناثـرة في كل مـكانٍ كانـت بـلا حسـاب..

عـلى الرغـم مـن ذلـك إلا أن هنـاك شـيئًا لم يجعل "معتـز" مسـتريحًا لهـذه الشـقة.. ربمـا كان ذوقهـا الفاقـع، أو لعلـه ذلـك الإحسـاس الظاهـر بافتقـاد صاحبتهـا لقيمـة الأشـياء.. فـكل شيء، عـلى الرغـم مـن قيمتـه الباهظـة، مكـدسٌ ومُلقـى بطريقـةٍ تفقـده قيمتـه..

دخـل مـن بـاب غرفـة النـوم فوجـد جمعًـا مـن رجـال نقطـة شرطـة الجزيـرة يتوسـطهم النقيب "عمـرو"، سـمع أحدهـم يقـول متحـسرًا:

- مش حرام الجمال ده؟!

ردَّ عليه آخر في تعجبٍ:

- ده مين إللي جاله قلب يعمل كده!!

قاطعهما صوتٌ ثالثٌ يقول في غضبٍ:

- أدي أخرة المشي البطال.

حياهـم بإشـارةٍ سريعـةٍ مـن يـده فتبادلـوا نظـرات الخجـل بينهـم ثـم سـاد الصمـت تمامًـا.. بـدأ "معتـز" عملـه كـما اعتاد

بمسحٍ بصري للمكان.. كانت الغرفة شديدة الاتساع، تبدو عليها أمارات الفخامة والبذخ تمامًا كما هو حال بهو الشقة.. لم يلحظ أي آثار عنف أو تحطيم لمحتويات الغرفة، زجاجات العطر الثمينة بقيت على حالتها فوق التسريحة ذات المرآة الضخمة.. لمح هاتفًا محمولًا أحدث موديل وجهاز تابلت حديثًا موضوعيْن على نفس التسريحة.. شاشة التلفاز ذات السبعة والأربعين بوصة سليمة، معلقةٌ على الحائط الأيسر للغرفة بالضبط في مقابلة الفراش..

هاله الحجم الكبير لفراشها النحاسي الذي يتوسط الغرفة الفسيحة.. كان تصميم الفراش يُوحي بالعراقة والقدم، يبدو أثريًا كأنه يعودُ لأميرةٍ من أميرات العصر المملوكي.. له أربعةُ قوائم معدنية غليظة ترتفع عن أرض الغرفة حتى تكاد تلامس سقفها.. تخرج منها غلالةٌ من القماش الأبيض الشفاف تنسدلُ حول الفراش، تضفي حوله أجواءً أسطوريةً تُماثل أجواء عصور الجواري والحريم..

اقترب من الفراش مزيحًا بكفه جزءًا من تلك الغلالة البيضاء الرقيقة، صدمت بصره بقعةٌ كبيرةٌ من الدماء تُلوث ملاءة الفراش البيضاء.. كانت كتلة الدماء متجمعةً في مكانٍ عند منتصف الفراش تمامًا، يخرج منها بعد ذلك

جزءٌ أقل كثافةً نحو جانب الفراش الأيسر مما يدل على أن الجثة تم سحبها في ذلك الاتجاه.. تحرَّك حول الفراش متتبعًا آثار سحب الجثة..

تسمَّر في مكانه بعد أن وجد جثة المجني عليها مسجاةً على الأرض، عاريةً تمامًا.. دنا منها يفحصها فحصًا ظاهريًّا فوجد جسدها متشنجًا في وضعٍ عجيبٍ..

كان جسدُها مفرودًا لآخره بالكامل، ارتفعت المنطقة من عند الخصر قليلًا عن الأرض.. تيبست ذراعاها أمام صدرها بعد أن انثنى ساعداها قدرًا يسيرًا، كأنها كانت تُحاول الإمساك بشخصٍ أمامها.. تخشبت قدماها وهما ممدودتان إلى آخر مداهما، تقلصت أصابع قدميها.. رفع رأسه إلى الأعلى قليلًا فرأى سكين مطبخ مغروزًا لآخره بين فخذيها..

تراجع معتز للوراء قليلًا بعد أن هاله بشاعة ما رأى، ثم أخرج علبة سجائره وأشعل إحداها، أخذ ينفث دخانها في عصبيةٍ واضحةٍ.. عقد حاجبيْه مفكرًا، ثم سأل:

- عمرو، هما لقوا الجثة هنا؟!.. واللا فيه حد حركها من مكانها؟!

- لا يـا باشـا، محـدش لمـس حاجـة.. هـي القتيلـة كانـت عـلى الأرض في نفـس المـكان إلـلي سـيادتك واقـف عنـده.

شرد "معتـز" بذهنـه فـترةً يُحـاول تصـور كيفيـة وقـوع الجريمـة ثـم عـضَّ عـلى شـفته السـفلى كعادتـه حينـما يُفكـر في معضلـةٍ تسـتعصى عـلى فهمـه.. قـال أخـيرًا كأنـه يُحـدث نفسـه بصـوتٍ مرتفـعٍ:

- يبقـى هـي اتقتلـت الأول عـلى السريـر، وبعديـن نقلهـا لـلأرض.

اقـترب مـن الجثـة ولمسـها بيـده فوجدهـا بـدأت تـبرد، لكنهـا لم تصـل بعـد إلى درجـةٍ مـن الـبرودة تـدل عـلى أن القتـل قـد تـم منـذ مـدةٍ طويلـةٍ.. ولاحـظ تغير بيـاض بشرتها الثلجـي قليـلًا إلى لـونٍ أكـثر شـحوبًا.. حانـت مـن عينـه نظـرةٌ خاطفـةٌ لموضـع السـكين المغـروز فيهـا فتأفـف في ضيـقٍ، ثـم التفـت نحـو "عمـرو" وسـأله في نفـاد صـبرٍ:

- هي النيابة فين؟!

- في الطريـق يـا باشـا، والطـب الشرعـي كـمان بلغـوا إنهـم في السـكة.

أطفـأ "معتـز" سـيجارته في باطـن حذائـه ثـم وضعهـا في جيـب سـترته الجلديـة، كان لا يُريـد تغيـير أي شيءٍ في

مسرح الجريمة.. واقترب مجددًا من الجثة ثم جثا على ركبتيْه، أخذ يتأمل ملامح وتعبيرات وجهها الذي كان به أثرٌ لبعض الكدمات والخدوش.. كان يعلم بحُكم خبرته الطويلة أن عيني القتيل قد تدلانه على القاتل، لكنه شاهد عينيْن جامدتين.. فقط كانت بهما نظرةٌ تُعبر عن هلعٍ رهيبٍ، تكاد تنطق بألمٍ فظيعٍ.. قام واقفًا بعد أن أخذ عقله يعمل في سرعةٍ بالغةٍ، أزاح بيده جزءًا من تلك الغلالة البيضاء التي تُغطي الفراش.. أخذ يتفحصه مجددًا، ثم قال مخاطبًا النقيب "عمرو":

- مين اللي اكتشف الحادثة؟!

- البواب يا باشا، وإحنا متحفظين عليه في المطبخ دلوقتي.....

صمت "عمرو" لبرهةٍ، ثم تنحنح قائلًا:

- أصل الصراحة قلت ما يصحش أخليه واقف هنا يتفرج على القتيلة بالمنظر ده.

رمقه "معتز" بنظرةٍ جامدةٍ ثم عاد ينظر نحو الفراش، لفتت نظره لوحةٌ زيتيةٌ ضخمةٌ معلقةٌ على الجدار فوق الفراش تمامًا.. كانت لوحةً مرسومةً للمجني عليها بدقةٍ واحترافيةٍ شديدةٍ، تصورها بالحجم الطبيعي عاريةً تمامًا..

تنظر لمن يراها نظرةَ تحدٍّ تبدو واضحة في ذلك البريق الذي تومض به عيناها الزرقاوان.. عقد حاجبيه مفكرًا في عمقٍ ثم عاد يتفحص الجثة من جديدٍ، تأفف في غضبٍ، ثم قال مخاطبًا "عمرو":

- فين البواب ده خلينا نشوف إيه قصته؟

لم يرد "عمرو" على الفور مما دفعه للنظر نحوه في نفاد صبر إلا أنه وجده مترددًا قبل أن يقول بصوتٍ مرتبكٍ:

- لسه يا باشا سيادتك..

لم يمهله "معتز" فقاطعه في حدة:

- لسه إيه تاني يا عمرو؟!

- لسه سيادتك ما شفتش الجثة التانية.

***

كانت السماء غائمةً تُضفي سحبها الكثيفة لونًا رماديًّا قاتمًا على الأجواء.. جفَّت أوراق الأشجار تمامًا واصفرَّت، بدأت في التساقط بكثافةٍ كأنها المطر حين هبَّت تلك الرياح التي تحمل غبارًا كثيفًا.. باتت الرؤية شديدة

الصعوبة وتداخلت كل الأصوات هادرةً في حيز المكان مع ازدياد صفير الريح..

وقف "أكرم" يتلفت حوله في قلقٍ وذعرٍ، كان لا يعلم ما الذي أتى به إلى هذا المكان المخيف.. من بعيدٍ سمع صوتًا مألوفًا يصرخُ باسمه في رجاء:

"أكرم.. أكرم"..

اقترب من مصدر الصوت في صعوبةٍ، كان يقاوم شدة الريح المعاكسة لاتجاه حركته.. بعد عناءٍ شديدٍ وصل للمكان الذي ظنه مصدر الصوت، لكنه لم يجد أحدًا.. سمع الصوت يصدرُ من جديدٍ.. التفت خلفه بسرعةٍ..

كانت أمه تنظر له برجاء من خلف عينيها الدامعتين، تمدُّ يديْها المعروقتين نحوه تطلب منه العون والمساعدة.. همَّ بالإمساك بيدها لكن صوتًا صرخ فيه بقوةٍ، جعله يتلفت نحوه في فزعٍ.. كان أبوه يُوجه له نظراتٍ حازمةً، ينهاه عن مساعدة أمه.. لم يكترث لنظراته الصارمة والتفت نحو أمه، لكنه وجد الرياح العاتية تسحبها بعيدًا عنه حتى اختفت..

كاد أن يعدو خلفها لكنه رأى على مقربة منه طفلةً صغيرةً مستلقيةً على ظهرها، تُحرك أطرافها في سعادةٍ

غامـرةٍ.. تُثبـت نظرهـا في اتجـاه شـخصٍ خفـي، تصـدر منهـا كل فـترة ضحكـةٌ صافيـةٌ تتحـرك لهـا مشـاعر قلبـه.. تطـوف مـن حولهـا فراشـات كثـيرةٌ، مختلفـة ألوانهـا.. ومـع طوافهـا كانـت الريـاح تسـكن، والشـمس تسـطع في المـكان.. اقـترب منهـا وهـو يقـول بصـوتٍ خنقتـه العَـبرات:

"فريدة"..

لكنـه تسـمَّر في مكانـه فجـأةً حـين تحوَّلـت تلك الفراشـات إلى سـيدات لهـن أشـكالٌ متباينـةٌ، فقـط كان مـا يجمعهـن هـو تقاربهـن في العمـر.. كلهـن سـيداتٌ أربعينيـاتٌ.. لا يسـتر أجسـادهن سـوى ذلـك القميـص الأسـود الفاضـح، المنقـوش عـلى صـدره رسـم الفراشـة..

كانـت نظراتُهـن تحمـل عدوانيـةً مخيفـةً اقشـعرَّ لهـا بدنُـه.. لكنـه تحامـل عـلى نفسـه واقـترب مـن "فريـدة" بعـد أن أحـسَّ بالخـوف عليهـا.. رمقتـه النسـاء بغضـبٍ وغيـظٍ، لكنـه اسـتمرَّ في الاقـتراب مـن مكانهـن حتـى كاد أن يُمسـك بابنتـه.. فجـأةً.. صرخـت النسـاء فيـه بقـوةٍ فسـقط عـلى ظهـره وهـو يشـهق في قـوةٍ..

انتفـض في فراشـه مسـتيقظًا، يشـله إحسـاس بدنـو كارثـةٍ محققـةٍ.. بقـي جامـدًا يرمـش بعينيْـه في ظـلام الغرفـة، الـذي بـدأ يتبـدد قليـلًا تحـت وطـأة ضـوء أشـعة الشـمس.. تلفـت

حولـه باحثًـا عـن هـؤلاء النسـاء، لكنـه لم يجـد لهـن أثـرًا.. نظـر نحـو "ليـلى"، فوجدهـا تغـطُّ في سـباتٍ عميـقٍ بعـد أن أولتـه ظهرهـا كعادتهـا..

أخيرًا مدَّ يده نحو هاتفه المحمول ثم نظر في شاشته..

"السادسـة صباحًـا!!".. حـدَّث نفسـه ثـم قـام مـن فراشـه متأففًـا، وهـو يلعـن ذلـك النـوم المتقطـع وتلـك الكوابيـس الملعونـة..

وقـف في منتصـف الغرفـة، لا يعـرف مـا الـذي يمكـن فعلـه في هـذا التوقيـت المبكـر.. لم يجـد أمامـه سـوى العبـث بهاتفـه المحمـول برغـم اقتناعـه بأنـه أصبـح مدمنًـا لشـبكات التواصل الملعونـة.. كان كثـيرًا مـا يتخيـل عنكبوتهـا المغطـى جسـده كلـه بزَغَـبٍ كثيـفٍ يُوشـك أن يلتهمـه بعـد أن كبَّلـه بخيوطـه الوَهِنة..هـمَّ بـترك المحمـول والعـودة للنـوم بعـد أن أصيـب بالقـرفِ لمجـرد ذكـر سـيرة العنكبـوت، الـذي كان يأنـف منـه كثـيرًا.. إلا أن خـبرًا ظهـر تحـت عنـوان (عاجـل) أثـار فضولـه، جعلـه يؤجـل نومـه قليـلًا.. ضغـط بابهامـه عـلى رابـط الخـبر، وهـو يسـخرُ مـن فضولـه.. لكنـه فغـر فـاه، وتجمَّـد في مكانـه حـين قـرأ مـا كان مكتوبًـا:

"مقتل الفنانة صفاء عبد الحميد في ظروفٍ غامضةٍ"..

أصابه الذعرُ والارتباكُ، اشتعلت التساؤلات في رأسه.. "متى ماتت؟!".. هزَّ رأسه في عنفٍ وهو يقول مُحدثًا نفسه:

"مَن قتلها؟!"..

نظر إلى شاشة المحمول غير مُصدِّقٍ وهو يُغمغم بصوتٍ مخنوقٍ:

"لماذا؟!"..

استجمع شتات نفسه بعد فترةٍ لم يُحصها، عقد عزمه ثم طلب رقمًا كان لا يرغب في الاتصال به أبدًا، جاءه صوتُ صاحبه وقد غلبه النعاس على الجانب الآخر، فقال من فوره:

- أيوه يا هشام أنا أكرم.. عاوز أقابلك النهاردة ضروري في نفس المكان.

جاءه صوتُ هشام يقول:

- لأ خلينا المرة دي في العيادة.

قال أكرم وهو يجزُّ على أسنانه:

- خلاص هاجيلك العيادة النهاردة الساعة ٩، بعد لما تخلص مواعيدك.

***

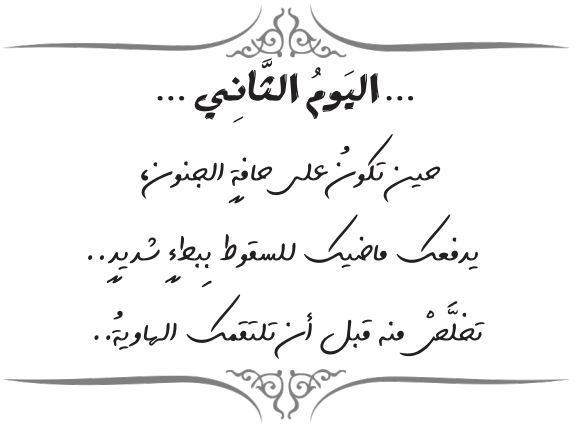

... اليَومُ الثَّانِي ...

حين تكونُ على حافةِ الجنون،

يدفعك ماضيك للسقوط ببطءٍ شديد..

تخلَّصْ منه قبل أن تلتهمك الهاويةُ..

(٥)

تجـاوزت السـاعة العـاشرة صباحًـا بقليـلٍ حـين أوقـف "أكـرم" سـيارته أسـفل العـمارة التـي تُوجـد بهـا عيادتـه، نـزل منهـا متأففًـا وهـو يسـتعرضُ في ذهنـه مـا مـرَّ بـه منـذ أن أنهـى مكالمتـه مع "هشـام وهـدان".. كان قـد توجَّـه بعدهـا إلى المركـز الريـاضي، لأول مـرةٍ منـذ فـترةٍ طويلـةٍ، بعـد أن فـارق النـوم عينيـه تمامًـا منـذ علمـه بمقتـل "صفـاء".. قـرَّر ممارسـة بعـض الرياضـة لعلهـا تُسـاعد عـلى تصفيـة ذهنـه في تلـك الأيـام العصيبـة التـي مـا عـاد يسـمع فيهـا سـوى الأخبـار السـيئة..

حـين دخـل إلى المركـز الريـاضي كان يُشـعر أن شـيئًا بداخله قـد تغـير، لم يعـد يشـعرُ بتلـك الجاذبيـة والحضـور الطاغـي اللذيـن كانـا يميـزان شـخصيته حـين يدخـل إلى أي مـكانٍ وخصوصًـا هـذا المركـز.. حـدَّث نفسـه في ضيـقٍ مغمغـمًا:

"يبدو أن صفاء قد رحلت ومعها رحل كل شيء"..

لم يطل مكثه بالمركز أكثر من نصف ساعة ثم غادره على عجلٍ دون أن يُحدد له وجهة.. قاد سيارته لفترةٍ دون هدفٍ ثم قرَّر حين اعتراه السأم التوجه لعيادته، وقضاء اليوم بها حتى يأتي موعده مع "هشام".. فالبقاء وحده أفضل في كل الأحوال من المكوث مع "ليلى" بحالاتها الغريبة التي لم يعد يجد لها مبررًا..

لم يجد عم "صلاح" جالسًا أمام العمارة فصعد السلم سريعًا ودفع بيده باب العيادة، كانت لا تزال مضاءةً منذ لقائه بالأمس مع "صفاء".. شعر بالحزن على نهايتها المأساوية، لكن حزنه لم يزد على أن هزَّ رأسه في أسى ثم ترحَّم عليها.. توجَّه إلى غرفة مكتبه وألقى بجسده منهكًا على مقعده، وتشاغل عقله بالتفكير في الدافع من وراء قتل إنسانةٍ رائعةٍ مثل "صفاء"..

توقَّف عقله المجهد عن التفكير فور أن بدأ القلق يفرد أجنحته على سماء نفسه الغائمة، ما أقلقه حقًّا هو وجود قميصها في دولاب ملابسه، وفشله في معرفة كيف جاء القميص إلى دولابه من الأساس؟!..

قطع حبلَ أفكاره رنينُ هاتفه المحمول، لكنه لم يُعره اهتمامًا وبقي يشحذ ذهنه محاولًا تذكر ما جرى مع

"صفاء" ليلة البارحة لعله يتذكر كيف جاء قميصها لدولابه.. قاطعه رنينُ المحمول مجددًا، تأفف في ضيقٍ وهو ينظر لشاشته.. علت وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ حين رأى اسم المتصل.. أو المتصلة.. كانت "إيمي"..

لم يطل تردده، فأجاب من فوره بصوتٍ حاول أن يبدو عليه المرح:

- إيه إللي فكرك بيا يا إيمو؟!

علا صوته بضحكةٍ مفتعلةٍ حين سمع الرد على الطرف الآخر، ثم قال بنبرةٍ حاول أن تكون هادئةً:

- خلاص يا ستي، أنا مستنيكي.

أنهى مكالمته ثم فتح درج مكتبه الأيمن العلوي وأخذ يعبث بمحتوياته حتى أمسك ملفًا أزرق اللون مكتوبًا عليه بخطٍّ واضحٍ (ملف السيدة/ إيمان الشهاوي).. فتحه أمامه ثم بدأ يقلب في أوراقه، وذكريات تعارفه عليها تلح على عقله..

كان ذلك منذ ثلاثة أعوام تقريبًا حين دقَّ باب غرفة مكتبه، وأخبره مساعده أن هناك سيدةً أنيقةً حضرت دون سابق موعدٍ.. نظر "أكرم" في ساعة يده فوجدها قد تجاوزت التاسعة مساءً، كان قد انتهى من فحص آخر

حالـة عنـده هـذا المسـاء وبـدأ يسـتعد لمغـادرة العيـادة والذهـاب لموعـد "صفـاء".. رمـى "أكـرم" مسـاعده بنظـرة عتـاب، كان قـد وضـع نظامًـا صارمًـا لعملـه بالعيـادة ودرَّب عليـه المسـاعد كثيرًا.. يتلقـى المسـاعد الاتصـالات مـن المـرضى لتحديـد موعـد ثـم يُعـد بهـا كشـفًا، يعرضـه عـلى "أكـرم" ليرتـب مواعيـده التـي تكـون بعـد عـشرة أيـام عـلى الأقـل.. فيـما عـدا الحـالات الطارئـة بطبيعـة الأحـوال.. والطارئـة هنـا وفقًـا لنظـام "أكـرم" الدقيـق لا تقتـصر فقـط عـلى الحـالات التـي تُشـكل خطـورةً عـلى حيـاة المريـض.. تنحنـح المسـاعد ثـم قـال وهـو ينظـر بلـؤمٍ نحـو "أكـرم":

- حالة طارئة يا دكتور.

تـردد "أكـرم" قليـلًا، لكنـه قـرَّر إجـراء المقابلـة وإنهاءهـا في أسرع وقـتٍ حتـى لا يتأخـر عـلى "صفـاء".. أومـأ برأسـه للمسـاعد ثـم أشـار إليـه بيـده سـامحًا بدخولهـا.. مـرَّت لحظـاتٌ ثـم سـمع صـوت طَرقـاتٍ مهذبـةٍ عـلى البـاب، ودخلـت إلى الغرفـة..

كانـت سـيدةً في أوائـل الأربعينيـات، جميلـة.. يُضفـي عليهـا سـمارُ بشرتهـا البرونزيـة جاذبيـةً لافتـةً.. تصبـغ شـفتيها المكتنزتـين، الراقـدة إحداهـما فـوق الأخـرى في دعـةٍ واسـتكانةٍ، بلـونٍ وردي هـادئ.. شَـعْرُها الأسـودُ اللامـع

ينسـدل حتـى كتفيهـا، مصفـفٌ بطريقـةٍ تـدل عـلى اتـزان شـخصيتها.. جسـدُها ملفـوفٌ متناسـقٌ بشـكلٍ بديـعٍ، حركتهـا رشـيقةٌ.. بشرتهـا مشـدودةٌ وعلامـات الصحـة تبـدو واضحـةً عـلى صفحـة وجههـا، لم تؤثـر تلـك الهـالات البسـيطة أسـفل عينيهـا عـلى سـحر وجاذبيـة وجههـا.. عيناهـا بدتـا واسـعتين أسـفل حاجبـين عريضـين محدديـن بدقـةٍ كأنهـما مظلتـان واقيتـان تحميـان بريـق عينيهـا اللافـت مـن وهـج الشـمس ومـن الحسـد، يُطـل لـونُ عسـلهما مـن خـلال بيـاض حليبـي ناصـع.. تضـع عـلى وجههـا ابتسـامةً خفيفـةً، لكنهـا كافيـةٌ لإبـراز جـمال أسـنانها الناصعـة.. نـزل بنظـره إلى الأسـفل فـرأى سـاقيْها واضحتـيْن مـن تحـت تنورتهـا التـي بالـكاد تصـلُ إلى مـا فـوق ركبتيهـا.. و..

- متأسفة جدًّا يا دكتور إني جيت من غير ميعاد.

انتبـه "أكـرم" مـن شروده عـلى بحَّـة صوتهـا التـي كان لهـا مفعـولُ السـحر في أذنيـه.. تنحنـح في ارتبـاكٍ حـين مـدَّت يدهـا تصافحـه فقـام عـلى الفـور مـن خلـف مكتبـه وتوجَّـه نحوهـا يلتقـط يدهـا الرقيقـة بكلتـا يديـه، ثـم قـال:

- اتفضلي يا أفندم.

دعاهـا إلى الجلـوس عـلى المقعـد الوثـير الموضـوع أمـام المكتـب، ثـم عـاود الجلـوس خلـف مكتبـه متظاهـرًا بالهـدوء،

حـرص عـلى ألا تبـدو عليـه علامـات الإعجـاب بجاذبيتهـا.. قبـل أن يبـدأ في أسـئلته المعتـادة بـادرت هـي قائلـةً بنفـس الصـوت المبحـوح الـذي سـحر أذنيْـه:

- يا ترى ممكن أدخن؟!

أومـأ لهـا برأسـه وهـو يقـرب لهـا مطفـأة سـجائر زجاجيـة، كانـت موضوعـةً بالقـرب منـه عـلى سـطح المكتـب.. أشـعلت سـيجارتها ثـم نفثـت دخانهـا في توترٍ، وقالـت:

- أنـا مـش بنـام يـا دكتـور، بقـالي فـترة عـلى الحالـة دي.. مـش عارفـه إيـه الحـل؟!.. أنـا خـلاص مـش قـادرة، تعبـت.

أمسـك بقلمـه يـدون بعـض الملاحظـات بالمفكـرة أمامـه، ثـم رفـع رأسـه نحوهـا وسـألها في جديـة:

- والحالة دي بقالها كتير عند حضرتك؟

"بقولـك تعبانـة، مـش قـادرة.. إنـت مـش دكتـور ولا إيـه؟!"..

انتفـض في مكانـه وأفـاق مـن شروده عقب سـماعه للعبارة الأخـيرة، رنَّ صوتُهـا المبحـوحُ في غرفتـه بعـد أن أطلقـت ضحكـةً عاليـةً في ميوعـةٍ.. رفـع رأسـه نحوهـا فوجدهـا تخلـع معطفهـا الأنيـق وحذاءهـا، وتلقـي بهـما بـلا اكـتراثٍ عـلى

أرضيـة الغرفـة.. اقتربـت مـن مكتبـه حتـى وقفـت أمامـه، اسـتندت بكفيهـا عـلى حافتـه ثـم انحنـت قليـلًا بصدرهـا إلى الأمـام مـما منحهـا مظهـرًا مثـيرًا.. خاطبهـا بنـبرةٍ ذات مغـزى، عقـب فراغـه مـن تفحـص تلـك المسـاحة التـي يسـمح بهـا قميصهـا المفتوحـة أزراره تقريبًـا وتكشـف عـن نهديـن كأنهـما توأمـيْ حجـل نائمـيْن عـلى صدرهـا:

- بقالنا كتير ما اتقابلناش يا إيمو.

تحرَّكـت "إيمـي" في اتجاهـه تتمايـل في ميوعـةٍ، تُحـاول إبـراز أكـبر قـدرٍ ممكـنٍ مـن مفاتنهـا وأنوثتهـا.. فمـلأت رائحـة بخورهـا النسـائي المـكان، وأدفـأت حـرارة نـاره بـرودة الغرفـة.. رمتـه بنظـرةٍ ناعسـةٍ بعـد أن وضعـت يمينهـا في خصرهـا.. مـبرزةً تلـك المنطقـة الضيقـة التـي تفصـل بـين نصفهـا العلـوي النافـر في شـموخٍ، ونصفهـا السـفلي البديـع في اسـتدارته.. قالـت تدللـه بحـروفٍ ممطوطـةٍ وهـي تفتـح بيسراهـا زرًّا إضافيًّـا مـن أزرار قميصهـا الأبيـض الخفيـف، في إشـارةٍ لهـا دلالـةٌ خاصـةٌ:

- في حاجـات يـا كيمـو لازم نبعـد عنهـا شـوية، علشـان نشـتاق لهـا.

أنهـت عبارتهـا ثـم رفعـت سـاقها، ووضعـت قدمهـا فـوق فخـذه في جمـوحٍ اعتـاده منهـا.. مـدَّت يدهـا ترفـع عن سـاقها

تنورتها شيئًا فشيئًا.. ثم أسبلت رموشها الطويلة في دلالٍ، وانحنت تقترب من وجهه.. اقترب وجهها من وجهه حتى لفحته حرارة جسدها.. أغمضت "إيمي" عينيْها وندَّت عنها تنهيدةٌ حارةٌ، منتظرةً منه أن يُقبلها.. لكنه تصنَّع الجدية، وقال في رصانةٍ عقب أن وضع كفه على شفتيها:

- ضيعنا وقت كتير، كفاية لحد كده.

اتسعت عيناها في ذهولٍ، لا تُصدق إعراضه عنها.. لكنها لم تلبث أن ضحكت في غنجٍ بعد ارتفع جسدها عن الأرض فجأة، ووجدت نفسها بين ذراعيه القويتين.. غامت نظراتها بين أحضانه، وسمعته يهمسُ من بين ابتسامته الرائقة:

- خلص الكلام لحد هنا يا إيمي.

***

لم ينل المقدم "معتز الشامي" قسطًا من النوم منذ حادثة الأمس، ولم يجد للراحة سبيلًا.. ألقى بجسده الضخم على كرسيه خلف المكتب الخشبي، الذي يتوسط غرفته بمبنى قسم شرطة قصر النيل.. كان الإرهاق قد بلغ منه منتهاه، لكنه كان يُقاوم ذلك الإحساس في صلابةٍ على الرغم من تجاوز عقارب الساعة للثانية عشرة

ظهـرًا.. شـعر عقلـه بالتحـدي لتلـك الجريمـة الغامضـة، التـي لم يتمكـن مـن فـك طلاسـمها حتـى الآن..

رشـف فنجـان القهـوة الخامـس أمامـه، وأشـعل سـيجارة.. وضعهـا أمامـه في المطفـأة دون أن يسـحب منهـا دخانًـا، سرح ذهنـه في قضيـة مقتـل "صفـاء".. يبحـث عـن الدافـع وراء قتلهـا، كان يعلـم بحكـم خبرتـه أنـه إذا علـم الدافـع توصَّـل إلى الجـاني..

لكـن الوضـع في حالـة "صفـاء" كان مختلفًـا.. فتلـك الجرائـم تكـون غالبًـا بدافـع السرقـة، ومثـل هـؤلاء الفنانـات يخدعـن عامـة النـاس بذلـك النمـط المـترف مـن الحيـاة.. يظـن النـاس أنهـن يمتلكـن في بيوتهـن الملايـين أو كأن بيوتهـن هـي مغـارة عـلي بابـا، يحصـل مـن يفتـح بابهـا عـلى الكنـوز الثمينـة..

إلا أن خبرتـه الطويلـة في المباحـث تُخـبره بـأن هـذه الجريمـة بالتحديـد وراءهـا سرٌّ غامـضٌ.. فالظاهـر مـن طريقـة القتـل أن الدافـع وراء ارتكابهـا كان عاطفيًّـا، لكـن مؤكـد أن العاطفـة لم تكـن وحدهـا الدافـع بـل كانـت مقترنـةً بدافـع جنـسي وإلا فـما المـبرر لطعنهـا بـين فخذيْهـا!!.. كـما أن تلـك الجثـة المجهولـة التـي وجدوهـا عاريـةً في حـمام غرفـة نـوم "صفـاء" تـكاد تشـل تفكـيره تمامًـا.. لا يظهـر عليهـا أثـر أي

مقاومة على الإطلاق، فقط تلك العلامات الزرقاء على عنقها من أثر يد القاتل حين خنقها..

"لماذا تُقتل سيدتان ليس بينهما رابط في نفس المكان؟ ولم تُترك جثتاهما عاريتين؟!"..

أعياه الفكر وأضنته الحيرة بعد أن فشل في الإجابة عن هذا السؤال.. فهزَّ رأسه في ضيقٍ، أمسك بسيجارته بعد أن أوشكت على الانتهاء ثم سحب منها نفسًا عميقًا حتى كادت أن تحرق شفتيْه.. أطفأها بغضبٍ، وهو ينفث دخانها في ضيقٍ وتأففٍ.. أشعل سيجارةً أخرى ثم أمسك بملف التحريات الأولية الذي استلمه منذ قليلٍ، وبدأ يقرأ ما دون فيه في انتباهٍ شديدٍ:

"صفية جابر عبد الحميد"، واسم الشهرة "صفاء عبد الحميد".. أنثى، مسلمة، مطلقة، مواليد الجيزة سنة ١٩٦٦.. نشأت في أسرةٍ ميسورة الحال، كون والدها ثروة من العمل بمجال المقاولات في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي وقت أن كانت تلك الأعمال مزدهرة.. مكنته تلك الثروة المعقولة من الزواج بوالدة صفاء والتي كانت تنحدرُ من أصول أسرةٍ عريقةٍ، لكن ساءت حالتهم المادية بعد أن نالت من أملاكهم قرارات التأميم في ستينيات القرن ذاته.. تلقت صفاء تعليمًا راقيًا في مدارس أجنبيةٍ فأصبحت تتقن

الإنجليزيـة والفرنسـية.. انفصـل أبواهـا في سـنٍّ مبكـرةٍ بعـد أن تأثـرت ثـروة والدهـا نتيجـة انهيـار بعـض العقـارات التـي بناهـا، ولم تتحمـل والدتهـا أحوالـه المتعـثرة فتـم الطـلاق.. بقيـت مـع أمهـا في شـقتها بالزمالـك، لم يمـض وقـتٌ طويـلٌ حتـى كانـت الأم تتـزوج مـن رجـل سـيئ السـمعة.. اشـتهر عنـه أنـه كان مولعًـا بمطـاردة سـيدات الطبقـة الراقيـة مـن المطلقـات والأرامـل، يمنحهـن الحـب المفقـود ويسـتحوذ عـلى مـا بقـي مـن ثرواتهـن..كان جـمال صفـاء هـو سـلاحها الوحيـد وطريقهـا الأمثـل للنجـاح، فعـن طريقـه تـم اختيارهـا للتمثيـل في فريـق مـسرح المدرسـة.. وعـن طريقـه أيضًـا تعرَّفـت عـلى أحـد شـباب المخرجـين الـذي أسـند إليهـا دورًا صغـيرًا في فيلـمٍ مـن أفـلام الصيـف.. وبسـببه كذلـك حظيـت باهتـمام ورعايـة "مدحـت حمـودة" مذيـع النـشرة الفرنسـية، الـذي بهـره جمالهـا وأعجبـه إجادتهـا للفرنسـية فعـرض عليهـا تأمـين مسـتقبلها الفنـي وحمايتهـا بشـبكة علاقاتـه..

قطـع استرسـالَه في القـراءة رنـينُ هاتفـه المحمـول، ردَّ عـلى الفـور حـين رأى عـلى الشاشـة وميضًـا شـديدًا باسـم رئيـس مباحـث القاهـرة.. لم يتمكـن مـن الـرد فقـد سـبقته موجـةٌ عاتيـةٌ مـن الـصراخ والصيـاح عـلى الجانـب الآخـر، لم يتبـين منهـا سـوى كلـماتٍ متقطعـةٍ..

"الكلام ده ما ينفعش"..

"لسه مش عارفين تقبضوا على القاتل!!"..

"أقول للقيادات إيه؟"..

"ده اسمه تهريج يا حضرة المقدم، ابعتلي تقرير فورًا بكل حاجة وصلتلها"..

ألقى بهاتفه في حدة على المكتب، واحمرَّت عيناه من الغضب بعد أن أُغلق الخط في وجهه ولم ينل فرصةً واحدةً لتبرير موقفه.. لعن في قرارة نفسه اليوم الذي التحق فيه بكلية الشرطة، واليوم الذي تم ترشيحه فيه للعمل بالمباحث.. ذلك العمل الذي كان سببًا رئيسيًّا في هدم أركان أسرته الصغيرة..

أمسك هاتفه مرةً أخرى، وضغط على اسم "عمرو الوقاد".. ما أن سمع صوته على الجانب الآخر حتى بادره صائحًا:

- إنت فين يا عمرو؟! الدنيا مقلوبة في المديرية وإنت لسه ما وصلتش لحاجة؟

- يا باشا إحنا بعتنا لسيادتك التحريات الأولية وحاليًا إحنا....

لم يمهله "معتز"، وقاطعه في حدةٍ:

- تحريات إيه وكلام فارغ إيه؟! مين صاحبة الجثة التانية يا سيادة النقيب؟!.. قدامك ساعتين بالكتير تكون عرفت على الأقل اسمها.

- أوامرك يا باشا.

أغلق الخط وهو يكاد ينفجرُ من الغيظ.. طلب فنجانًا سادسًا من القهوة، بدأ يتمالك نفسه حين رشف منه القليل.. هدأت ثورته بعض الشيء، فجلس يُكمل ما بدأه من قراءة تقرير التحريات:

وافقت "صفاء" على الزواج من "مدحت حمودة" على الرغم من أنه يكبرها بعشرين عامًا، أمَّن لها هذا الزواج خطواتٍ راسخةً في الوسط الفني.. انتقلت معه لعالم الشهرة والأضواء المبهرة، أصبحت علاقاتها أكثر تشعبًا وتأثيرًا مما ضمن لها مكانةً مميزةً وسط بنات جيلها من الفنانات.. بل كانت أكثر تميزًا عنهن لجمالها وموهبتها الكبيرة.. سرعان ما تقدمت حتى أصبحت من نجوم الشباك اللاتي يحصلن على أعلى الأجور، ثم تحوَّلت لتصبح نجمة الشباك الأولى التي تُحدد طاقم العمل بأكمله.. سارت حياتها على وتيرةٍ واحدةٍ تُماثل ما يحدث مع أي نجمةٍ سيطرت على القمة، مضت حياتها الزوجية طبيعيةً حتى اكتشفت ما كان يُخفيه عنها زوجها..

مـن المعـروف عـن "مدحـت حمـودة" ميولـه الجنسـية الشـاذة، لكـن مـن الواضـح أنـه نجـح في إخفـاء طبيعتـه المزدوجـة عـن "صفـاء".. حتـى ضبطتـه في فـراش الزوجيـة، يُمـارس معـه أحـد الشـباب أفعـالًا أقـل مـا تُوصـف بـه أنهـا شـذوذٌ جنـسي.. دمرتهـا تلـك الصدمـة تمامًـا فطلقـت منـه في سريـةٍ تامـةٍ وهـدوءٍ شـديدٍ حفاظًـا عـلى مسـتقبلها الفنـي.. تنازلـت عـن كل حقوقهـا الماليـة، وانـزوت في شـقة أمهـا بالزمالـك بعيـدًا عـن الأضـواء.. ماتـت أمهـا بعـد فـترةٍ قصيرةٍ، أصبحـت "صفـاء" وحيـدةً تمامًـا في مواجهـة معركـة المنافسـة الشرسـة للحفـاظ عـلى قمـة نجوميتهـا.. اضطـرت لفتـح منزلها للسـهرات حتـى تجـد مـن تُؤنـس بـه وحدتهـا.. أهملـت عملهـا وفنهـا وانغمسـت في حفلاتهـا وحياتهـا الاجتماعيـة..

شـيئًا فشـيئًا بـدأ نجمهـا الفنـي في الأفـول، وتحوَّلـت قمـةُ نجوميتها إلى هاويةٍ سـحيقةٍ تسـحبها لأسـفل سـافلين.. شـعرت في قـرارة نفسـها بمـا يحـدث، لكـن غرورهـا وثقتهـا المفرطـة في نفسـها منعاهـا مـن الإعـتراف بـه.. بـدأت معاملتهـا تختلـفُ مـع كل مـن حولهـا، أصبحـت تشـك في الجميـع.. شـعرت أن القمـة تهتـز مـن تحـت قدميْهـا فـزادت عصبيتُهـا وسـاءت أخلاقهـا.. خاصـة بعـد عـزوف شركات الإنتـاج عنهـا، بعدمـا كانـت تتهافـت عليهـا وتتحمـل في رضـا أجرهـا وشروطهـا

المغـالى فيهـما.. وتوقـف المخرجـون عـن ملاحقتهـا والاتصـال بهـا لتحديـد موعـد.. حتـى الصحـف باتـت شـحيحةً في نـشر صورهـا وأخبارهـا..

تقـول المصـادرُ إنهـا كانـت شـديدة الثقـة في أنهـا لم تفقـد شـيئًا مـن وهـج نجوميتهـا ولا بريـق جمالهـا، لـذا ازداد اهتمامهـا بمظهرهـا وحفلاتهـا الصاخبـة.. بالغـت في الـتردد عـلى مراكـز التجميـل والمراكـز الرياضيـة الفاخـرة، لكـن أيًّـا مـن ذلـك لم يمنـع نهايتهـا كنجمـةٍ كان الجميـعُ يتوقـع أن تكـون ملكـة الفـن بـلا منـازعٍ في العـصر الحـالي.. مـع انهيـار نجوميتهـا انهـارت حياتهـا ومعهـا تحطمـت نفسـيتها، أصيبـت بإحبـاطٍ شـديدٍ تحـوَّل بمـرور الوقـت لاكتئـابٍ حـاد فـترددت عـلى إحـدى المصحـات النفسـية الشـهيرة لفـترةٍ ثـم خرجـت تُعـاود حياتهـا.. لهـا العديـد مـن العَلاقـات العاطفيـة غـير المكتملـة.. لا يوجـد لديهـا خـدمٌ مقيمـون بالشـقة.. لا يـتردد عليهـا أحـدٌ بصـورةٍ منتظمـةٍ في الفـترة الأخـيرة سـوى "داليـا" ابنـة أختهـا..

طـوى "معتـز" أوراق الملـف أمامـه في ضيـقٍ، وأشـعل سـيجارةً جديـدةً بعـد أن ازدادت الأمـورُ تعقيـدًا أمامـه.. أخـرج ورقـةً بيضـاء وبـدأ يكتـب فيهـا:

"مدحت حمودة - طليق شاذ".. "داليا - ابنة أخت".. "بواب العمارة".. "المصحة النفسية"..

أغمض عينيْه بقوةٍ وهو يزفر في ضيقٍ بعد أن اتسعت دائرةُ المشتبه فيهم أمامه، لكن رنين هاتفه المحمول أنقذه من دوامات الحيرة حين سمع صوت "عمرو" يقول في لهفةٍ:

- إيمان الشهاوي يا باشا.

صمت "معتز" لوهلةٍ، ثم قال متسائلًا:

- مين دي كمان؟!

جاءه صوتُ "عمرو" عبر المحمول قائلًا:

- دي صاحبة الجثة التانية سعادتك.

***

(٦)

جلس الدكتورُ "هشام وهدان" مستندًا بظهره على مقعده الوثير خلف مكتبه الخشبي الفخم في غرفته الخاصة بعيادته الأنيقة الواقعة بمنطقة المقطم.. ينتظرُ لقاء غريمه القديم "أكرم رشدي"، مفكرًا فيما حدث من تغيراتٍ جذريةٍ في حياته منذ آخر لقاء جمع بينه وبين "أكرم"..

ابتسم في ثقةٍ حين حانت منه نظرةٌ خاطفةٌ نحو شهادات التقدير والجوائز العلمية التي امتلأت بها جدران ومكتبة الغرفة.. تذكر مشوارًا طويلًا من الكفاح المرير، قاسى خلاله حتى وصل إلى ما وصل إليه..

مكانةٌ رفيعةٌ صنعت منه واحدًا من أشهر الأطباء النفسيين، وجعلت منتجعه العلاجي يتنافس مشاهير

المجتمع على حجز موعدٍ لقضاء وقتٍ فيه.. تذكر تلك الدورات التي حصل عليها في أوروبا، وكيف كان منبهرًا بمدى تقدمهم حين سافر طلبًا للعلم..

تكوَّنت أمام ناظريْه صورة مصحته العلاجية وقت أن كانت مجرد قطعة أرض صحراوية على طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.. ومض في عقله شكلها الآن بعد أن تحوَّلت لمنتجعٍ علاجي، يُضاهي الفنادق ذات الخمسة نجوم..

هزَّ رأسه في قوةٍ طاردًا عنها تلك الأفكار التي سبَّبها مجردُ التفكير في "أكرم".. لا يعلم لماذا يشعر دومًا بالدونية أمامه.. حقًّا كان "أكرم" شابًّا مُدلَّلًا غنيًّا وقت الجامعة، لكن الوضع الآن بات مختلفًا..

أخذ عقلُه العملي يفكر في كل الاحتمالات التي من الممكن أن يكون عليها هذا اللقاء.. كان يعلم أن "أكرم" ابتلع الطُّعم منذ أن سمع صوته مهزوزًا وقت أن حادثه هاتفيًّا يطلب لقاءه، لكنه أيضًا كان مدركًا لصعوبة اكتساب ثقة مريض مثل "أكرم"..

فالثقةُ بين المريض والطبيب هي أساسُ العلاج النفسي.. هي الباب الذي قد يتمكن من خلال عبوره أن يقنع "أكرم" بالبوح بمكنونات نفسه، ومن خلال

هـذا البـوح يُصبـح قـادرًا عـلى تحليـل حالتـه.. لكـن "أكـرم" كان طبيبًـا أيضًـا، وهـو مـا يزيـد الأمـرَ صعوبـةً.. لكـن تلـك الصعوبـة كانـت هـي مـا تثيره.. كان يرغـب في كشـف عورتـه النفسـية فتنمحـي معهـا شـخصيته أمامـه، وتنكـسر غطرسـته التـي كثـيرًا مـا عـانى منهـا فيـما مـضى..

كان يعلـمُ بحكـم خبرتـه أن المريـض النفـسي في العمـوم يكـون لـه وعيـان، ظاهـرٌ وباطـنٌ.. الوعـي الظاهـر يكـون خاصًّـا بالحـاضر، يجـرُّ مـن خلفـه آخـر باطنًـا يكـون متعلقًـا بمـاضي المريـض.. ويسـتمر الوعـي الظاهـر في عمليـة الجـر أو السـحب هـذه كأنـه يسـتخدم حبـلًا وهميًّـا، لكـن لـكلِّ حبـلٍ مهـما بلـغ طولـه نهايـة.. فعنـد نقطـةٍ معينـةٍ يبلـغ هـذا الحبـل الوهمـي منتهـاه، حينئـذ تبـدأ عمليـةٌ عكسـيةٌ.. عمليـة جـذب الوعـي الباطـن للوعـي الظاهـر مـع محاولـة الأخـير للاسـتمرار في طريقـه سـاحبًا خلفـه الباطـن.. في هـذه النقطـة تحديـدًا يبـدأ الـصراع بـين الظاهـر والباطـن، عندهـا يفقـد عقـل المريـض قدرتـه عـلى التمييـز.. تبـدأ أعـراض المـرض النفـسي..

وحالـة "أكـرم" كـما عـرف مـن "ليـلى" هـي حالـةٌ مـن الهـلاوس السـمعية، وفقـدانٌ مؤقـتٌ في الذاكـرة لبعـض الحـوادث الانتقائيـة.. ولـكي يتمكـن مـن علاجهـا فـلا بـد أن

يعـرف النقطـة التـي وصـل إليهـا وعـي "أكـرم"، أو الحـادث الـذي اعـترض حياتـه فقلـب موازينهـا.. عندهـا يواجهـه بـه حتـى يتمكـن مـن إعـادة توازنـه النفـسي.. هـذا مـا يتعـين عليـه الوصـول إليـه كطبيـب..

لكنـه يعـرف أن الوصـول لذلـك مـع مريـضٍ مثـل "أكـرم" ليـس بالأمـر الهـيِّن.. لأن الأخـير بحكـم خبرته كطبيبٍ يسـتطيع أن يخـدع نفسـه جيـدًا.. يُـبرر أفعالـه وتصرفاتـه الغريبـة تبريـرًا يـرضى عنـه وعيـه الظاهـر، يتمكـن بـه مـن إخفـاء حقيقـة مرضـه عـلى نفسـه بـل ويقنعهـا بأنـه ليـس مريضًـا مـن الأسـاس.. ومـا دام المريـض قـادرًا عـلى خـداع نفسـه فإنـه بالـضرورة سـيكون أكـثر قـدرةً عـلى خـداع طبيبـه..

حالـةٌ صعبـةٌ ومعركـةٌ شرسـةٌ تلـك التـي سـتكون بينـه وبـين "أكـرم"، لـذا فقـد اختـار أن يعتمـد عـلى أسـلوب الصدمـة كوسـيلةٍ للتغلـب عـلى شـخصية "أكـرم" وقهرهـا.. فتعمـد أن يكـون لقاؤهـما في عيادتـه ليجعلـه يعـترف بينـه وبـين نفسـه بحاجتـه إليـه، حتـى يحطـم غـروره وغطرسـته.. ثـم إن "أكرم" سـيكون أكـثر استسـلامًا لـه في العيـادة منـه عندمـا يلقـاه خارجهـا.

وعـلى الرغـم مـن هـذا كلـه فحـين جـاء "أكـرم" في موعـده تمامًـا كانـت هنـاك هالـةٌ كبـيرةٌ مـن الثقـة المفرطـة بالنفـس

تُحيط به، بدا شديد الغرور مزهوًّا بنفسه كالطاووس.. ابتسامته الصغيرة ترتسم على جانب فمه حتى ظن معها "هشام" أنه يسخر منه، ويتحداه..

غمغم "هشام" مُحدثًا نفسه في حنقٍ:

"اللعنة عليك، كيف استطعت في الفترة التي انقضت منذ حديثنا الهاتفي أن تستعيد سيطرتك على نفسك.. تؤهل نفسك لدخول العيادة بكامل قواك وطاقتك".

دخل "أكرم" غرفة "هشام" الفخمة صامتًا، يجيل بصره في المكان وتلك الشهادات العلمية الكثيرة المعلقة على الجدران تُثير حنقه.. جلس دون استئذان على المقعد الضخم المواجه لمكتب "هشام" الخشبي، ثم قال محاولًا السيطرة على مجريات الأمور:

- الحقيقة أنا قررت أجيلك علشان أستعين بك في موضوع معين.. هو أنا كنت قررت إني أعالجه بنفسي طبعًا، لكن في الآخر شفت إن ممكن أستعين بشخص غيري..
- وأنا جاهز يا أكرم.

قالها "هشام" بوجهٍ جامدٍ لكن نبرات صوته المتحدية كشفت عن نواياه.. اتسعت ابتسامةُ "أكرم" حين علم أنه أصاب غريمه إصابةً موفقةً، فقال بلهجةٍ ساخرةٍ:

- الموضوع بسيط يا سيدي، شوية هلاوس سمعية مش محتاجة إلا بس.....

قاطعه "هشام" في نبرةٍ جامدةٍ:

- إمتى بدأت الهلاوس دي؟

رمقه "أكرم" في دهشةٍ، لكنه قال متجاوزًا دهشته:

- من مدة طويلة، حوالي سنة.. لكنها زادت شوية في الأسبوعين الأخيرين.. أنا كنت شايف الموضوع عادي ممكن يخلص بشوية مهدئات، لكن ليلى هي اللي أصرت إني لازم أشوف دكتور غيري.

مط "هشام" شفتيْه، ثم قال ببرودٍ:

- احتمال.

- احتمال!! ده اللي حصل فعلًا.. يعني ده واقع مش احتمال.

ردَّ "أكرم" في ضيقٍ من لهجة "هشام" الباردة ومحاولته لعب دور الطبيب النفسي معه، لكن "هشام" ردَّ له الضربة حين قال بنبرةٍ جادةٍ:

- التحليل النفسي مش ممكن يبقى واقع لأنه مجرد استنتاج.. لكن الواقع هو نتيجة التحليل النفسي النهائية، إللي بتثبت صحة التحليل أو خطأه.

جزَّ "أكرم" على أسنانه غيظًا ثم سكت تمامًا، كأنه تلقى درسًا لم يكن يُحب أن يتلقاه.. تركه "هشام" صامتًا وتشاغل عنه بكتابة بعض الملاحظات على المفكرة أمامه.. بعد فترةٍ طالت خرج صوت "أكرم" مبحوحًا حين كسر حاجز الصمت قائلًا:

- إيه مقترحاتك علشان نبدأ؟

- كلمني عن نفسك؟!

قالها "هشام" دون أن يرفع عينيْه عن المفكرة أمامه.. استعر الشك في قلب "أكرم" حين أحسَّ بأن "هشام" يُعد له فخًّا، فقال:

- أكلمك عن نفسي ولا أكلمك عن ليلى؟

- الاتنين واحد، إنت لما تكلمني عن نفسك أكيد هتكلمني عنها.. مش كده والا إيه يا دكتور؟!

قالها "هشام" في سخريةٍ واضحةٍ، فضاقت حدقتا "أكرم"، ثم قال غاضبًا:

- إنـت فاكـر إني مـش فاهـم إنـت بتحـاول تعمـل إيـه، أنـا عـارف كويـس كل....

- تقدر تنطق اسمها؟!

باغتـه "هشـام" مُقاطعًـا، بُهـت "أكـرم" لسـؤاله الغريـب، فقـال متعجبًـا:

- هي مين دي؟!

ركـز "هشـام" نظراتـه عـلى عينـيْ "أكـرم" محـاولًا فـرض شـخصيته عليـه ثـم قـال في هـدوءٍ قاتـلٍ:

- بنتك يا أكرم، بنتك.

ارتعشـت عـين "أكـرم" اليـسرى رغـمًا عنـه واهتـزَّت شـفته السـفلى في حركـةٍ لا إراديـة، لكنـه تمالـك نفسـه سريعًـا، وقـال بصـوتٍ مبحـوحٍ بعـد أن أخـرج علبـة سـجائره:

- ممكن أدخن لو سمحت؟!

رمقـه "هشـام" لفـترةٍ، ثـم قـرر أن يُحـاول كسـب ثقتـه فقـال بهـدوءٍ:

- هـو في الأصـل ممنـوع التدخـين أثنـاء الجلسـة، لكـن لاعتبـارات الصداقـة القديمـة يبقـى مفيـش ممنـوع بالنسـبة لـك.

أشعل "أكرم" سيجارته ومضى ينفث دخانها في عصبيةٍ واضحةٍ دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، طال صمته حتى قطعه "هشام":

- مش ناوي تقولي اسمها؟!

تلعثم "أكرم" حين حاول الكلام، لمجرد أنه حاول نطق اسمها فخرجت الحروف مبعثرةً من فمه:

- فـ.. فر.. يدة.

قالها ثم سالت دموعُه من عينيْه دون شعورٍ، بقي وجهه ثابتًا دون أدنى تعبيرٍ يُوحي بما يعترك في داخله من مشاعرَ متباينةٍ.. تفحَّص "هشام" وجهه لفترةٍ ثم سأله:

- فاكر إيه اللي حصلها يا أكرم؟!

- طبعًا.

أجاب "أكرم" في حدةٍ ملحوظةٍ، فهم منها "هشام" عدم رغبته في استكمال الحديث حول هذا الموضوع لكنه قرر مواصلة اتباع أسلوب الصدمة فسأله:

- طيب فاكر هي ماتت إزاي؟!

ازدرد "أكرم" لعابه بصعوبةٍ وهو يُقاوم إحساسًا طاغيًا ورغبةً مُلحةً في البكاء، ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

- لأ، مش فاكر.

أومأ "هشام" برأسه ثم قال:

- ماشي، خلينا نغير الموضوع دلوقتي.. ممكن تحكي لي شوية عنك؟

- عاوزني أحكيلك إيه بالضبط، إنت عارف عني كل حاجة تقريبًا من أيام الجامعة.

قالها "أكرم" وفي عينيْه بريقٌ يلمع بنظرات الشك.. عدل "هشام" من وضع نظارته الطبية ثم قال محاولًا كسب ثقته:

- أي حاجة يا أكرم، قول أي حاجة تريحك يمكن أقدر أساعدك.

زفر "أكرم" زفرةً طويلةً ثم أطفأ سيجارته في عصبية، تلفت حوله حتى وجد أريكةً فقام متوجهًا نحوها ثم تمدد فوقها شابكًا يديْه فوق بطنه.. ابتسم "هشام" في هدوءٍ فقد كان في فعل "أكرم" هذا دليلٌ دامغٌ على أنه يُعاني من خللٍ نفسي بالفعل.. أنه في حاجةٍ إلى طبيبٍ، في حاجةٍ إلى البوْح.. علم "هشام" أن هذا التحدي الظاهر في تصرفاته وحديثه لم يكن موجهًا له بل كان يتحدَّى نفسه..

أغمض "أكرم" عينيْه كأنه يُحاول التغلب على نفسه ثم خرج صوته ضعيفًا بطيئًا للغاية، كأنه يتحدث من

باطنـه.. غابـت عنـه نبرتـه القويـة، اختفـت لهجتـه المتحديـةُ الساخرةُ وبـات كأنـه مهمـومٌ حزيـنٌ ينعـى نفسـه:

"لا دور لي في هـذه الحيـاة سـوى أن أتقبـل ضرباتها بصـدرٍ رحـبٍ، أتحملها في صـبرٍ وألمٍ حتـى إن انكفـأت عـلى وجههـي مـن قوتهـا.. ثـم أتظاهـر بالقـوة وأعـود واقفًـا مـن جديـدٍ لمواصلـة طريقـي.. حتـى نجاحـي وتفوقـي ليـس لي يـد فيهـما، فأنـا لم أجـد أمامـي طريقًـا آخـر.. لم أكـن أمتلـك رفاهيـة الفشـل.. يظـن النـاس مـن حـولي أني قـوي صُلـب، لا يشـعرون بمـا أحـس بـه مـن ألمٍ.. لكـن لا يهـم.. فقـد أعجبنـي ذلـك الإحسـاسُ منهـم، ونظـرات الإعجـاب تلـك التـي يوجهونهـا نحـوي دومًـا.."..

توقـف "أكـرم" عـن مواصلـة البـوْح وزفـر زفـرةً طويلـةً، غـرق في صمـتٍ طويـلٍ.. فتـح عينيْـه وأخـذ ينظـر نحـو "هشـام" بعـينٍ ترجـوه أن يجعلـه يتوقـف، لكـن الأخـير أدار مقعـده بعيـدًا عنـه ونظـر إلى الجهـة المقابلـة.. أغمـض "أكرم" عينيْـه مجـددًا وأكمـل البـوْح:

"كان أبي ضابطًـا في الجيـش، لكنـه لم يكـن ضابطًـا عاديًـا كـما سـمعت مـن عمتـي كثـيرًا.. أخبرتنـي أنـه كان يعمـل في جهـازٍ سـيادي، مسـئول عـن العديـد مـن الملفـات الملتهبـة الشـائكة آنـذاك.. تنقـل بحكـم عملـه في محافظـاتٍ كثـيرةٍ،

لم يكن يُقيم معنا بصورةٍ منتظمةٍ.. كنت أنتظره عشرة أيام كل شهرٍ، أحيانًا كانت غيبته تطولُ لكنه كان دائمًا ما يعود.. كان محافظًا صارمًا في حياته، يُحافظ على العادات والتقاليد لا يقبل فيهما تهاونًا أبدًا.. فأصوله الريفية ووالده ضابط الجيش أيضًا كانا هما المكونيْن الرئيسييْن في شخصيته.. أما أمي فقد كانت على النقيض تمامًا.. كانت من أسرةٍ لها أصولٌ أرستقراطيةٌ، والدها كان إقطاعيًا من الذين صادرت ثورة يوليو أموالهم وممتلكاتهم.. سمعت مرةً عمتي تقول إن جدي لأمي قد وافق على تلك الزيجة طمعًا في أن يحمي جدي لأبي ما بقي من أملاكه.. كنتُ دائمًا ما أسمع عمتي تقول لأبي: "ما كانش ليك في الجواز من الناس دول أبدًا يا خويا".. لكنها كانت مخطئة.."..

توقَّف عن الحديث فجأةً وقام واقفًا ثم قال في حدةٍ:

- أظن كده كفاية النهاردة.

وخرج من الباب بسرعةٍ متحاشيًا النظر في عيني "هشام"، الذي بقي على حاله مندهشًا من تصرفات "أكرم" الغريبة..

كان يرى أنه شخصٌ مُسيطرٌ على نفسه بصورةٍ جيدةٍ حتى وإن حاول التظاهر بأن حياته كانت هي التي تُسيطر عليه.. لم يبدُ عليه أي شيء لافت سوى قيامه المفاجئ من

عـلى الأريكـة وقـت أن تطـرق حديثـه لعلاقـة أبيـه وأمـه.. لم تختلـف نبرتـه الهادئـة التـي بـدأ بهـا حديثـه إلا عندمـا بـان فيهـا الحـماس دفاعًـا عـن أمـه وقولـه إن عمتـه كانـت مخطئـةً.. لكـن الغريـب في الأمـر أيضًـا أنـه لم يتحـدث عـن موضـوع ابنتـه عـلى الإطـلاق عـلى الرغـم مـن أنـه يفـترض أن يكـون هـو الغـرض مـن اللقـاء.. وتحـدَّث عـن طفولتـه هـو عوضًـا عنـه..

"يبـدو أن عقدتـه ليسـت خاصـةً بـه وحـده".. حـدَّث "هشـام" نفسـه وعـدَّل مـن وضـع نظارتـه الطبيـة ثـم أمسـك بهاتفـه المحمـول يطلـب رقـمًا.. قـال بعـد فـترةٍ:

- أيوه، لسه ماشي من عندي حالًا..

صمت برهةً، ثم قال مجددًا:

- عاوز أشوفك.

تهللت أساريره وقال بعد أتاه الرد من الطرف الآخر:

- اتفقنا، يبقى هعدي عليكي بُكره.

***

كانـت "ليـلى" راقـدةً في فراشـها كعادتهـا في الآونـة الأخـيرة، كل شيء فيهـا نائـمٌ إلا عينيهـا وقلبهـا.. لـو حسـبت

تلك الساعات التي قضتها راقدةً في الفراش في العام الأخير لوجدت أنها تتجاوز نصف سنوات عمرها الذي شارف على الأربعين.. أصبحت حياتها كلها فوق هذا الفراش، حزنها فوق الوسادة وألمها أسفل الغطاء.. حياة بات لا يُشاركها فيها أحدٌ.. فلا أحد يشاركها الحزن، ولا أحد يحس معها بالألم.. حتى "أكرم" حبها الوحيد لم يعد يشاركها أي شيء..

تنهدت في أسى حين تذكرت كيف كانت تحب "أكرم"، لا لم تكن تحبه بل كانت تعشقه.. كان يكفيها ما تقوله لها أمها وقت أن تقع عيناها عليه أيام العباسية: "يا بت اتقلي، عينيكي فاضحاكي".. كانت لمعةُ عينيها دومًا ما تفضحها.. فلمعة العين عند رؤية من تحب هي الأبجدية التي لا تنطقها الشفاه..

و"ليلى" كانت تؤمن أن الحب هو أسمى شيء في الوجود، من أجله خُلق البشر.. كان الحب عندها أكبر من كل شيء، أكبر من الجنس أو حُسن العشرة أو الاعتياد أو حتى الظروف.. وإلا ما كان هناك فارقٌ بين رجلٍ وآخر..

كانت بحكم تعليمها وخبرتها العملية، كأستاذةٍ في الجامعة تدرس طب الأطفال، ترى إمكانية أن تُمارس المرأةُ الجنسَ مع أي رجلٍ فتلك غريزة فطريةٌ جُبلت

عليها.. لكنها آمنت أن من المستحيل على المرأة أن تُحب سوى رجلٍ واحدٍ.. وقديمًا كانت قد قرأت مقولةً صارت تؤمن بصدقها: "المرأة لا تُوجد في حياة الرجل سوى مرةٍ واحدةٍ، وكذلك الرجل.. وما عدا ذلك ليس سوى مجرد محاولاتٍ بائسةٍ للتعويض"..

"ما الذي يجعل المرأة تقعُ في غرام رجلٍ بذاته؟".. شغل هذا السؤال بالها كثيرًا حينما كانت في الجامعة..

كان هذا هو محور حديثها وزميلاتها وقتئذ.. تذكرت صديقاتها اللاتي اندفعن في متعة الجنس متوهمات بأنها هي الحب، لكن سرعان ما انطفأت تلك الجذوة المتقدة بالرغبة وخبا معها ما كنَّ يتوهمن أنه الحب.. فالحب الحقيقي كما تعتقد لا تنطفئ جذوته أبدًا.. وأخريات كن يهربن من الحب لخوفهن من حرمة الجنس وعيبه، ففقدن أجمل وأسمى معنى يُميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات.. وغيرهن تعاملن مع الحب على أنه ضعفٌ أو استسلامٌ للرجل.. وكلهن عندها مخطئاتٌ..

كانت ترى أن الحب طاقةٌ نورانيةٌ هائلةٌ، قوةٌ روحيةٌ كبيرةٌ.. فشريعة الحب عندها أن تمارس ضعفها في حضرة قوته، ولا يعني ذلك ضعفًا أو خنوعًا.. بل على العكس تمامًا، كلما زادت المرأة قوةً ازدادت قدرتها على الحب

فيتحـول حبهـا بمـرور الوقـت إلى عـالمٍ متكامـلٍ.. تجـد ملاذهـا بـين ذراعيْـه، لا تخـشى أن تتجـرد أمامـه مـن كل شيء دون خـوفٍ أو خجـلٍ.. تتجـاوز عـن أي عيـب فيـه، تـبرره وتعشـقه.. تضحـي بـكل شيء مـن أجلـه دون أن تُـدرك أن مـا تفعلـه تضحيـةٌ.. كانـت تـرى الحـب يتمثـل في امتـزاج روحهـا وذَوبانهـا في كيـان حبيبهـا.. ذلـك الحبيـب الـذي تجـد فيـه قلبهـا وعقلهـا، يومهـا وغدهـا.. تجـد فيـه حياتهـا بأكملهـا، وتجـد فيـه أيضًـا إحساسـها بجسـدها..

لكنهـا كانـت تظـن أن الحـب كالإنسـان تمامًـا، يمـر بـكلِّ أطـواره المتغـيرة.. فقـد يمـرض أو يضعـف، لكنـه لا يمـوت إلا بمفارقـة الـروح لجسـد المحـب.. لـذا فقـد كانـت تُؤمـن أن الرجـل القـوي هـو وحـده القـادر عـلى الحـب.. القـادر عـلى حمايـة حبـه مـن شـهواته وغرائـزه، الحامـي لحبيبتـه مـن نفسـه.. وكانـت تظـن أنهـا محظوظـةٌ لكونهـا وجـدت مثـل هـذا الرجـل.. الرجـل القـوي المحـب، "أكـرم رشـدي".. لـذا لم تتنـازل عـن حبهـا لـه أبـدًا..

كان إحساسُـها هـذا يُولـد لديها شـعورًا متعاظـمًا بالخوف.. الخـوف مـن فقـده يومًـا مـا.. وحتـى لا تفقـده كانـت تُحـاول أن تفـرض سـيطرتها عـلى كل مجريـات حياتـه، لم تـترك شـيئًا له وحـده بـل شـاركته في كلِّ أمـوره.. كانـت تعلـم أن محاولاتهـا

تلـك تصيبـه بالضيـق والضجـر، لكنهـا كانـت تتعجـب مـن استسـلامه لهـا.. حتـى باتـت تشـعر أنهـا مسـئولةٌ عنـه وعـن حمايتـه، أصبحـت تشـعر أنهـا زوجتـه وأمـه في نفـس الوقـت..

أفاقـت مـن شرودهـا حـين سـمعت صـوت إغـلاق بـاب الشـقة، علمـت أن "أكـرم" قـد عـاد.. بعـد فـترة دخـل للغرفـة عابسًـا مقطبًـا جبينـه، حانـت منـه التفاتـةٌ نحوهـا فوجدهـا في نفـس الوضـع الـذي اعتـاد رؤيتهـا عليـه مؤخـرًا.. راقـدة في الفـراش، تركـز نظراتهـا الجامـدة عـلى نقطـةٍ وهميـةٍ في السـقف.. تمتـم في غضـبٍ ثـم غـادر الغرفـة سريعًـا.. التفتـت "ليـلى" نحـو بـاب الغرفـة ودمعـت عيناهـا حـين تذكـرت كيـف كانـت سـعيدةً معـه قبـل أن تتحـول حياتهـما جحيـمًا.. لم تعـد تُفكـر كثـيرًا في السـبب، ولا مَـن المخطـئ.. فقـط باتـت موقنـةً بأنهـا لم تعـد تسـتطيع التحمـل..

أغمضـت عينيْهـا في ألمٍ وهـي تسـحب الغطـاء فـوق وجههـا، ابتسـمت وهـي تسـتعد للقائهـا المهـم في الغـد.. لقائهـا مـع "هشـام وهـدان"..

***

... اليَوْمُ الثَّالِثُ...

القلبُ يُخفقُ بالحبِّ مرَّةً واحدةً..

لشخصٍ واحدٍ فقط..

وما عدا ذلك، ليس سوى محاولاتٍ بائسةٍ للنسيان..

(٧)

شعر المقدم "معتز الشامي" أنه لم ينم سوى خمس دقائق فقط حين سمع صوت نغمة هاتفه المحمول تتردد في تتابعٍ سخيفٍ.. بيدٍ متكاسلةٍ تحسَّس الكومود بجوار فراشه حتى وجد المحمول، بصعوبةٍ فتح عينيه قدرًا يسيرًا حتى رأى وميض اسم المتصل على الشاشة.. فضغط زر الإجابة..

جاءه صوت "عمرو" على الجانب الآخر يقول في مرحٍ:

- صباح الفل يا باشا.
- صباح الخير يا عمرو.
- سيادتك لسه نايم ولا إيه؟! إحنا بقينا الضهر.
- هقوم حالًا.

- طيب يا باشا علشان حضَّرت لك الملف بتاع إيمان الشهاوي، وكمان مدحت حمودة في الطريق.

- نص ساعة وأكون عندك.

أغلق "معتز" هاتفه المحمول وما زالت عيناه تقاومان النعاس.. كانت تلك المرة الأولى التي يخلد فيها إلى النوم منذ أن تولى قضية مقتل "صفاء عبدالحميد".. نهض من فراشه متثاقلًا، كان يشعر برغبةٍ شديدةٍ في الحصول على قسطٍ أكبر من الراحة.. إلا أن انضباطه وتعلقه الشديد بعمله كانا أكبر من رغبته.. ارتدى ملابسه على عجلٍ وأمسك بمفاتيحه يهمُّ بمغادرة الشقة، لكنه تذكر شيئًا فأمسك هاتفه يطلب رقمًا..

جاءه الرد بعد فترةٍ وجيزةٍ، فقال متصنعًا الودَّ:

- صباح الخير يا طنط، أخبار صحتك إيه؟

- أهلًا يا معتز.

- أُمال فين يُمنى؟!

- يُمنى نايمة دلوقتي.

جزَّ "معتز" على أسنانه لكنه تمالك أعصابه سريعًا ثم قال في نبرةٍ حاول قدر المستطاع أن يُحافظ على هدوئها:

- طيب، بعد إذنك إديني أدهم أكلمه.

ساد الصمت بعدها لفترةٍ، ثم جاء صوت ابنه على الطرف الآخر يقول في مرحٍ:

- كل سنة وإنت طيب يا بابي.

انتبه إلى أن اليوم يوافق يوم ميلاده.. حدَّث نفسه سرًّا: "حتى دي كمان بقيت بنساها".. لكنه تمالك نفسه سريعًا وقال:

- وإنت طيب يا حبيب قلب بابي.
- بقى عندك كام سنة، ٢٠؟
- لا يا حبيبي ٣٩.
- طيب إنت مش هاتجيبلي تورته علشان عيد ميلادك.
- حاضر يا حبيبي، هاكلم مامي وأتفق معاها علشان نحتفل كلنا مع بعض.
- بس أوعى تتأخر.
- هخلص الشغل وأجيلك على طول.

ساد الصمت برهةً، ثم قطعه صوت "أدهم" يقول في براءةٍ:

- بـابي، هـو إحنـا مـش هنرجـع البيـت بتاعنـا بقـى؟!.. أنـا أوضتـي وحشـتني.

أغمض "معتز" عينيْه في ألمٍ، ثم قال:

- قريب يا حبيبي، قريب.

- طيب ياللا باي بقى، تحب تكلم مامي؟

هـمَّ "معتـز" بالموافقـة عـلى طلـب ابنـه لكـن كبريـاءه منعـه، فأجـاب:

- لا يا حبيبي سلملي عليها بس.

أنهـى المكالمـة ثـم غـادر الشـقة محـاولًا إغـلاق بـاب الذكريـات التـي كانـت تـصرُّ عـلى تشـتيت ذهنـه.. تذكـر كيـف كان يعتـبر زوجتـه "يُمنـى الألفـي" حبـه الوحيـد.. في ذاك الوقـت حـين كان ضابطًـا صغـيرًا يُحـارب الدنيـا بأسرهـا حتـى يتمكـن مـن الفـوز بقلبهـا في معركـةٍ جمعتـه مـع ابـن خالتهـا رجـل الأعـمال بالوراثـة والعريـس اللقطـة..

كان الـصراعُ بينهـما عـلى الرغـم مـن ضراوتـه إلا أنـه كان يفتقـر إلى النديـة، فالأخـير لديـه كل مقومـات الحيـاة الهنيـة بالإضافـة لدعـم خالتـه أم يُمنـى الشـديد لـه.. أمـا هـو فلـم يكـن يملـك سـوى مسـتقبلٍ واعـدٍ، وبذلـة بيضـاء اللـون يلمـع فـوق كتفيهـا نجمتـان ذهبيتـان..

تذكـر أنـه لم ينـل منـه اليـأسُ، وبـذل كل جهـده لإقنـاع والدهـا بالموافقـة.. كان الرجـل متحيـزًا لجانبـه بحكـم طبيعـة عملهـما المشـتركة، كان رحمـه اللـه لـواء شرطـة.. في النهايـة وأمـام إصرار "يُمنى" ومسـاعدة أبيهـا لم تجـد أمهـا مفـرًا مـن الموافقـة عـلى مضـضٍ عـلى الرغـم مـن حالتـه الماديـة المتردية آنـذاك.. حتـى أنهـما تزوجـا في بيـت والدهـا أول الأمـر..

بعـد فـترةٍ قليلـةٍ توسـط لـه والدهـا لنقلـه للعمـل في المباحـث، ومـن يومهـا لمـع نجمـه وبـزغ اسـمه كواحـدٍ مـن أكفـأ ضبـاط المباحـث.. ومنـذ ذلـك الحـين آمـن أن عملـه هـو وثيقـة تأمـين مسـتقبله ومسـتقبل ابنـه "أدهـم".. لكـن ذلـك كان عـلى حسـاب وقـت أسرتـه الصغـيرة، وهـو مـا لم تتحملـه "يُمنـى" أبـدًا فـما لبثـت بعـد أن تـوفي والدهـا أن تركـت منزلهـما الصغـير وعـادت لأحضـان أمهـا طالبـة الانفصـال..

- باشا، باشا.. وصلنا القسم سعادتك.

أفاقـه صـوتُ السـائق مـن شروده فدخـل لمكتبـه سريعًـا محـاولًا تجنـب الحديـث مـع أي شـخص.. كان مزاجـه متعكـرًا بعـد أن أصابـه الحـزنُ لمـا أخـبره بـه "أدهـم"، كان مصـدر حزنـه هـو شـعوره بالذنـب مـن كونـه سـبب ألم وغـم ابنـه.. وجـد عـلى مكتبـه ملـف التحريـات الخـاص بالقتيلـة الثانيـة

"إيمان الشهاوي".. طلب كوبًا من القهوة وأشعل سيجارة نفث دخانها في عصبيةٍ بينما كان يقلب في صفحات الملف:

"إيمان محمود الشهاوي".. وشهرتها بين أصدقائها "إيمي".. أنثى، مسلمة، مواليد الإسكندرية سنة ١٩٧٥.. متزوجة من "ياسر شعبان الدسوقي" يعمل موظف بأرشيف سنترال المنشية.. تركت الإسكندرية كي تلتحق بالعمل في واحدٍ من أكبر فنادق القاهرة، تدرَّجت في الوظائف حتى أصبحت مديرةً للعَلاقات العامة.. لها ابن وحيد يقيم في الاسكندرية مع والده..

تفيد مصادرنا أن القتيلة كانت لها عَلاقات كثيرةٌ متعددةٌ بحكم طبيعة عملها، مشهورٌ عنها تحررها الزائد وميلها للسهر وحضور الحفلات.. لا تلقي بالًا لكلام الناس أو حديثهم عنها.. تقيم بمفردها في شقة إيجار جديد بحي المهندسين، تعيش في مستوى أعلى بكثيرٍ من المستوى الذي يمكن أن توفره لها وظيفتها أو دخل زوجها المتواضع.. تمتلك سيارة بيجو فخمة أحدث موديل، معروف عنها أنها مسرفةٌ حد الجنون في اقتناء الملابس والمجوهرات..

قالت بعض زميلاتها في العمل إنها كانت ترى أن هدف المرأة في الحياة ينحصر في أن تستغل الرجال، لا شيء أكثر من ذلك.. كانت تعتقد أن أقصى ما يمكن أن

تقدمـه المـرأة للرجـل هـو جسـدها، لـذا كان واجبًـا عليهـا أن تسـاوم عليـه جيـدًا حتـى تحصـل عـلى أكـبر ثمـنٍ.. قالـت أخريـات إنهـا كانـت بارعـةً في التعامـل مـع الرجـال، نجحـت في اسـتخدامهم ليوفـروا لهـا هـذا النمـط المـترف مـن الحيـاة الهنيـة التـي كانـت تعيشـها..

لا توجـد عَلاقـةٌ واضحـةٌ تربطهـا بالمجنـي عليهـا "صفـاء عبـد الحميـد"، لكـن يُحتمـل أنهـا كانـت تعرفهـا بحكـم عملهـا في مجـال الفنـادق..

- حمدا لله على السلامة يا باشا.

رفع "معتز" عينيه عن التقرير، وقال بهدوءٍ:

- صباح الخير يا عمرو.
- صبـاح الخـير إيـه يـا باشـا!!، دي السـاعة داخلـة عـلى ٣ العـصر.

تجاهـل "معتـز" ملاحظـة "عمـرو" الأخـيرة، وقـال بنـبرةٍ رسـميةٍ:

- فيه جديد عندك؟
- تمام يا باشا، مدحت حمودة وصل سيادتك.
- خليه يدخل، وإنت كمان خليك حاضر معانا.

- أوامرك يا باشا.

تناول "معتز" رشفةً من كوب القهوة أمامه فامتعض وجهه حين وجدها بردت.. أشعل سيجارةً جديدةً وهو يُعد نفسه للقاء طليق القتيلة الأولى، "مدحت حمودة"..

كان "معتز" قد استعد جيدًا لهذا اللقاء وأجرى التحريات اللازمة عن "مدحت"، توصل لمعلوماتٍ مفادها أنه شخصٌ متشعب العَلاقات واسع النفوذ والاتصالات بحكم عمله.. حتى إن شبكة عَلاقاته قد تجاوزت القطر المصري لتصلَ إلى حدود الخليج العربي..

و"مدحت" لم يكن من الشواذ الذين يُجاهرون بميولهم، بل كان يضع حاجزًا صارمًا يمنع الغير من رفع الكلفة بينهم وبينه بل ويُجبرهم على معاملته بكل احترامٍ.. ربما كان السبب في ذلك يرجع لدراسته وإقامته الطويلة فترة شبابه في باريس، والتي أصبح بعدها لا يجد عيبًا أو نقصانًا في ميوله المختلفة.. تذكر صورته التي انطبعت في ذهنه حينما كان يراه على شاشة التلفزيون يقرأ نشرة الأخبار الفرنسية وتلك اللثغة الواضحة لديه في حرف الراء..

انتبه على صوت "عمرو" يقول بعد أن غمز بعينه في إشارةٍ فهمها "معتز":

- مدحت بيه حمودة يا باشا.

أمسك "معتز" بهاتفه متظاهرًا بانشغاله في مكالمةٍ مهمةٍ وهو يشير بيده إليهما بالدخول، كان يريد فسحةً من الوقت يتأمل فيها ملامح "مدحت" وتعبيرات وجهه قبل أن يبدأ في استجوابه..

كان من الصعب على من يرى "مدحت" أن يعرف حقيقة عمره على الرغم من سنوات عمره التي تجاوزت الستين.. كل شيءٍ فيه مرسومٌ بدقةٍ عجيبةٍ، كأنه نجمٌ من نجوم هوليوود في الخمسينيات.. حتى إنك قد تظن أنه عدَّ شعره الفضي قبل أن يرتب كل شعرةٍ بجوار أختها في دقةٍ متناهيةٍ.. طويل القامة عريض الصدر، له رأس ضخمٌ وملامح وجه دقيقة.. بشرته القمحية ناعمة شمعية، تلمع لمعانًا غريبًا.. يرتدي بذلة سماوية اللون إيطالية التصميم تبرز رشاقة قوامه، يبرز من تحتها قميصٌ كحلي مفتوحة أزراره قليلًا لتسمح بظهور وشاح حريري وردي اللون يُحيط برقبته الطويلة.. فقط بعض التجاعيد الخفيفة خطت لنفسها طريقًا أسفل عينيه الضيقتين، اللتيْن تطويان داخلهما نظراتٍ صارمةً تدل على نمط حياة صاحبها..

"شرفتنا يا مدحت بيه"، قالها "معتز" بعد أن تظاهر بإنهاء مكالمته المزعومة..

مدَّ يده يُصافح "مدحت"، الذي صافحه في قوةٍ أثارت دهشته.. بعد فترةٍ من الصمت طلب خلالها "معتز" كوبين من القهوة، اعتدل في مقعده ثم قال:

- الحقيقة مش عارف يا مدحت بيه أعزي حضرتك واللا أقول إيه.

- مش فاهم قصدك إيه يا حضرة الضابط؟!

قالها "مدحت" وهو يضغط على حروف كلماته، تجاوز "معتز" طريقته في الكلام وأكمل:

- أقصد أن القتيلة يعني كانت طليقتك وكان لها علاقات.....

قاطعه "مدحت" في حدةٍ:

- أنا ماسمحلكش تتكلم عن صفاء كده، في حاجة اسمها حياة شخصية.. مش معنى إنها شخصية عامة إن حياتها تكون مشاع لأي حد يجيب سيرتها.

- حلو جدًّا الكلام ده.. طيب سعادتك بقى شفت القتيلة إمتى آخر مرة؟

- بقالي فترة طويلة ما شفتهاش.

- غريبة!!

- الله يرحمها ما كانتش عاوزة تقابلني.

- ده علشان سبب طلاقكوا؟! واللا فيه سبب تاني؟!

رمقه "مدحت" في حدةٍ، لكنه تمالك نفسه سريعًا، ثم أجاب بنبرةٍ مستفزةٍ:

- على حد علمي من غير سبب، لكن لو عاوز تعرف حاجة تانية ممكن تسألها.

اغتاظ "معتز" لحديثه الفظ، فقرر مهاجمته:

- البواب بيقول إنك كنت دائمًا بتتردد على شقتها، حتى بعد الطلاق.. إيه رأيك في الكلام ده؟

- مضبوط، أنا فعلًا كنت بروحلها كتير علشان نرجع لبعض، لكنها كانت بترفض تقابلني زي ما قلت لك.

- أُمال كنت بتفضل واقف على الباب؟

- لأ طبعًا، كانت داليا بتفتحلي وتقولي إن صفاء مش عاوزة تشوفني. لكن أنا دائمًا كنت بطمئن عليها من بعيد.

- كنت فين ليلة الحادثة؟

- كنت مع بعض أصدقائي، وبعدين صفاء دي كانت بنتي قبل ما تكون حبيبتي ومراتي.

صمت "مدحت" قليلًا بعد عبارته الأخيرة، ثم أردف بصوتٍ متهدجٍ:

- الله يرحمها.

انهار بعدها في البكاء، وانهارت معه كل الحواجز التي كان يُحيط بها شخصيته فبدا رقيقًا لينًا للغاية حين أخذ ينشج كالنساء.. تبادل "معتز" و"عمرو" النظرات لوهلةٍ، ثم قام الأخير بمناولة "مدحت" منديلًا ورقيًّا ليجفف دموعه.. هزَّ "معتز" رأسه ثم قال مخاطبًا "مدحت":

- شد حيلك يا مدحت بيه، مش كده.

لم يرد "مدحت" واكتفى بإيماءةٍ بسيطةٍ من رأسه، فأردف "معتز" متسائلًا:

- المرحومة كان ليها أعداء؟

- إطلاقًا دي كانت زي النسمة، كل الناس كانت بتحبها.

- سمعت اسم إيمان الشهاوي قبل كده؟

- إطلاقًا.

- معلش يا مدحت بيه هتقل عليك شوية بسؤال أخير.

- اتفضل!

- المرحومة كانت بتتعالج نفسي مش كده؟
- مضبوط، بعد الطلاق على طول. المسكينة ما قدرتش تستحمل الصدمة فانهارت تمامًا وأنا حجزت لها....

قاطعه "معتز" في لهفةٍ:

- عند مين يا مدحت بيه؟! مين اللي كان بيعالجها؟!
- في مصحة (وايت سيركل).

تبادل "معتز" و"عمرو" نظرات الحيرة، فبادر "مدحت" بالقول:

- دي أشهر منتجع نفسي في الشرق الأوسط دلوقتي، وصاحبها دكتور دارس في أوروبا أكيد سمعت عنه، الدكتور هشام وهدان.

***

غادر "أكرم" منزله بمصر الجديدة قبل الثانية عشرة ظهرًا بدقائق قليلةٍ، متوجهًا لعيادته كعادته في الفترة الأخيرة.. لم يكن لديه مكانٌ آخر يتوجه إليه، كانت رغبته عارمةً في مغادرة المنزل والأصوات والكوابيس..

اصطفت سيارته في طابورٍ طويلٍ لا نهاية له من السيارات بطريق صلاح سالم، كان الزحام شديدًا هذا

اليـوم بسـبب الـبِرك الموحلـة التـي سـبَّبتها الأمطـارُ الغزيـرة.. تأفـف في ملـلٍ وهـو يعبـث بمفتـاح جهـاز الراديـو في سـيارته، أتـاه صـوتُ المذيعـة تُعلـن بنـبرةٍ متكلفـةٍ عـن نهايـة موجـز الأخبـار وتخـبره باسـتمرار الموجـة البـاردة الممطـرة لنهايـة الأسـبوع.. لمـح بعينيْـه شـعاعًا مـن الشـمس يُحـاول اخـتراق السـحب المتكاثفـة في السـماء فأغلـق الراديـو متمتـمًا في ضيقٍ:

"أفلح إن صدق"..

كان مزاجـهُ متعكـرًا منـذ الصبـاح الباكـر، لا يريـد تكـرار زيارتـه لعيـادة "هشـام".. إلا أنـه يعلـم بحالتـه النفسـية السـيئة، يعلـم بحاجتـه إلى المسـاعدة النفسـية أكـثر مـن أي وقـتٍ سـبق.. لكـن مـا أثـار حنقـه حقًّـا كان سـلوك "ليـلى"..

"ألم تجد سوى هشام لتلجأ إليه؟!"، حدَّث نفسه..

لم يكـن يريـد افتعـال المشـاكل معهـا يكفيهـا مـا هـي فيـه.. نفـخ في سـأمٍ حـين رأى مطلـع كوبـري أكتوبـر وقـد أصابـه شـللٌ مـروري تـام.. تحـرَّك بسـيارته أسـفل الكوبـري إلى ميـدان العباسـية وغمـرة، ثـم أشـعل سـيجارته.. نفـث مـع دخانهـا غضبَـه وحنقـه، معهـا هـدأت أعصابـه قليـلًا.. إلا أن الأفـكار والذكريـات أخـذت تتداخـل في نفسـه..

فكَّر في كل تلك اللحظات التي لن تعودَ ثانيةً، شعر بأنه نهبُ عاصفةٍ، مرهقٌ بعبء الندم والإحساس بالذنب.. لم يكن على ما يُرام بعد أن أصابته تلك الغصة الموجعةُ في حلقه، ثقل ذهنه من تتابع صور ابنته "فريدة" أمامه.. تذكر كل شيءٍ، واشتاق لكل شيء.. لمسِتها الطفولية ونعومة خديها.. أول محاولةٍ لها للمشي، أول كلمة نطق بها لسانُها.. يديْها الصغيرتيْن اللتيْن كانت تحركهما في كل اتجاهٍ قبل أن تستسلم للنوم.. كان يستمتعُ في ألمٍ بتذكر كل ما غاب عنه للأبد، كأنه يجلد ذاته..

دمعت عيناه وهو يذكر تلك الليلة التي حمل فيها "فريدة" بين يديْه للمرة الأولى في مستشفى الولادة.. كان متأثرًا للغاية، خجلًا لكونه كان يرفض الإنجاب.. كان يرى أن إنجاب المزيد من الأطفال في هذا العالم البائس ظلمٌ فادحٌ لهم..

"كم كنت أحمق"، غمغم في حزنٍ..

داهمته الذكرياتُ بقوةٍ فرأى تمامًا ما شاهده آنذاك.. طفلة صغيرة جدًّا متدثرة بغطاءٍ قطني أنيق، أصرَّت "ليلى" على شرائه قبل ولادتها.. لها وجه متغضن وعينان مغمضتان.. تُحرك يديها الصغيرتيْن في كل الاتجاهات.. في تلك اللحظة لم يكن يعرف أنها ستشغل يومًا كل تلك

المكانة في قلبه.. وأن تلك المخلوقة الصغيرة ستغدو أهم عنده من نفسه.. لم يكن يتخيل أن مجرد وجودها في حياته سيمنحه كل هذا القدر من الفرح.. فجأة فتحت الصغيرة عينيْها ونظرت نحوه بقوةٍ، كأنها كانت تبلغه برسالةٍ مفادها أنها في حاجةٍ إليه.. سالت دموعه واعترته مشاعر قوية، استحوذ عليه حبٌّ لا حدود له.. أغمض عينيْه في ألمٍ حين تذكر أن فقدانها قد غيَّر مجرى حياته إلى الأبد..

"يا حمااااار.."

أفاق من نوبة ذكرياته وشجونه على تلك الصيحة، وصوت فرامل حادة إلى جواره.. انتبه لكونه كاد أن يتخطى الإشارة الحمراء لميدان التحرير.. هزَّ رأسه بقوةٍ رافعًا يده بالاعتذار وهو يرمي بنظراته صوب عسكري المرور، الذي سرعان ما أخذ يُدون رقم سيارته في دفتر المخالفات المتخم عن آخره..

تلفت حوله كأنه يُحاول العودة لعالم الواقع، تأمل لبضعِ ثوان حركة المرور المنتظمة في الميدان.. القادمين من عبد المنعم رياض، الذاهبين تجاه مسجد عمر مكرم.. العابرين من البوابة الحديدية الضخمة عند القصر العيني، المتجهين إلى طلعت حرب..

دقَّ بأصابعـه في عصبيـةٍ عـلى مِقـود السـيارة، كان لا يـزال يشـعر بتعكـر مزاجـه عنـد مـروره في هـذا الميـدان مـن جديـدٍ.. فـما جـرى فيـه لـن ينمحي مـن ذاكرتـه أبـدًا.. الفرحة التـي شـعر بهـا حـين خالـط النـاس، إحساسـه بالمسـاواة بـين الجميـع.. المبيـت في العـراء في عـزِّ الشـتاء، تبـادل الطعـام بـين الـكل.. أصـوات الأذان وأجـراس الكنائـس، تراتيـل الغنـاء وهمهـمات الشـعراء.. النقاشـات السياسـية الصاخبـة، والنكات البذيئـة السـاخرة.. نقـل الجرحـى والمصابـين.. مـات كثـيرون في سـبيل حلـمٍ لم يـروا تحقيقـه..

رأى ضـوء الإشـارة يخـضر فضغـط بقدمـه في قـوةٍ عـلى دواسـة البنزيـن، انطلقـت سـيارته سريعًـا.. مغـادرة الميـدان يمينًـا في اتجـاه الدقـي، كأنـه يفـرُّ مـن تلـك الذكـرى التـي مـا عـادت بالنسـبة لـه سـعيدةً.. لم يعـد يذكـر مـا الـذي دفعـه للنـزول إلى الميـدان آنـذاك، لكنـه نـزل.. ومنـذ ذلـك الحـين تغـير بداخلـه شيء لا يسـتطيع تحديـده، تغـير إلى الأبـد..

هـزَّ رأسَـه في أسـفٍ حـين تذكـر مـا يقولـه النـاس الآن مـن أن الحيـاة قـد عـادت إلى مجراهـا الطبيعـي، ثـم حـدَّث نفسـه في حنـق:

- لم يعد شيء كما كان أبدًا.

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ حزينةٌ وهو يُحدث نفسَه في سخريةٍ مريرةٍ:

- لنتخلص من الماضي بك يا صباح، يا حديقتي الرائقة.

***

(٨)

جلستْ "ليلى" أمام مرآتها على غير عادتها في الفترة الأخيرة، تتزين للقاء "هشام وهدان".. كان قد حادثها مرارًا صباح اليوم، لكنها أخبرته أن ينتظر حتى يُغادر "أكرم" البيت.. كانت عيناها الواسعتان الغامقتان تلمعان، لكنه لم يكن لمعانًا يدل على سعادةٍ أو فرحٍ.. بل كان ينم عن شعورٍ فظيعٍ بالضيق والضجر، يكاد هذا الشعور يقفز خارجًا من بين أهدابها الطويلة ليسيطر على ملامح وجهها القمحي بأكملها..

نظرت مليًّا لانعكاس صورتها في المرآة أمامها.. كانت تعلم جيدًا أنها جذابةٌ، لكن ما كان يؤلمها أن أحدًا لم يقل عنها أبدًا إنها جميلة.. كانت تظن أن هذا هو السبب في أن حياتها كانت وما زالت رتيبة، لم تعرف أحدًا في حياتها سوى "أكرم"..

"ربما لو كنتُ شقراء أو من صاحبات الشعر الأحمر لكان حظي مختلفًا".. هكذا حدَّثت نفسها في مرارةٍ..

مطَّت شفتيْها الممتلئتين في قرفٍ حين رأت تلك الظلال الرفيعة أسفل عينيها، والتي كانت تبدو أكثر وضوحًا خلال الليل.. كأنما أصابها الملل من هذه الصورة التي باتت تراها دومًا، وتذكرها بسنوات عمرها الأربعين.. مدَّت يدها تلتقط مشطها ذا الأسنان الواسعة، أخذت تمشط شعرها الأسود الطويل اللامع الذي انسدل على كتفيها في نعومةٍ.. كانت تُمشطه بحدةٍ وعنفٍ لا يتناسبان مع نعومته، كأنها تريد نزعه من فوق رأسها.. كما باتت تريد نزع نفسها من حياتها بأكملها..

ابتسمت في سخريةٍ حين تذكرت كيف كانت تحب "أكرم" فيما مضى قبل وفاة "فريدة"، كانت لا تتصور الحياة بدون وجوده.. سرح خيالها بعيدًا حين داعبته ذكريات الماضي البعيد وأيام العباسية..

تذكرت ذلك اليوم الذي عرفت فيه من أمها بقدوم "أكرم" للإقامة في شقة عمته، جارتهم التي تقطن في الشقة الملاصقة لبابهم.. كان وقتها صبيًّا لم يتجاوز ربيعه الخامس عشر، كانت هي في الثالثة عشرة.. سمعت من أمها آنذاك أن والده ضابط كبير في الجيش وأنه انفصل

عـن والدتـه، ولم يجـد سـوى أختـه ليأتمنهـا عـلى تربيـة ولـده الوحيـد.. تركـت تلـك الحكايـة في نفسـها أثـرًا عميقًـا، خليطًـا عجيبًـا مـن الشـعور بالشـفقة عليـه والإحسـاس بالمسـئولية عنـه.. كانـت تـرى أن إبعـاد صبـي عـن أحضـان أمـه في هـذه السـن المبكـرة ظلـم كبـير..

لكـن كانـت صدمتهـا مماثلـةً حـين مـات أبوهـا، وتركهـا وإخوتهـا في رعايـة أمهـا ربـة المنـزل.. تأثـرت حالتهـم الماديـة كثـيرًا برحيـل عائـل الأسرة ورجلهـا، لم تجـد الأم بـدًّا مـن العمـل في حياكـة ملابـس جيرانهـا في العـمارة.. ثـم توسَّـع عملهـا ليشـمل سـكان الشـارع حتـى باتـت مشـهورةً في نطـاق الحـي بأكملـه..

تـرك عمـل الأم في نفسـيتها شرخًـا عميقًـا، ونظـرةً منكسـرةً لم تتخلـص منهـا حتـى الآن.. كانـت وحيـدةً دائمًـا بـلا صديقاتٍ لأنهـن كـن يأنفـن من مصادقـة ابنـة الخياطـة.. وحـده "أكرم" مـن كان يحوطهـا بابتسـامته العريضـة الواسـعة.. كانـت تلـك الابتسـامة بالنسـبة لهـا آنـذاك هـي الدنيـا ومـا عليهـا..

أحبتـه مـن أول نظـرةٍ.. كانـت تعلـم أن الفتـاة إذا مـا أحبَّـت فإنهـا تندفـع وراء حبهـا في تهـورٍ، تفتـح كل الأبـواب أمـام حبيبهـا.. لكنهـا وجـدت الأمـر مـع "أكـرم" مختلفًـا.. كان يُعاملهـا برفـقٍ واحـترامٍ، كأنـه مسـئولٌ عنهـا.. شـيئًا فشـيئًا

بـدأت تحملـه مسـئوليتها بالفعـل.. كانـت تسـأله في اختيـار ملابسـها، تسـتأذنه قبـل مصاحبـة زميلاتهـا.. حتـى عندمـا كانـت تخـرج مـع أمهـا كانـت تسـتأذنه.. رضخـت لرأيـه دون مناقشـةٍ.. سـاعدت أزمـة أسرتهـا الماليـة حبهـا، لم تجـد أمهـا مفـرًّا مـن السـماح لـ "أكـرم" بالمذاكـرة لابنتهـا خاصـةً أنـه كان متفوقًـا في دراسـته والتحـق بكليـة الطـب ثـم تخصـص في قسـم النفسـية والعصبيـة.. سـاعدها هـذا القـرب منـه عـلى التفـوق أيضًـا.. والتحقـت مثلـه بنفـس الكليـة، ثـم تخصصـت في طـب الأطفـال..

مضـت حياتهـما أيـام الجامعـة عـلى وتـيرةٍ واحـدةٍ، هـي تُحبـه وتعمـل كل جهدهـا لإرضائـه وهـو يتحمـل مسـئوليتها كأبٍ أو أخٍ.. حتـى صارحتـه ذات يـومٍ بحبهـا ففاجأهـا باعتـذارٍ مهـذبٍ، أخبرهـا أنـه غـير مسـتعدٍّ للارتبـاط.. بـرَّر لهـا اعتـذاره برغبتـه في اللهـو كسـائر الشـباب، ولأنـه يحترمهـا ويقدرهـا فلـن يتمكـن مـن اللهـو معهـا.. صدمتهـا إجابتـه فأصابهـا المـرضُ لفـترةٍ.. ابتعـدت خلالهـا عنـه تمامًـا، حاولـت نسـيانه لكـن صورتـه كانـت لا تُفـارق خيالهـا أبـدًا..

مـرَّت سـنواتٌ ومـا زال "أكـرم" مسـتمرًّا في لهـوه وعبثـه، وهـي خائبـةٌ في التخلـص مـن صورتـه التـي لا تفارقهـا لحظـةً واحـدةً حتـى بعـد تخرجهـا بتقديـر امتيـاز وتعيينهـا معيـدةً

بالجامعة.. كثيرًا ما تردد في صدرها سؤالٌ لم تتمكن من الإجابة عنه:

"لماذا لا تتزوج هشام عوضًا عن أكرم؟"..

كانت تعلم يقينًا أن "هشام وهدان" زميل "أكرم" في الدراسة يهيم بحبها، كانت نظراته وتصرفاته دائمًا ما تفضحه.. لكن قلبها أبى أن يُساعدها، فأخذت تُخطط لاستعادة "أكرم" مرةً أخرى..

درست شخصيته وحللتها جيدًا.. وجدته مغرورًا يريد أن يشعر أنه أقوى من أية فتاة، يرغب في السيطرة والاستحواذ على قلبها دون مقابلٍ.. وجدته غير مستقرٍّ، حياته عابثة كأي شاب في مثل ظروفه أرغمته الحياة على مفارقة حضن أمه وكنف أبيه.. حين حدَّدت علته بدأت على الفور في تنفيذ خطوات العلاج..

بدأت تُشبع غروره، تعمدت أن تكون هي الفتاة الأكثر جاذبيةً في أي مكانٍ يجمعهما.. لم تترك عاطفةً هادئةً كانت أو جامحةً إلا وسلطتها عليه.. حتى إنها كانت تتعمد أحيانًا إغاظته وإثارة غيرته حين كانت تسمح لـ "هشام وهدان" بتوصيلها من الجامعة حتى مدخل العمارة.. كانت تعلم بأن علاقتهما ليست جيدةً، "هشام" يغار من "أكرم" ويراه شابًّا ثريًّا مدللًا.. و"أكرم" ينظر إلى

"هشام" من علياء، ويراه غير جديرٍ بحمل لقب طبيب نفسي.. كثيرًا ما كان يُردد أمامها:

"كيف يحل عقد الناس ومشاكلهم من كانت حياته مليئةً بتراكيب النقص والدونية؟!"..

نجحت في سعيها بجدارةٍ فعاد "أكرم" يتقرب منها، لكنها كانت تتدلل عليه.. في نفس الوقت كانت تعلم أن الوقت قد حان لاتخاذ الخطوة الثانية.. أن تجعله مستقرًا، بمعنى أدق أن تربطه بجدول حياتها.. فسمحت له بمحادثتها من جديدٍ في الهاتف.. كان قد تخرَّج واستلم عمله في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية، فتح عيادته الخاصة في شقة أمه بالدقي.. بدأ يعتاد على مكالماتها، كان يكلمها قبل الذهاب للعمل، وفي أثنائه وفور عودته.. وكثيرًا ما كان يُحادثها قبل نومه..

أصبحت حياته مستقرةً، منتظمةً في روتينٍ يومي يتطابق مع جدول يومها.. لم يكن عصيًّا عليها بعد ذلك أن تُوحي له بالتقدم للزواج بعد حصولها على شهادة الدكتوراه..

أخرجها من بئر ذكرياتها الدفينة صوتُ جرس الباب، أخبرها حدسها أنه "هشام".. قامت واقفةً بطولها أمام المرآة، ودارت حول نفسها دورتين.. تتأمل هيئتها للمرة

الأخيرة قبل أن تلقى "هشام".. ابتسمت حين رأت قوامها المتناسق الذي تمكنت من الحفاظ عليه على الرغم من تقدمها في العمر.. ثم تقدَّمت خارج الغرفة في اتجاه باب الشقة لتفتح له الباب..

وجدته كما هو، لم يتغير فيه شيء كأنها قد تركته بالأمس.. فقط باتت ملابسه أكثر تناسقًا وأناقة، وتلك اللحية الدوجلاس على وجهه ذكرتها على الفور بهيئة "أكرم" أيام الجامعة..

- إزيك يا ليلى.

أجابت بابتسامةٍ هادئةٍ، ثم تحركت جانبًا تُفسح له مجالًا للدخول.. دخل "هشام" والرهبة تملأ قلبه، خُيل إليه أنه يسير في حلمٍ انتظر تحقيقه طوال عمره.. هدوءٌ جميلٌ يُسيطر على أجواء البيت، آنيات الورود الصناعي موضوعةٌ في أناقةٍ ظاهرةٍ.. أثاثٌ كلاسيكي متراصٌّ في نظامٍ.. كل شيء في المكان يدل على شخصية صاحبته "ليلى"، تمامًا كما كان يتخيل..

تبعها كالمسحور حتى وصلا إلى الصالون، فجأة شعر بالضآلة حين رفع رأسه فرأى صورة زفاف "أكرم" و"ليلى" الضخمة تتوسط الحائط المقابل لمدخل الصالون.. أحس بشخصيته تضعف أمام نظرات "أكرم" الواثقة في الصورة،

ابتسامته الساخرة التي دومًا ما أثارت حنقه وودَّ معها لو لكمه فحطم أسنانه.. لم يكن البيت أفخم من بيته الذي كبَّده تأثيثه ثروة طائلة، لكنها كانت شخصية "أكرم" التي تملكت منه وسيطرت عليه.. كانت هي التي أشعرته بالرهبة منذ البداية..

أشاح بعينيْه بعيدًا عن الصورة ثم جلس على أريكة وثيرةٍ بعد أن أشارت إليه "ليلى" بيدها، جلست على مقعدٍ مجاورٍ له.. ساد الصمت بينهما فترة لم يرفع "هشام" خلالها عينيْه عنها، كان كالظمآن الذي وجد ماءً في الصحراء بعد بحثٍ مضنٍ وزمنٍ طويلٍ.. أخيرًا تغلب "هشام"على حاجز الصمت قائلًا في صوتٍ خافتٍ:

- لسه زي ما إنتي يا ليلى.

صمت قليلًا، ثم أردف هامسًا:

- حلوة.

لم تعقب، لكنها أرخت عينيها في خفرٍ وتورد خداها قليلًا.. شجعه ذلك على مواصلة الحديث فقال:

- مش قادر أصدق إننا لوحدنا أخيرًا.. تعرفي إني حاولت أشوفك، لكن ما كنتش عارف أوصلك.. حتى لما جبت رقمك من زمايلنا في الجامعة وكلمتك كتير، لكن ما

كنتيش بتردي.. لغاية لما كلمتيني ما صدقتش نفسي، كنت طاير من الفرحة حسيت زي ما أكون.....

- هشام أنا محتاجة لك دلوقتي أكتر من أي وقت.

قاطعته "ليلى" بصوتٍ خافتٍ فتشجع "هشام"، اقترب منها قليلًا وهو يقول:

- إللى تؤمري بيه، إنتي بس شاوري وأنا عليا التنفيذ.

صمتت ولم ترد، ازداد تورد خديها أكثر، فأردف "هشام" بنبرةٍ رقيقةٍ:

- مش هقولك إنت اللي فضلتيه عليا زمان، لأني عارف إن كل شيء نصيب.. لكن هقولك إنك مش لازم تعملي نفس الغلطة مرتين.

رفعت عينيْها الساهمتين نحوه، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ:

- تقصد إيه يا هشام؟

- قصدي إنك لازم تسيبيه، اطلبي منه الطلاق.. ولو ما وافقش أنا ممكن أخليكي تتطلقي غصب عنه.

- إزاي؟

- ده إنسان مختل، مش طبيعي.

- يعني إيه؟!
- لسه لغاية دلوقتي مقدرتش أحدد هعمل معاه إيه، لكن كل اللي أقدر أقوله أن عقدته أعمق بكتير من موضوع موت فريدة.
- مش عارفه يا هشام لكن الموضوع ده...
- مفيش حاجة اسمها مش عارفه، إنتِي هتطلقي منه وأنا هتجوزك.

***

طوال الطريقِ من قسم شرطة قصر النيل وحتى منزل عائلة "يُمنى" بالمنيل كان المقدم "معتز" مشغول الذهن.. يفكر بجديةٍ في أمر تلك القضية التي لم يعد لديه شاغلٌ سواها.. كان يعتبرها قضيةً مهمةً في مشواره الشرطي، خاصة مع الاهتمام الواضح بها من جانب قياداته سواء في المديرية أو الوزارة.. تذكر ما قاله له "عمرو" قُبيل مغادرته للقسم:

- داليا يا باشا، اتصلت بسيادتك وعاوزه تيجي تقابلك.

"آه، داليا، داليا"..

خبـط جبهتـه بكفـه وهـو يلعـن ذلـك التخبـط الـذي أصبح عليـه مؤخـرًا، أفـاق عـلى صـوت فرملـةٍ قويـةٍ، فالتفـت للسـائق يرمقـه بحـدةٍ، وقـال:

- قلة التركيز دي هتوديك في ستين داهية.

أشـعل سـيجارته وسرح ببـصره يتأمـل الطريـق، ومـع شروده تذكـر لقـاءه السـابق مـع "داليـا" ابنـة أخـت القتيلـة الأولى.. كانـت فتـاة فائقـة الجـمال، شـديدة الشـبه بخالتهـا.. أخبرتـه حينهـا أنهـا ترغـب في العمـل بالفـن، لكـن أهلهـا رفضـوا بشـدة فلجـأت لخالتهـا.. غـير أنهـا فوجئـت برفضهـا هـي الأخـرى، حتـى أنهـا لم تكمـل الإنصـات لهـا وقتئـذ.. أخبرتهـا أنهـا يجـب عليهـا الاهتـمام بتعليمهـا ومسـتقبلها، أعطتهـا مبلغًـا مـن المـال لتعطيـه لأمهـا.. منـذ ذلـك اليـوم أصبحـت "داليـا" تـتردد عليهـا كل فـترةٍ لتحصـل منهـا عـلى المصاريـف التـي لم يكـن والدهـا يتمكـن مـن التكفـل بهـا، ولا شيء أكـثر مـن ذلـك..

"مـا الـذي جـدَّ لديهـا لتطلـب لقـائي؟!"، حـدَّث "معتـز" نفسـه.

هـزَّ رأسـه باعـدًا عنـه التفكـير في العمـل حـين انتبـه إلى أنـه اقـترب مـن منـزل "يُمنـى".. التفـت للمقعـد الخلفـي

بالسيارة، ابتسم لرؤيته علبةً كرتونيةً عليها علامة "لابوار" التجارية.. حدَّث نفسه وهو يبتسم بيقينٍ:

- سيفرح أدهم بها، أكيد.

لكنه سرعان ما قطَّب جبينه حين تذكر أنه أخبر "عمرو" بالشراء من "لابوار" لأنه كان محل "يُمنى" المفضل.. هاجت مشاعره وتضاربت أحاسيسه حين فكَّر فيما وصل إليه حالهما.. لم يكن يتصور قط أن تصل أحاديثهما ذات يوم إلى هذه الدرجة من الجفاء والقسوة.. كيف يمكن لشخصين كانا مقربين لهذه الدرجة أن يتصرفا كغريبين؟!.. رمى بسيجارته من نافذة السيارة في حدةٍ وهو يتمتم في حنقٍ:

- أي أحمق كنتُ؟!.. بالطبع كان ذلك ممكنًا.

كل ما كان متوجبًا عليه فعله أن ينظر حوله فقط، فعمله كان هو السبب.. رغبته المحمومة في النجاح والارتقاء كانت هي السبب، إيمانه المترسخ في عقله منذ زمنٍ بعيدٍ بأن المضحين بجزءٍ من حياتهم العائلية كانوا وحدهم من يضمنون النجاح.. ذلك هو القانون غير المكتوب.. والثمن المطلوب دفعه ببساطةٍ هو استقراره العائلي.. وقد قبل ذلك عن طيب خاطر فلِمَ الشكوى الآن؟!..

"أدهم هو السبب".. حدَّث نفسه وقد لمعت الدموع في عينيه..

كان قد علم أنه يحيا حياةً مضطربةً بسبب انفصاله عن "يُمنى"، عرف من حماته ذات يوم أنه على الرغم من كون "أدهم" قد تخطى السابعة من عمره إلا أنه لا يزال يُبلل سريره أحيانًا.. منطويًا على نفسه في المدرسة، لا وجود للأصدقاء في حياته..

حوَّل هاتفه المحمول للوضع الصامت حين وصل أسفل العمارة، ضغط على الجرس بعد أن صعد السلم وهو يُرتب هندامه للقاء "أدهم".. و"يُمنى"..

طال وقوفه أمام باب الشقة حتى كاد أن يطرق الباب بكفه الغليظة، لكنه توقف حين فُتح الباب فجأةً بعنفٍ.. رسم على وجهه ابتسامةً مغتصبةً وقال بنبرةٍ متصنعةٍ:

- إزيك يا طنط؟

- معتز!! أهلًا.. ردَّت الحماة العجوز بجفاء وهي تلوي شفتها السفلى في ازدراء.

حدَّثته نفسه الأمَّارة بأن يُنادي سائقه من أسفل، ويصحبها معه في جولةٍ سريعةٍ بالقسم.. ابتسم حين تخيلها معلقةً أمامه من قدميْها.. دخل يزيحها بكتفه

عـن مدخـل الشـقة التـي يحفـظ أركانهـا عـن ظهـر قلـب، ثـم قـال بصـوتٍ مرتفـعٍ لتسـمعه "يُمنـى" و"أدهـم":

- أُمال فين أدهم، دا أنا جاي مخصوص علشانه.

انتبـه لمـن يتعلـق في رقبتـه مـن الخلـف وصـوت ضحكتـه التـي يعشـقها يرفـرف في أرجـاء روحـه.. سريعًـا وضـع علبـة التورتـة عـلى منضـدة قريبـة ثـم أمسـك بابنـه يقلبـه مـن فوق كتفـه، يُقبلـه في حنـانٍ بالـغٍ.. جلـس عـلى أريكـةٍ بالقـرب منـه وأجلـس "أدهـم" عـلى فخـذه ثـم أخـذ يُحدثـه ماسـحًا بكفـه عـلى رأسـه، لمـح حماتـه تُغـادر الصالـة وهـي تتمتـم بعبـارات الامتعـاض.. تجاهلهـا تمامًـا ومـضى يتحـدث مـع "أدهـم" عـن كل شيء وأي شيء، فقـط كان يرغـب في التحـدث معـه.. حدَّثـه "أدهـم" عـن رحلتـه المدرسـية لحديقـة الحيوانـات بانبهـارٍ شديدٍ..

الغريـب في هـذا اللقـاء أن "معتـز" لم يكـن أبـدًا يتحـدث مـع ابنـه بهـذا القـدر.. فقـط عندمـا أخذتـه "يُمنـى" وغـادرا المنـزل..

"إزيك يا معتز"..

كاد قلبـه أن ينخلـع مـن مكانـه حـين سـمع صوتهـا مجـددًا.. رفـع رأسـه نحوهـا وقـال بصـوتٍ خافـتٍ:

- ما سمعتكيش وإنتِ داخله.

وضعت "يُمنى" فنجانًا من القهوة الساخنة على المنضدة أمامه، حاول مساعدتها في وضعه لكنها سحبت يدها سريعًا.. كانا مرتبكيْن كعاشقيْن افترقا بسبب ظروف الحياة.. رشف من فنجانه رشفةً صغيرةً ثم تنهد في ارتياحٍ، كانت قهوتها هي الوحيدة القادرة على إصلاح مزاجه.. نظر نحوها ثم قال في نبرةٍ حانيةٍ:

- تعرفي إني لغاية دلوقتي مش عارف أشرب قهوة غير من إيدك.

لأول مرةٍ من مدةٍ طويلةٍ يرى شبح ابتسامةً خفيفةً على وجهها.. شجعته ابتسامتها، فأردف قائلًا:

- بقالنا كتير ما اتكلمناش مع بعض.

تراجعت "يُمنى" في مقعدها، انكمشت فيه ولم تعقب.. قرأ "معتز" في صفحة عينيها غيمة حزن.. كاد أن يسألها عنها، لكن "أدهم" ابتدره قائلًا:

- ماما قالت لي إنها مش مبسوطة هنا يا بابا.

- مالك يا يُمنى؟

- مفيش.

- أنا حافظك كويس، بلاش تخبي عليا.

التزمت "يُمنى" الصمت ولم ترد، فأكمل "معتز":

- يا يُمنى أنا بحاول أحافظ على البيت ده لغاية آخر لحظة، من فضلك بلاش نخسر اللي...

قاطعته "يُمنى" في حدةٍ، وقالت تغالب دموعها:

- تحافظ على البيت، إحنا خسرنا كل حاجة من وقت طويل يا حضرة المقدم.

تجاهل "معتز" حدتها، وقال بهدوءٍ:

- إيه إللي جابنا هنا يا يُمنى؟!

- إنت عارف كويس قوي إيه إللي جابني هنا.

- الله يرحمك يا عمي، لولا موتك ما كانش حاجة من دي.....

- مالكش دعوة بابا، المشكلة عندك إنت.. إنت مابقيتش الراجل إللي أنا حبيته وحاربت الدنيا كلها علشان أتجوزه.

- يعني خلاص مش بتحبيني.

- أنا ماقلتش كده.

- إنـتِ صحيـح عارفـاني مـن زمـان يـا يُمنـى، لكـن أنـا هتغـير.. حقيقـي هتغـير.

- أرجـوك يـا معتـز كفايـة كـده، إنـت شـغلك هـو حياتـك.. وإحنـا مجـرد جـزء بسـيط فيهـا.

- مـا هـو أنـا لازم أشـتغل، وبعديـن أنـا بشـتغل علشـان مـين؟.. مـش علشـان أقـدر أسـعدكوا!!

- إحنـا كنـا سـعداء يـا معتـز، كنـا سـعداء.. لكـن إنـت الـلي عمـرك مـا كنـت حاسـس بينـا.

أنهـت "يُمنـى" عبارتهـا الأخـيرة، ثم غـادرت الصالـة مسرعة وهـي تمسـح دموعهـا المنهمـرة.. حـاول "معتـز" اللحـاق بهـا لكـن حماتـه وقفـت أمامـه بعـد أن وضعـت يديهـا عـلى خصرهـا، تنظـر لـه في تحـدٍّ واضـحٍ.. تمالـك أعصابـه بصعوبـةٍ وربَّـت عـلى شَـعر "أدهـم"، ثـم انـصرف مغـادرًا..

عـلى سـلم العـمارة سـالت دمعـةٌ مـن عينـه حـين حـدَّث نفسـه قائـلًا:

"ليـس هـذا هـو النجـاح، إن اسـتمر إهـمالي لهـما فلـن أكـون ناجحًـا أبـدًا"..

***

(٩)

دخـل "أكـرم" إلى عيـادة "هشـام" عابسًـا، كان مجـرد تفكـيره في لقـاء الأخـير سـببًا كافيًـا لذلـك التجهـم الـذي ارتسـم عـلى قسـماته.. لكـن مكالمـة "ليـلى" معـه منـذ مـا يقـرب مـن السـاعة كان لهـا أثـرٌ كبـيرٌ في تراخيـه عـن تنفيـذ رأيـه، لم يكـن يريـد أن يزيـد حزنهـا.. فمنـذ وفـاة "فريـدة" لم يُحـاول فـرض رأيـه عليهـا أبـدًا..

بقـي منتظـرًا مُسَـاعِدة "هشـام" لفـترةٍ كي تسـمح لـه بالدخـول، ظـل خلالهـا يلعنـه في سره.. بعـد أن كان لقاؤه سـببًا في ذهـاب إحساسـه بالانتعـاش حينـما انتهـى لقـاؤه السـاخن مـع حديقتـه الغنـاء "صبـاح"..

"اتفضل يا أفندم".. جاءه صوت الـمُسَاعِدة..

لم يـرد واكتفـى بإيمـاءةٍ خفيفـةٍ مـن رأسـه، رسـم عـلى وجهـه تعبـيرًا جامـدًا بـدا معـه أقـرب لتمثـالٍ شـمعي ثـم

دخـل إلى غرفـة "هشـام" بخطـواتٍ واثقـةٍ.. فـور دخولـه أحـسَّ بعينـي "هشـام" تفتشـان في ملامحـه كأنـه يُحـاول أن يقـرأ أفـكاره، لكنـه ظـل محافظًـا عـلى جمـود وجهـه حتـى لا يتمكـن مـن قـراءة شيء خلالـه.. وقـف في منتصـف الغرفـة أمـام مكتـب "هشـام" بالضبـط ثـم قـال بنـبرةٍ واثقـةٍ:

- تحب أريح على الشيزلونج؟!.

صمت لولهةٍ ثم أطلق ضحكةً ساخرةً، وهو يقول:

- مش العيانين بتوعك بيناموا عليه برضه؟!

- مش مهم.

أجـاب "هشـام" بنـبرةٍ هادئـةٍ.. لكـن "أكـرم" واصـل اسـتفزازه وتحـرَّك نحـو الأريكـة ملقيًـا جسـده فوقهـا، وهـو يقـول متحديًـا:

- لأ، هنام على الشيزلونج.

تجاهـل "هشـام" تصرفاتـه العدوانيـة تمامًـا والتـزم الصمـت، فقـط أمسـك بمفكرتـه الصغـيرة وشرع يُـدون فيهـا بعـض الملاحظـات.. بعـد فـترةٍ مـن الصمـت قـال "أكـرم":

- تحب نبدأ منين؟

- زي ما تحب.

فـرد "أكـرم" سـاقيْه عـلى الأريكـة ثـم شـبَّك كفيـه فـوق صـدره وأغمـض عينيـه.. قـال بعـد فـترةٍ مـن الصمـت:

- أنـا بـس عـاوزك تبقـى عـارف إني مـش هقولـك عـلى كل حاجـة، لأني عـارف كل أسراري.. مـش محتـاج مسـاعدة منـك في اكتشـافها وإخراجهـا مـن عقـلي الباطـن.
- مـش كفايـة إنـك تعـرف كل أسرارك، المهـم إنـك تعـرف أي سر فيهـم هـو الـلي مسـبب لـك المشـكلة.

فتح "أكرم" عينيه، وقال محتدًا:

- مش إذا كان عندي مشكلة من الأساس!!
- أظـن إن دي حاجـة أنـا الـلي بحددهـا، مـش كـده يـا دكتـور أكـرم؟!

أغمـض "أكـرم" عينيْـه مـرةً أخـرى، وبـدا كأنـه يُعانـد نفسـه قبـل أن ينطـق بكلمـةٍ واحـدةٍ.. بعـد فـترةٍ قصـيرةٍ خـرج صوتـه هادئًـا بطيئًـا كأنـه يسـحب ذكرياتـه مـن جـبٍّ عميـقٍ، وقـال:

حـين انفصـل أبـواي كنـت في الخامسـة عـشرة مـن عمري.. انتقلـت للإقامـة مـع أمـي في بيـت والدهـا في البدايـة لكنـي لم أسـترح هنـاك.. سريعًـا اسـتعادني أبي وأخـذني عنـده، بالطبـع لم يكـن وقتـه يسـمح برعايتـي لانشـغاله الشـديد بحكـم عملـه.. أخـذني في أحـد الأيـام لعمتـي بالعباسـية.. كانـت

أرملةً لم تنجب، في هذا اليوم كانت عمتي شديدة اللطف بادية الحنان.. بالغت في تدليلي حتى إني أحسست نحوها بعاطفةٍ تُقارب ما أحسسته تجاه أمي.. حين عدنا لبيت أبي أخبرني بأنه يطلب رأيي في الانتقال للإقامة مع عمتي.. لم يكن في الحقيقة يُخيرني بل كان يبلغني.. ذهبتُ بعدها بأيامٍ قليلةٍ لبيت العباسية.. وكان هناك فارقٌ كبيرٌ بين أمي وعمتي.. كانت أمي مثقفةً، تحب الموسيقى والقراءة والسينما.. ربتني على أن أكون مثلها، كثيرًا ما ناقشتني في الكتب التي كانت تعطيها لي.. لا أذكر أنها في يومٍ قد ضربتني.. وكذا كان حال أبي فعلى الرغم من طبعه المتزمت، لكنه أبدًا لم يُمانع ما كانت تفعله أمي معي.. أما عند عمتي فقد كانت حياتي عبارةً عن مجموعةٍ من التعليمات والأوامر، ولا شيء أكثر من ذلك.. المفروض أن تفعل هذا، لا تفعل هذا.. هذا خطأ، ذاك عيبٌ.. سرعان ما فقدت قدرتي على الاحتمال وتحديتها.. وقفت أمي معي وأيضًا أبي، لكن ذلك لم يدم طويلًا.. فبعد أن ماتت أمي أصبحت عمتي شيئًا آخر..

سكت عندها "أكرم" ووقف سريعًا، ثم قال في حسمٍ:

- أظن كده كفاية النهاردة.

- كانت بتضربك؟

- مين دي؟!

- عمتك.

رمقه "أكرم" بغيظٍ ولم يرد على الفور، كان يعلم ما يُحاول "هشام" فعله.. كان يُحاول استدراجه إلى الكلام حين شعر أنه سيتوقف..

"طيب، لنر من سيتحمل للنهاية يا دكتور"..

حدَّث "أكرم" نفسه وهو يلقي بجسده على المقعد الوثير المواجه لمكتب "هشام".. تفرَّس في ملامحه جيدًا ثم قال:

- أنا عاوز أحكي عن حاجة تانية.

- خد راحتك، أنا هنا علشان أسمعك.

- متأكد؟!

تجاهله "هشام" كأنه لم يقل شيئًا وتظاهر بكتابة بعض الملاحظات في مفكرته، لكن "أكرم" لمح تلك الحركة التلقائية بتعديل وضع نظارته الطبية حين يكون متوترًا.. أدرك اقترابه من تحقيق مسعاه، فقال على الفور:

- عاوز أكلمك عن صباح.

- مين صباح؟!

- دي اللي كنت معاها قبل ما أجيلك على طول.

- معاها إزاي؟!

- كنت نايم معاها.

بدا على نظرات "هشام" شيء من الغيرة، لمحه "أكرم" فذكره بتلك الغيرة التي كان يشتمُّ رائحتها في صاحبه أيام الجامعة.. فقال:

- تحب أكمل؟

- طبعًا.

أراح "أكرم" ظهره على المقعد الوثير ووضع ساقًا على ساقٍ، ثم قال كأنه يحكي لنفسه:

لعلك تعلم في قرارة نفسك أني لا أرغب في مواصلة هذه الجلسات معك، لكنها "ليلى".. كان ذلك يُسبب لي ضغطًا كبيرًا، قرَّرت أن أُنفس عنه بلقاء "صباح".. ذهبت للعيادة بعد الظهيرة بقليلٍ، أتتني هي بعدها ببرهةٍ.. دخلت إلى الحمام كعادتها ثم خرجت كأنها تلمع، وقطرات الماء تنسابُ في لينٍ فوق بشرتها الناعمة.. شعرُها الغجري أكسبه البلل إغواءً مضاعفًا.. وقفت تنظر نحوي في غوايةٍ، ضامة شفتيها في قوةٍ.. اقتربت مني وتعلقت ذراعاها في رقبتي، كانت أنفاسُها هادئةً تمامًا.. أسبلت عينيها وأزالت ضمة شفتيها فبدتا ممتلئتين، كثمرتيْ فراولة ناضجتين تدعوانك

لالتهامهما.. حين ضممتها والتقمت شفتيْها شممت رائحة رائقة، كأنها رائحة طفلٍ صغيرٍ..

قاطع حديثه صوتُ هاتف المكتب يرنُّ في إلحاح.. رفع "هشام" سمَّاعته صارخًا في مُحدثه:

- أنا قلت مية مرة مفيش مكالمات لما يكون عندي جلسة.

صمت قليلًا ثم نظر نحو "أكرم" وهو ينصت لمحدثه في جديةٍ، قال بعد لحظاتٍ:

- معلش يا أكرم هعطلك معايا شوية.

- خير في إيه؟

"المقدم/ معتز الشامي يا دكتور".. جاءهما صوت المساعدة يقول في نبرةٍ رسميةٍ..

نهض "هشام" من خلف مكتبه يستقبل "معتز"، بينما بقي "أكرم" جالسًا فوق مقعده الوثير دون أن يظهر على وجهه أي تعبيرٍ.. صوَّب "معتز" نظرةً متسائلةً نحو "أكرم"، ثم قال مخاطبًا "هشام":

- أقدر أتكلم معاك على انفراد يا دكتور؟

- اتفضل يا أفندم، مفيش حد غريب.. ده صديقي وزميلي الدكتور أكرم رشدي.

صافحه "معتز" وهو يتفرَّس في ملامحه، ثم قال بعد أن جلس على المقعد المقابل لمقعد "أكرم":

- طيب عظيم، إذا كان كده بقى يا دكتور هشام حضرتك تعرف صفاء عبد الحميد؟

اهتزت عين "أكرم" اليسرى قليلًا حين سمع اسم "صفاء"، لكنه تمالك أعصابه سريعًا وتظاهر بكونه لم يسمع شيئًا.. بينما قال "هشام" على الفور:

- أكيد، هو في حد ميعرفش النجمة الجميلة.
- يبقى أكيد عارف إنها اتقتلت.
- سمعت إنها اتقتلت، لكن معرفش.. المعرفة دي بتكون يقين يا سيادة المقدم، لكن كلام الجرايد والفضائيات والحاجات دي إنت عارف إنها في الغالب بتكون تهويل ومش حقيقة.
- طيب يا دكتور، أنا عرفت إنها كانت بتتعالج عندك من فترة.
- ده صحيح.

رمقه "أكرم" بحدةٍ متعجبًا من كونه لم يعرف منها هذا الأمر من قبل.. لكنه تجاوز عن ذلك وأنصت لهما حين سمع "معتز" يسأل "هشام":

- هـي المرحومـة كانـت عندهـا إيـه بالضبـط لمـا كانـت عندكـم؟
- أبـدًا، شـوية أعـراض مـن بتاعـة الشـهرة.. اكتئـاب، فقدان شهية .
- بـس أنـا عرفـت إنهـا لجـأت لـك بعـد صدمتهـا في ميـول زوجهـا الشـاذة، ده حتـى مدحـت حمـودة هـو الـلي دفـع فاتورتكـم الكبـيرة.

تفرَّس "هشام" في وجهه لبرهةٍ، ثم قال في هدوءٍ:

- سـيادتك عـارف إن دي أسرار المـرضى بتوعـي، وأنـا لا أقـدر إني أفشـيها.
- لكـن ده تحقيـق في جريمـة قتـل، وأنـا فضَّلـت أتكلـم معـاك الأول قبـل مـا نجيـب إذن النيابـة والشـغل ده.. قلـت أكيـد واحـد زي حضرتـك هيتعـاون معانـا.
- طبعًا.
- طيـب يـا دكتـور، مـش عـاوز أضيـع وقتـك أكـتر مـن كـده.. ده رقمـي لـو افتكـرت حاجـة ممكـن تفيدنـا.....

قاطعه "هشام" قائلًا:

- طبعًا أكيد هبلغك.

أمعـن "معتـز" النظـر في عـين "هشـام" ثـم رسـم عـلى وجهـه ابتسـامةً علَّمتهـا لـه سـنواتُ خبرتـه بالعمـل في المباحـث، وهـو يقـول:

- أكيد.

ثـم التفـت نحـو "أكـرم" الـذي كان متظاهـرًا بالنظـر في شاشـة هاتفـه المحمـول، قـال يخاطبـه:

- وحضرتك كمان، معلش اسم حضرتك إيه تاني؟

- دكتور أكرم رشدي.

أجابـه "هشـام" بنفـاد صـبر ثـم رافقه حتـى غـادر الغرفة.. مـا أن أغلـق بابهـا حتـى التفـت نحـو "أكـرم" فوجـده ممتقـع الوجـه، بادره بالسـؤال:

- خير يا أكرم، مالك؟

- لا، مفيـش حاجـة.. تعبـان بـس شـوية، محتـاج أشـم شـوية هـوا.

- مش هنكمل طيِّب.

- خليها مرة تانية.

- تحب أوصلك؟

لم يجبه "أكرم" وانصرف مغادرًا كأنه يفرُّ من أمرٍ جللٍ.. أمسك "هشام" على الفور بهاتفه المحمول يطلب "ليلى" ثم قال بعد أن أتاه صوتها:

- لسه نازل من عندي حالًا.
- وأخباره إيه؟
- ليلى؟!
- نعم.
- إنتِ مش لازم تكملي معاه، أنا النهاردة اتأكدت من خيانته ليكي.

صمتت قليلًا، ثم جاء صوتها واجمًا:

- عادي.
- لأ، مش عادي.. ده النهاردة الجلسة كلها كانت على واحدة اسمها صباح وعلاقته بيها وبيعملوا إيه مع بعض.
- صباح! أنا معرفش حد بالاسم ده غير واحدة بس.
- مين يا ليلى؟
- صباح، مراة بواب عمارة الدقي.

***

جلس "هشام" خلف مكتبه تتنازعه مشاعر وأحاسيس متضاربة.. كان شاردًا منذ أن غادر "أكرم" عيادته فجأة كعادته، يُفكر في تلك الحالة الغريبة التي أصابت "أكرم" فجعلته يصل لهذه المرحلة.. كانت مهنته كطبيبٍ تدفعه لمحاولة التوصل إلى حلٍّ لعقدة "أكرم" النفسية، لكن قلبه كعاشقٍ كان يحثه على تعميق هذه العقدة ليتخلص من غريمه القديم.. ويفوز بقلب "ليلى"، حبيبة القلب والروح..

أمسك بقلمه وشرع يُدون في مفكرته تحليله المبدئي لحالة "أكرم":

"أكرم رشدي" طبيب نفسي، غني ومثقف.. أعلم أن المثقفين هم أصعب أنواع المرضى النفسيين؛ لأن ثقافتهم تقف دائمًا حائلًا بينهم وبين استسلامهم للطبيب ثم الاستسلام لأنفسهم.. فالمثقف يستخدم علمه ومعرفته كفأسٍ يحفر بها في أعماق ذاته، وهو بفعله هذا يستثيرُ عقله الباطن ويُعرض نفسه للأزمات النفسية.. أما الجاهلُ فلا تتوافر له القدرة عادةً على مخاطبة نفسه واستثارة عقله الباطن، وحتى إن حدث ذلك فإنه لا يكون متعمدًا حدوثه..

وبالنسبة لحالة "أكرم" فثقافته تُسبب له نوعًا من الرغبة في التمرد، التمرد على الطبيب والتمرد على نفسه..

أغلب جلساتي معه كانت تضيع في مناقشات وحوارات لا طائل من ورائها سوى محاولته التباهي أمامي بقدراته وعلمه.. كثيرًا ما انتابني شعورٌ أنه يُحاول مبادلة الأدوار فيما بيننا، فيكون هو الطبيب وأنا المريض.. جلساتي معه عبارة عن معركة إرادة.. معركة شديدة الشراسة بين إرادتين، إرادته وإرادتي..

وإذا كان "أكرم" مثله مثل غالب المثقفين أكثر عرضةً للحالات النفسية من الجهلاء والعوام، ممن هم أقل منهم ثقافةً بصفةٍ عامةٍ.. إلا أن لديه مشكلة أخرى؛ أنه كان غنيًّا منذ طفولته.. فالأغنياء أيضًا أكثر عرضة للمرض النفسي من الفقراء.. فالفقير يشغله طوال الوقت السعي وراء رزقه، وهي حاجة ضرورية تهدد بقاءه، يحتاج دائمًا إلى يقظة عقله الواعي ليستخدمه في البحث عن قوته وقوت أبنائه.. هذه الحاجة تجعل العقل الواعي للفقير نشطًا قويًّا طوال الوقت، وتجعل عقله الباطن يذبل ويضعف فلا يُثير قلقًا لصاحبه.. حتى إذا ثار العقل الباطن للفقير فإنه يثور فجأةً، تنطلق منه العُقد النفسية في تصرفٍ بدائي عنيفٍ.. كأن يقتل أو يُصاب بالجنون، دون أن تسبق هذه الانطلاقة معاناةٌ نفسيةٌ مستمرةٌ.. أما الغِني فإن الفراغ الذي يُحيط به، لعدم وجود حاجةٍ ضروريةٍ تُهدد بقاءه، يجعل عقله الواعي يتكاسل.. ويترك هذا التكاسل

مجالًا للعقل الباطن يسمح له بالنشاط والسيطرة.. حينها تبدأ معاناته النفسية..

أما أخطرُ مشكلةٍ تواجه "أكرم"؛ أنه طبيب نفسي.. فالطبيبُ النفسي إن أصبح مريضًا أو مصابًا بعقدة نفسيةٍ وحاول علاج نفسه بأن قرأ كتبًا في علم التحليل النفسي تُشخص مرضه أو تصف علاجه، ساءت حالته أو بات أكثر عُرضةً للأزمات النفسية.. لأن كتب الطب في معظم الأحيان تحتاج أثناء قراءتها إلى إرادةٍ قويةٍ، نفصل بها بين العقل الذي يعي ما نقرأه والإحساس بما نقرأ.. فحين نقرأ كتابًا عن مرض السرطان نشعر، إن غابت عنا قوة الإرادة، بكل أعراض المرض تنتقل إلى بدننا.. وكذلك عندما نقرأ كتابًا في علم النفس، نحسُّ أننا مصابون بنفس الحالة النفسية التي يشرحها لنا الكتاب.. وهذه الإرادة هي الفارق الجوهري بين الطبيب المعالج، والطبيب المريض..

هذه على الأرجح هي حالة "أكرم رشدي" إن لم أكن مخطئًا.. طفولة غير مستقرة لانفصال والديه وسوء معاملة عمته؛ نتج عنها ترسُّب عقدةٍ نفسيةٍ في عقله الباطن منذ الصغر.. حياة ناعمة مترفه فارغة؛ لم يكن بحاجةٍ لنجاحٍ مادي أو مهني لنيْل مكانةٍ اجتماعيةٍ حظي بها منذ ولادته.. استخدم ثقافته وعلمه، كطبيبٍ نفسي، كفأسٍ

يحفر بها داخل نفسه ليصلَ إلى تلك العُقدة.. لكنه بدل أن يصل إليها استثارها، ضخَّمها وزاد من تعقيدها..

تنهَّد في ارتياحٍ حين ترك القلم من يده بعد أن انتهى من كتابة تحليله لحالة "أكرم".. ارتسمت على شفته ابتسامةٌ خفيفةٌ، كانت تلك عادته كلما نجح في فك طلاسم حالةٍ مرضيةٍ تُعرض عليه.. فتح درج مكتبه وأخرج منه سيجارًا فاخرًا ماركة "كوهيبا".. قطع طرفه ثم أشعله مستمتعًا بدخانه الكثيف، الباهظ الثمن..

حانت منه نظرةٌ لكل تلك الشهادات التي تُزين جدران غرفته فأصابته نشوةٌ.. تذكَّر سريعًا أيام لم يكن يمتلك مصاريف دراسته.. لمعت أمام عينيه صورةُ "أكرم" اللامعة أيام الجامعة، وصورته منكسرًا الآن فمسح بيده على لحيته الدوجلاس في سعادةٍ غريبةٍ..

فجأة تقلصت ملامح وجهه وغامت عيناه بضيقٍ وحزنٍ دفينيْن، تذكر مثلًا شعبيًّا كان أهل بلدته يتندرون به عليه دائمًا لما أحسوا بتعاليه عليهم بعد عمله كطبيب نفسي:

"قال لي يابا إمتى تشرفني، قلت لما يموت كل إللي يعرفني"..

***

...اليَوْمُ الرَّابِعُ...

الحُبُّ قَدَرٌ مَحْتُومٌ..

تَمامًا كالمَوْتِ..

(١٠)

لا يعلم ما الذي أتى به إلى هذا المكان، لا يُسعفه عقله المضطرب في أن يُحدد السبب.. كل ما كان يذكره أنه حين غادر عيادة "هشام" كان التوتر مسيطرًا عليه، انتابه خوفٌ شديدٌ من الحديث عن مقتل "صفاء".. اعتراه قلقٌ كبيرٌ من ذلك الضابط السخيف ونظراته التي كانت تُحاصره طوال فترة حديثه مع "هشام"..

جاهدًا رفع جفنيْه المتثاقليْن بصعوبةٍ بالغةٍ، حاول استجلاء الرؤية وسط كل هذا الدخان الكثيف.. كان الجو من حوله خانقًا حارًّا، على الرغم من تلك البرودة القارسة التي تسيطر على أجواء شتاء القاهرة، يموج بأجساد البشر المتلاحمة في بدائية غريبة.. يجلس بعضهم متجاورين على مقاعد خشبية أو متحلقين حول مناضد موزعة في أرجاء المكان بعشوائيةٍ، كانت المناضد عامرةً بصنوفٍ مختلفةٍ

مـن الفاكهـة والمقرمشـات.. تراصـت فوقهـا زجاجـات البـيرة البـاردة وأحجـار المعسـل المخلـوط بالحشـيش، تجاورهـا أطبـاقٌ بلاسـتيكيةٌ ممتلئـةٌ عـن آخرهـا بالسـجائر الملفوفـة..

"منورنـا واللـه يـا أكـرم بيـه يـا ابـن الأكابـر"، انتبـه عـلى صـوتٍ بـدا لـه مألوفًـا..

التفـت نحـوه لا يـكاد يـرى تفاصيـل وجهـه، هـزَّ رأسـه ثـم ابتسـم في بلاهـةٍ حـين تعـرَّف عليـه.. تذكـر أنـه حـين غـادر عيـادة "هشـام" لم يكـن يجـد مـا يفعلـه، قـاد سـيارته عـلى غـير هـدى محـاولًا التخلـص مـن ذلـك التوتـر اللعـين حتـى وجـد نفسـه في العباسـية.. أوقـف سـيارته أسـفل عـمارة عمتـه بعـد أن شـعر بحنـينٍ غريـبٍ إلى المـاضي.. التقـى حينهـا "نبيـل البغـدادي" أو "بلبـل" كـما كان الشـباب يُلقبونـه قديمًـا، ابـن صاحـب المقهـى القابـع أسـفل العـمارة.. كانـت لـه ذكريـاتٌ كثـيرةٌ أيـام الصبـا مـع "بلبـل"، لم يجـد حرجًـا مـن الجلـوس معـه لبعـض الوقـت لاجـترار ذكريـات الشـباب.. جرَّهـما الحديـث لذكـر حـادث "فريـدة" فـأصرَّ "بلبـل" عـلى اصطحابـه معـه لحضـور فـرح أحـد الأصدقـاء في بـاب الشـعرية..

انتبـه عـلى صـوت ضجيـجٍ مرتفـعٍ.. كان إيقـاع الموسـيقى صاخبًـا مؤذيًـا، يطغـى عـلى كل الأصـوات المحيطـة بفضـاء

المكان حتى بات لا يسمع سواه.. في حين كان الكثير من الحضور منهكمين في نوباتٍ من الرقص.. كانوا يتراقصون في عشوائيةٍ وهمجيةٍ عجيبةٍ، كأن حالةً من الردة البدائية قد أصابتهم أو كأنما قد أصابهم مسٌّ سُفلي.. كان الضجيج شديدًا، لكن حالة البلادة الناتجة عن المخدرات التي تعاطوها منحتهم شعورًا زائفًا بالطرب والانسجام.. خصوصًا مع تلك الراقصة، العارية تقريبًا، التي كانت تتلوى وتهزُّ أردافها في حركاتٍ يُعاقب عليها القانون في الأحوال الطبيعية..

كان "أكرم" يتلفت حوله بين الفينة والأخرى في بلادةٍ، أصبح الزمن بالنسبة إليه بطيئًا للغاية.. أخذ يجوب بعينيه فيمن حوله ثم ارتسمت على شفته السفلى ابتسامةٌ باهتةٌ أعقبها بأن حدَّث نفسه:

"لا أعلم ما المبهج في كل هذا الصخب والضجيج؟!.."

هزَّ رأسه في لامبالاة، ثم أردف:

"ربما يُحاولون نسيان بؤس حياتهم، أو ربما تكون همجيتهم هي السبب من الأساس.."

"مسااااء الخيييير"..

أفـاق مـن هذيـان أفـكاره عـلى صـوت أحـد الجلـوس بجانبـه وهـو يضـع أمـام وجهـه الشـاحب بوصـة طويلـة مـن الغـاب الأصفـر اللـون.. مـدَّ نظـره الغائـم متتبعًـا نهايتهـا حتـى التحمـت مـن الأسـفل ببرطـمان زجاجـي يمتلـئ بالمـاء حتـى نصفـه تقريبًـا.. لم يُعـر الجالـس بجـواره أي انتبـاهٍ، فقـط لبَّـى ببـلادةٍ شـديدةٍ دعوتـه الكريمـة.. أحكـم وضـع البوصـة بـين شـفتيْه ثـم سـحب نفسًـا طويـلًا جـدًّا أفـرغ فيـه كل شـحناته السـلبية، التـي رافقتـه لفـترةٍ ليسـت بالقليلـة مسـببةً لـه مزيجًـا بائسًـا مـن مشـاعر الضيـق والقلـق.. توقـف عـن سـحب الدخـان فجـأةً حـين سـمع صـوت طرقعـة الفحـم فـوق الحجـر، لمعـت عينـاه بوميـضٍ خافـتٍ حـين شـاهد لهبًـا بسـيطًا مـن النـار يتراقـص في مياعـة أعـلى سماسـم الفحـم..

"الله أكبر عليك يا باشا.. ولعت الراية يا كبير"..

نظـر بعينيْـه الحمراويـن للفتـى الصغـير الـذي يحمـل في يـده منقـد الفحـم بعـد أن قـال عبارتـه الأخـيرة.. كانـت نظرتـه جوفـاء خاليـةً مـن أي معنـى حـين رسـم عـلى وجهـه ابتسـامةً صفـراء باهتـةً وهـو يتلـذذ باخـراج الدخـان مـن فتحتـيْ أنفـه في هـدوءٍ شـديدٍ.. صفـق الفتـى الصغـير بيديْـه جـذلًا بعـد أن أحـسَّ أنـه قـد أدَّى واجبـه عـلى خـير وجـهٍ ثـم

غـادر موقعـه بجـوار هـذه المنضـدة لشـعوره بـأن روادهـا قـد حظـوا بنصيبهـم العـادل مـن الكيـف..

أحـسَّ بحرقـةٍ شـديدةٍ في صـدره مـن جـرَّاء دخـان الجـوزة لكنـه صمـم عـلى التظاهـر بالقـوة والتحمـل.. إلا أن نوبـةً عاتيـةً مـن السـعال اجتاحـت رئتيـه كشـفت عـن ضعـف شُـعبه الهوائيـة، وعـدم قدرتهـا عـلى تحمـل كل هـذا القـدر مـن الدخـان المحمَّـل بعبـق عطـر الحشـيش الفـوَّاح..

عـلى الفـور ناولـه أحدهـم بكـرمٍ بالـغٍ زجاجـةً بـاردةً مـن البـيرة، وهـو يقـول بصـوتٍ أجـش تقطعـت نبراتـه مـن جـراء سـعاله المتقطـع:

"بلّ ريقك يا باشا تلاقيه نشف بس شوية"..

دون أدنى تـردد تنـاول منـه زجاجـة البـيرة ثـم أفـرغ نصفهـا تقريبًـا في جوفـه عـلى دفعـةٍ واحـدةٍ.. شـعر بعدهـا بثقـلٍ هائـلٍ يضغـط عـلى حجابـه الحاجـز، لم يذهـب عنـه هـذا الشـعور المقيـت حتـى تجشـأ بصـوت مرتفـعٍ.. داهمـه دوارٌ فظيـعٌ وإحسـاسٌ مخيـفٌ بالاختنـاق.. نظـر لسـاعة يـده فوجـد عقاربهـا تجـاوزت منتصـف الليـل بدقائـق قليلـة.. قـام واقفًـا بصعوبـةٍ بعـد أن اسـتند عـلى كتـف الجالـس إلى جـواره..

"على فين يا أكرم بيه؟!.. ما لسه بدري"..

رفع كفه محييًا "بلبل" وهو لا يكاد يرى تفاصيل وجهه، ثم قال:

"هاطلع بره أشم شوية هوا وراجع تاني"..

***

لم يمض سوى ساعتين فقط على دخول "معتز" لبيته حتى رنَّ هاتفه المحمول.. بدَّد ذلك الرنين الصمت الذي أصبح يُميز بيته بعد أن هجرته زوجته.. مدَّ يده بإرهاقٍ شديدٍ حتى ضغط على زر الإجابة، سمع صوت "عمرو" يقول بتوترٍ شديدٍ:

- مساء الخير يا باشا.
- الساعة كام دلوقتي؟
- ٢ الصبح يا باشا.

تأفف "معتز" وهو يقول في حدة:

- يا ريت يكون فيه حاجة تستاهل.
- شقة صفاء عبد الحميد.
- ما لها؟!

- في نـاس اقتحمتهـا مـن شـوية، فضـوا الأختـام مـن عـلى البـاب وفتشـوها.. مـش عارفـين إذا كانـوا أخـدوا حاجـة منهـا ولا لأ.

انتفض "معتز" جالسًا على الفور، ثم قال بنبرةٍ آمرةٍ:

- قابلني هناك حالًا.

أخـذ دشًّـا دافئًـا في عجالـةٍ ليُذهـب أثـر النعـاس عـن رأسـه، وارتـدى ملابـس ثقيلـةً تمـده بالـدفء الـلازم لمواجهـة بـرودة الطقـس.. غـادر بيتـه ونـزل السـلم عـدوًا بعـد أن تلفَّـح بكوفيـةٍ مـن الصـوف، كانـت "يُمنـى" قـد أهدتهـا لـه في عيـد زواجهـما الثالـث.. قـاد سـيارته الخاصـة متجهًـا إلى الزمالـك حيـث شـقة "صفـاء عبـد الحميـد".. كان الطريـقُ خاليًـا تمامًـا في مثـل هـذا الوقـت المتأخـر مـما سـمح لـه بتلـك السرعـة الكبـيرة التـي كان يقـود بهـا.. لكـن عقلـه كان يعمـل بسرعـةٍ أكـبر.. فمنـذ مغادرتـه لعيـادة "هشـام وهـدان" وبـذور مـن الشـك كانـت تنبـت في سرعـةٍ مطـردة داخـل قلبـه.. كان حدسـه يُخـبره بـأن هـذا الطبيـب لـه علاقـة بمقتـل "صفـاء"، أيضًـا نظـرات صديقـه "أكـرم" لم يسـترح لهـا عـلى الإطـلاق.. حـين دخـل إلى مكتبـه في القسـم راجـع كل أوراق القضيـة.. اتصـل يتعجـل تقريـر الطـب الشرعـي وتشريـح

الجثتين.. حاول الاتصال بـ "داليا" لكن هاتفها كان مغلقًا على الدوام..

أوقف "معتز" سيارته أمام عمارة "صفاء" بعد أن ضغطت قدمه بعنفٍ على دواسة المكابح، أصدرت صَوتًا مُرْتَفِعًا سُمع بوضوحٍ تبدد معه الهدوء المعروف عن حي الزمالك في هذا الوقت المتأخر من الليل.. هبط منها بخطواتٍ نشطةٍ، قذف بمفاتيحها لأحد رجال الشرطة المنتشرين في الشارع الضيق والمكتظ بهم مدخل العمارة.. ارتسمت على ملامحه آياتُ التركيز الشديد وهو يُجيل بصره حوله مفتشًا في الوجوه.. حين شاهد "عمرو" يتحدث لأحد الوقوف، بادره قائلًا:

- فين فرد الأمن السري يا عمرو؟

- موجود يا باشا، أنا سألته كان فين وقت اللي حصل قال لي إنه غاب نص ساعة بس.. راح يشرب شاي في القهوة اللي على الناصية.

جزَّ "معتز" على أسنانه في غيظٍ، ثم قال:

- والبواب كان فين؟

- من إمبارح أخد مراته وعياله وسافر على البلد.

- ابعتله وهاته.

صمت "عمرو" لبرهةٍ، ثم قال في تردد:

- محدش يعرف بلده إيه يا باشا؟

- نعـم!! يعنـي إيـه؟.. اختفـى بسـلامته، اجمـع لي باقـي البوابـين.. خليهـم يتصرفـوا.

أنهـى "معتـز" عبارتـه الأخـيرة ثـم تحـرَّك بخطـواتٍ غاضبةٍ نحـو سـلم العـمارة.. صعـد درجاتـه في سرعـةٍ ثـم دلـف للشـقة، كان رجـال الشرطـة يفتشـون في كل أرجائهـا بحثًـا عـن شيء يـدل عـلى شـخصية المقتحمـين.. جـال "معتـز" ببـصره فهالـه مـا أصـاب الشـقة مـن فـوضى.. معظـم الأثـاث الفاخـر محطـم، التحـف والآنيـات مهشـمة.. كل أرفـف المكتبـات تـم تفريغهـا، إلقـاء محتوياتهـا عـلى الأرضيـة الخشـبية للشـقة.. دخـل إلى غرفـة نـوم صفـاء، كان الحـال فيهـا مثلـما كان خارجهـا.. فـوضى عارمـة ودمـار شـامل..

غـادر الشـقة ووقـف أمـام مدخـل العـمارة يدخـن سـيجارة، نفـث دخانهـا في غضـبٍ والتفـت في حـدة نحـو "عمـرو" حـين سـمعه يقـول:

- تقرير الطب الشرعي وصل يا باشا.

- بيقول إيه؟

- مفيش آثار معاشرةٍ جنسيةٍ عند القتيلتين، فقط شوية كدمات وسحجات لكنها بسيطة.. تدل على أن مقاومتهم كانت ضعيفةً.
- سبب الوفاة يا عمرو، أنا أعصابي مش مستحملة.
- وفاة صفاء كانت نتيجة صدمة عصبية حادة من أثر طعنها بالسكين في المكان اللي .....

قاطعه "معتز" بنفاد صبر:

- مفهوم، مفهوم.. في حاجة تانية؟
- وفاة إيمان كانت نتيجة إسفكسيا الخنق.
- دي كانت حاجة واضحة زي الشمس.

صمت "معتز" قليلًا، ثم تأفف حين قال في ضيقٍ:

- مفيش أي حاجة تانية ممكن تساعدنا؟
- القتيلتين كان في أثر لمخدر في جسمهم.
- كانوا بيتعاطوا حاجة؟!
- لا يا باشا، اللي قتلهم خدَّرهم الأول.
- عرفوا نوع المخدر؟
- مخدر من اللي بيستخدم في الأغراض الطبية.

لمعت عينا "معتز" بقوةٍ وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ غامضةٌ، ثم قال وهو يتحرك نحو سيارته:

- خلص شغلك وحصلني على القسم، قبل ما النهار يطلع عاوز أشوف زوج إيمان الشهاوي.. وكل أفراد الأمن السري يسيبوا اللي في أيديهم ويجيبولي داليا من تحت الأرض.

***

لم يُرد "أكرم" العودة لمنزله وهو على تلك الحالة خصوصًا بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحًا، قرر التوجه لعيادته بعد أن أصبحت هي ملاذه الأخير الذي يلجأ إليه كلما ضاقت به السبل.. حين أوقف سيارته أمام العمارة ومضت في عقله فكرة اللجوء إلى "صباح" لعل رحيقها يُسهم في التخفيف من حدة توتره.. ابتسم حين تخيل نفسه ينهلُ من رحيقها، لكنه لعن سوء حظه عندما وجد غرفة "صلاح" البواب مغلقةً بقفلٍ ضخمٍ.. علل ذلك بأن الرجل و"صباح" ربما سافرا إلى بلدتهما لقضاء بعض الأمور، لكنه تعجَّب من كونها لم تُخبره بسفرها على الرغم من لقائها معه قبل ساعاتٍ قليلةٍ..

دخـل عيادتـه عـلى ضـوء كشـاف هاتفـه المحمـول بعـد أن وجدهـا غارقـةً في ظـلامٍ حالـكٍ..

"يبـدو أن الملعـون صـلاح قـد فصـل وصلـة الكهربـاء"، حـدَّث نفسـه سرًّا..

ودخـل لغرفتـه يفتـش فيهـا عـن زجاجـة الشـيفاز ريجـال أمـلًا في أن تُذهـب لذعـة الكحـول مـن فمـه طعـم تلـك المرارة التـي باتـت تُحـاصر حياتـه.. أشرق وجهـه في الظـلام حـين عـثر عـلى ضالتـه داخـل مكتبتـه التـي عـلا رفوفهـا الـتراب.. جلـس خلـف مكتبـه يـشرب مـن الزجاجـة في نهـمٍ شـديدٍ.. بعـد فـترةٍ قصـيرةٍ بـدأ الخـدرُ يـسري في أوصالـه ومعـه سرح خيالـه في "صبـاح"..

رآهـا لأول مـرةٍ في ذلـك المسـاء الـذي غـادر فيـه عيادتـه متأخـرًا كعادتـه.. حينهـا سـمع صـوت صراخ وعويـل يأتيـان مـن جهـة مدخـل العـمارة.. توجَّـه نحوهـما سريعًـا بعـد أن تملكـه الفضـول، فرأى "صـلاح" ممسـكًا بشـعر فتـاةٍ شـابةٍ في أواخـر العشرينـات.. يجرهـا عـلى الأرض بعنـفٍ، ويبرحهـا ركلًا بمنتهـى القسـوة.. والمسـكينة تتلـوى وتـصرخ مـن الألم أسـفل قدميـه.. أخذتـه شـهامةٌ نتجـت عـن كأسـين مـن الكحـول تجرَّعهـما قُبيـل مغادرتـه العيـادة، فتدخَّـل يحـول بـين الرجـل وبـين الفتـاة.. خلـف ظهـره القـوي التصقـت الفتـاةُ محتميـةً

مـن بطـش "صـلاح"، الـذي لم يهـدأ إلا بعـد أن نفحـه "أكـرم" عـشرة جنيهـاتٍ كاملـةً..

لم تسـترع هـذه الفتـاة انتباهـه في ذلـك المسـاء، لكنهـا شـغلت عقلـه حـين زارتـه في العيـادة بعـد تلـك الواقعـة بثلاثـة أيـام.. وجدهـا تطـرق بابـه بعـد انتهـاء مواعيـد العمـل في العيـادة وانـصراف مسـاعده، لم يكـن يعلـم أنهـا زوجـة "صـلاح" البـواب في ذلـك الوقـت.. أخبرتـه أنهـا جـاءت لتشـكره، أطـال حينهـا النظـر في عينيهـا البنيتـين.. كانتـا تحملان في داخلهـما نظـراتٍ تُعبر عـن كل المتناقضـات.. حـزن عميـق وفرحـة طفوليـة، خـوف عظيـم وجـرأة كبـيرة.. أدخلهـا لغرفتـه ماشـيًا خلفهـا يتأمـل عباءتهـا السـوداء الضيقـة، ومـن أسـفلها ظهـر جسـدُها الـذي بينـت رجرجتـه أنوثتهـا بوضوحٍ.. ظهـرت أطـرافُ شَـعرها البُنـي مموجـةً في غجريـةٍ مثيرةٍ مـن أسـفل طرحتهـا المزركشـة.. كان كل شيء فيهـا جامحًـا يُحـرك مكامنـه..

بعـد أن أجلسـها أخبرتـه أنهـا منـذ أن مـات أبوهـا لم تجـد مـن يدافـع عنهـا أبـدًا.. صدمتـه كانـت كبـيرةً عنـد علمـه أنهـا زوجـة "صـلاح" البـواب؛ كان الفـارق بينهـما يتجـاوز الأربعـين عامًـا.. أخبرتـه بأنهـا لا تعـرفُ كيـف توفيـه حقـه مـن الشـكر، لكنهـا قالـت بجـرأةٍ ألجمتـه أنهـا لا تجـد سـوى

طريقـةٍ واحـدةٍ لـردٍّ جميلـه.. تسـمَّر في مكانـه لوهلـةٍ حـين فهـم مقصدهـا، إلا أنهـا بادرتـه تسـأل عـن مـكان الحـمام.. حـين أخبرهـا غـادرت نحـوه سريعًـا، وسـمع بعدهـا صـوت انسـياب المـاء..

بعـد فـترةٍ قصـيرةٍ خرجـت دون أي شيء يسـترها، تلمـع كنجمـةٍ تتـلألأ في سـماء حياتـه المظلمـة.. وقطـرات المـاء تنسـاب في سـهولة ولـين فـوق بشرتهـا القمحيـة الناعمـة.. كانـت حقًّـا جميلـةً بعـد أن أكسـب البلـلُ شَـعرها الغجـري إغـواءً مضاعفًـا.. وتلـك الرائحـة الطفوليـة الرائقـة التـي اشـتمها حـين ضمهـا والتقـم شـفتيْها جعلـت ذراعيـه ترتخيـان والدمـاء تفـور في جسـده.. برفـقٍ أحكـم الإمسـاك بدفتهـا، فقادتـه بحنكـةٍ نحـو موجـاتٍ عاتيـةٍ مـن العشـق.. كان آخـر مـا سـمعته أذنـاه قبـل أن يغـرق معهـا في بحارهـا صوتهـا يهمـس بلهجتهـا الريفيـة في تـأودٍ:

"ريحتك حلوة قوي يا سي الدكتور أكرم"..

سرى مفعـولُ الكحـول في رأسـه فصـدرت عنـه ضحكـةٌ عاليـةٌ، تـردد صداهـا في فضـاء غرفتـه حـين تذكـر ذلـك اليـوم.. أشـعل سـيجارةً ثـم مـدَّ يـده يفتـش في درج مكتبـه الأيمـن العلـوي، عـثر عـلى ضـوء كشـاف هاتفـه المحمـول عـلى ملـف أخـضر اللـون مكتـوب عليـه بخـط واضـح (ملـف السـيدة/

صباح عبد المتجلي صميدة).. شرب من زجاجته بينما كان يُقلب في أوراق الملف.. ومعه تذكر ما جمع بينه وبين "صباح"، تلك اللقاءات والجلسات بينهما.. أصبح يُكن لها بعدها شعورًا خاصًا..

أخبرته "صباح" أن قصتها بدأت من اليوم الذي وقفت فيه بجوار والدها، وهو مُسجَّى على فراش الموت.. كانت في الثانية عشرة من عمرها حين كان كل شيء فيه يموت أمامها ببطءٍ شديدٍ.. عيناه وأنفاسه، حتى وجهه بدأ يفقد سمار لونه ويتحول تدريجيًا للونٍ شاحبٍ لا تعرف له اسمًا.. كانت تقف بجانبه تراقب في صمتٍ تام، كأنها تخشى أن تتكلم فيُسرع حديثها من موته.. فقط اكتفت بالتفرُّس في ملامحه بحثًا عن ذلك الأب الذي تعرفه.. الذي كان يعرف دائمًا كيف يُضحكها، ينشر من حولها أذرع الرعاية والحماية.. الذي كان يختصها دومًا بقُبلة صباحيةٍ وأخرى قبل الخلود للنوم..

اقتربت منه تُحاول تقبيله مثلما كانت عادتهما، لكنها لم تجد منه أية ردة فعل.. فقط كانت تسمع صوت أنفاسه الوهنة.. شهيق قصير خافت، يعقبه زفير طويل حاد.. تحوَّل إيقاع حياتها بأكمله خلال تلك اللحظات إلى إيقاعٍ يُماثل صوت أنفاسه.. نامت برأسها على صدره بعد

أن سالت الدموع من عينيها، سمعت صوت زفيره يخرج طويلًا، لكنه كان هادئًا.. رفعت رأسها تنظر نحوه، لكنها لم تجد أي تغيير في صورته.. فجأةً، سمعت أمها تصرخ مولولة.. علمت أن أباها قد مات..

أصابتها حالةٌ من الذهول، كأنها لم تتصور أن يمتد الموتُ إلى والدها.. لكنها كانت في ذهولها ترقب باندهاشٍ شديدٍ تلك الضجة الكبيرة التي أقامتها أمها في ليالي العزاء.. حتى إنها تذكر جيدًا كيف وجدت أمها تتزين صبيحة اليوم التالي للوفاة، كانت تقف أمام مرآتها المشروخة تُعدل وضع عباءتها السوداء الضيقة على جسدها.. تشد جزأها العلوي فوق صدرها لأسفلٍ، تُبرز ذلك الفرق الواضح بين نهديْها.. تربط طرحتها السوداء فوق رأسها، تتعمد أن تترك القليل من شَعرها البني المتموج ينسدل فوق جبهتها..

وقفت ترقب أمها في سخطٍ لا تعلم له سببًا.. أحسَّت أنها تريد لومها، لكنها لم تستطع أن تفعل.. لمحتها أمها في صفحة المرآة، فقالت دون أن تلتفت إليها:

- الله يرحمه، أهو ارتاح من عذاب المرض.. الدور والباقي علينا إحنا، مين اللي هيريحنا من عذابنا؟

قالت عبارتها بنبرةٍ طبيعيةٍ للغاية، ليس فيها أي حزنٍ.. كأن تلك الضجة التي تقيمها فرحٌ لا عزاء.. كان يبدو

عليها أنها شديدة الانشغال، أنها تستعد ليومٍ ستكون فيه عروسةً تحتفل بزفافها.. انهمرت دموعُ "صباح" غزيرةً في ذلك اليوم، لكنها كانت دموعًا صامتةً.. حتى كادت تختنق فركضت إلى غرفتها المتواضعة، ثم أجهشت بالبكاء.. كانت دموعُها حارةً صادقةً، دموع من اكتشفت أنها أصبحت يتيمةً..

لم يطل انتظار "صباح" كثيرًا حتى أكدت لها الأيامُ صحة توقعها.. فبعد أسبوعٍ واحدٍ فقط فتحت أمها باب غرفتها بعنفٍ كأن عاصفةً اقتلعته ثم صاحت بها:

- إنتِ لسه قاعدة متنكدة وسايباني شايلة الهم أنا وإخواتك، يلا قومي سلمي على الضيوف.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها "صلاح".. كان قد حضر راسمًا على وجهه ملامح الحزن، مدعيًا تقديمه لواجب العزاء.. لكن "صباح" لمحت تلك النظرات الغريبة التي كان يتبادلها مع أمها.. بعد فترةٍ بدأ يُكثر من زياراته للبيت، أمها تتحرر من ثيابها أمامه أكثر فأكثر.. و"صلاح" يزيد في كل زيارةٍ من الهدايا، العطايا والمال..

في إحدى تلك الليالي التي بقيت ذكراها تنخر في عقل "صباح".. سمعت صوتًا صادرًا من غرفة أمها فتوجهت

نحوها على الفور.. وجدت أمها وقد تأوَّد عودها عشقًا بين أحضان "صلاح".. مع مرور الوقت أصبح "صلاح" فردًا من أفراد العائلة، كان يتكفل بكل نفقات البيت.. لكن بعد حينٍ بدأ يكشف عن نواياه الحقيقية..

بدأ يُرسل أخواتها اللاتي يكبرنها في السن إلى قرى ومراكز مجاورةٍ في أيام الأسواق والموالد، يؤجرهن لراغبي المتعة.. ومن عرقهن كان يترك مصروفًا ضئيلًا في يد الأم.. حتى بدأت الخلافاتُ تدبُّ بينه وبين أمها حين اكتشفت الأخيرة أنه يُراود واحدةً من بناتها ويتحرَّش بها.. طردته خارج البيت، وبقيت تجتر أحزانها وحدها.. لم تتحمل صدمتها كثيرًا فماتت بعدها ببضعة أسابيع.. وبقيت "صباح" مع أخواتها يواجهن قسوة الحياة..

كانت الأخوات قد احترفن بيع أجسادهن لراغبي المتعة في البلدان المجاورة.. بدأن يضغطن عليها لكي تحذو حذوهن.. رفضت في البداية، لكنها سرعان ما رضخت تحت وطأة شظف العيش..

بعد فترةٍ أبلغتها أخت لها أن هناك من يطلب يدها للزواج، فرحت ورسم لها خيالها آمالًا عريضةً.. كانت صدمتها قويةً حين علمت أن هذا العريس المرتقب كان "صلاح".. أخبرتها أختها أنه سيأخذها معه للقاهرة حيث

رغـد العيـش.. صاحبتـه إلى القاهـرة كبقـرةٍ يجرهـا صاحبهـا للذبـح.. حـين وصلـت علمـت أنـه حـارسٌ لأحـد العقـارات بالدقـي.. أجَّـر لهـا بـادئ الأمـر شـقةً متواضعـةً في بـولاق الدكـرور ثـم نقلهـا لعـمارة الدقـي بعـد وفـاة زوجتـه الأولى.. بعـد فـترةٍ بـدأ يسـتخدمها في خدمـة الشـقق المفروشـة، ثـم بـدأ يعـرض خدمـات جسـدها عـلى مـن يُقَـدِّر جمالـه..

أغلـق "أكـرم" صفحـات الملـف ثـم أزاحـه مـن أمامـه في ضيـقٍ.. نظـر نحـو زجاجتـه فوجدهـا شـارفت عـلى الانتهـاء.. جـرع مـا بقـي منهـا في جوفـه دفعـةً واحـدةً، تجشَّـأ في صـوتٍ مسـموعٍ ثـم نظـر في سـاعة هاتفـه المحمـول فوجدهـا تجـاوزت الرابعـة صباحًـا.. قـام يترنـح مـن مكانـه خلـف المكتـب حتـى وصـل إلى الأريكـة التـي كان يسـتخدمها لعـلاج مرضـاه.. ألقـى بجسـده فوقهـا في تعـبٍ، لا يعلـم سـبب تلـك الراحـة التـي بـات يشـعر بهـا حـين يتمـدد فـوق أي أريكـة.. لم يكـن يسـتطيع العـودة لمنزلـه وهـو عـلى تلـك الحالـة مـن السُّـكر.. أغمـض عينيْـه بعـد أن أصابـه الإعيـاء ودار رأسـه بفعـل الكحـول.. أظلمـت الدنيـا مـن حولـه تمامًـا حـين غـاب عـن الوعـي وهـو يُتمتـم هاذيًـا:

"فريدة.. فريدة"..

***

(١١)

حين دخلت "ليلى" من الشرفة إلى غرفة نومها كان الوقت لا يزال ليلًا تقريبًا، بالكاد بدأت بعض العمارات السكنية تظهر على استحياء من بين الضباب.. ألقت بجسدها فوق فراشها في تعبٍ واضحٍ.. كانت ليلتها كئيبةً مقبضةً، فارقها النوم فيها بعد أن سيطرت على عقلها مشاعر الحزن والكآبة.. كانت لا تتصور أبدًا كيف تحولت حياتها إلى ما لم تكن تتخيله على الإطلاق..

شعورٌ سخيفٌ بالسأم، اختناقٌ وضيقٌ شديدٌ في التنفس كانا يسيطران عليها بصورةٍ مفزعةٍ.. غادرت الفراش بخطواتٍ بطيئةٍ بعد أن أعياها طول السهر، وأرهقتها الأفكار الحزينة.. توجهت إلى الحمام ووقفت أسفل صنبور الاستحمام الذي انهمر ماؤه في قوةٍ وغزارةٍ، تلتمس في سخونته قليلًا من الاسترخاء.. إلا أن صوت خرير المياه

وذلـك البخـار الكثيـف الـذي مـلأ الحـمَّام لم يفلحـا في إزالـة آثـار السـهر والإرهـاق.. فخرجـت مـن الحـمَّام تمامًـا كـما دخلـت إليـه، لم يتغـير شـئ مـن حالهـا..

جففـت جسـدها سريعًـا ثـم توجهـت إلى غرفتهـا.. نظـرت لملابسـها الملقـاة فـوق الفـراش في ضيـقٍ ثـم ألقـت بهـا إلى الأرض.. كأنهـا تتخلـص مـن أغـلالٍ غليظـةٍ تُقيـد حركتهـا وتُكبـل روحهـا.. دسَّـت جسـدها العـاري أسـفل الغطـاء ثـم تكوَّمـت عـلى جانبهـا متخـذةً وضعيـة الجنـين كأنهـا تطلـب الحمايـة.. تمامًـا كطفـلٍ يلتمـس ذلـك الشـعور البريء بالأمـان في رحـم أمـه.. إلا أن كل تلـك المحـاولات لم تفلـح في تخليصهـا مـن تلـك المشـاعر الكئيبـة التـي سـيطرت عـلى روحهـا..

"حبنا قدر يا أكرم، مفيش حاجة هتفرقنا إلا الموت"..

تـرددت في عقلهـا تلـك الجملـة التـي قالتهـا كثـيرًا فسـالت دموعهـا، ومعهـا بـدأت ذكرياتهـا تنسـابُ مـن بئرهـا العميقة..

- ما يصحش خروجك مع أكرم بالشكل ده.
- ليه يا ماما بتقولي كده؟!
- كده وخلاص، من غير سبب.
- يبقى مش هبطل أخرج معاه.

- يـا بنتـي أنـا خايفـة عليـكي، ده واد متدلـع وأبـوه وأمـه متطلقـين.

- مش ذنبه إنهم اتطلقوا.

- بلاش تعانديني يا ليلى.

- بـلاش تجبرينـي إنـتِ يـا مامـا إني أختـار بينـك وبينـه.. لأني لـو اضطريـت للاختيـار، هاختـاره هـو.

ابتسـمت في حـزنٍ حـين تذكـرت حديثهـا مـع أمهـا آنـذاك، لمعـت عيناهـا ببريـقٍ خاطـفٍ حـين داهمتهـا ذكرياتهـا مـرةً أخـرى..

- إنتَ كده بتخلينا نخسر كل حاجة.

- مش ممكن أخسرك.

- دي ثقة بالنفس، ولا غرور.

- دي ثقة فيكي.

دمعـت عيناهـا فـور تذكرهـا ذلـك الحديـث مـع "أكـرم"، كانـت قـد واجهتـه حينهـا بعلاقاتـه الغراميـة المتعـددة.. سـالت دموعهـا حـين ضربـت عقلهـا ذكـرى حاولـت وأدهـا كثـيرًا، لكنهـا فشـلت.. أغمضـت عينيهـا في ألمٍ وهـي تسـترجع مـا حـدث كأنهـا تشـاهد فيلـمًا..

كان يحتضنهـا أسـفل صنبـور الاسـتحمام والمـاء الدافـئ ينسـاب عـلى جسـديهما حـين قالـت:

- مبروك، هتبقى أب.

تأملها "أكرم" لفـترةٍ ولم يـرد ثـم قبَّلها قُبلـةً طويلـةً، لكـن عينيْـه كانتـا تلمعـان بفرحـةٍ غامـرةٍ.. قالـت وهـي تمسـح وجههـا في صـدره المبتـل:

- لو ولد هنسميه إيه؟

- بس أنا عاوز بنت.

- برضه هنسميها إيه؟

- فريدة.

- فريدة؟!

- أيوه على اسم ماما الله يرحمها.

دعكت كتفه وصدره برغوة الصابون، ثم قالت بدلال:

- موافقة، بس على شرط.

- قولي يا ستي.

- لو ولد أنا اللي هسميه.

- وأنا موافق.

شـدته إليهـا بقـوة ثـم قبلتـه، انزلـق جسـداهما المبلـلان برغـوة الصابـون فـوق بعضهـما إلى أسـفل..

فتحـت "ليـلى" عينيْهـا فجـأةً وانقطـع شريـط ذكرياتهـا السـعيدة بقسـوةٍ.. اقشـعرَّ جلـدُ جسـدها بأكملـه، كانـت تلك العـودة إلى الـوراء مؤلمـةً بحـق.. وككل مـرةٍ كانـت تغمرهـا ذكـرى تلـك الفـترة كانـت تسـتحوذ عليهـا مشـاعر وانفعـالات لم تعلـم كيـف تُسـيطر عليهـا.. كانـت تكتفـي بسـحب الغطـاء فـوق رأسـها كأنهـا كانـت تختبـئ أسـفله مـن تلـك الذكريات..

كانـت تشـعرُ بحنـينٍ جـارفٍ نحـو "أكـرم"، لكـن الهـوة بينهـما باتـت بعيـدةً واتسـعت حتـى أمسـت شـديدة العمـق.. لم تعـد تشـعر بقدرتهـا عـلى أن تخطـو خطـوةً واحـدةً نحـوه.. للحظـةٍ رأتـه نائمًـا إلى جوارهـا أسـفل الغطـاء، ينظـر لهـا وقـد أضـاء وجهـه بتلـك الابتسـامة التـي تحفـظ تفاصيلهـا عـن ظهـر قلـب.. خُيـل إليهـا أنهـا تُحدثـه عـن كل شيء.. كل الذكريـات والتفاصيـل الصغيـرة.. سرعـان مـا أفاقـت حـين تذكـرت خيانتـه المتكـررة لهـا.. قطبـت جبينهـا في ضيـقٍ، ثـم تمتمـت في حـدةٍ:

"لم يكـن لديـك الحـق أبـدًا في إفسـاد كل مـا سـعيت لبنائـه"..

اعتدلت في الفراش ثم نظرت لساعةٍ على الحائط أمامها، كانت عقاربها قد تجاوزت الخامسة صباحًا.. لم يكن "أكرم" قد عاد للبيت بعد، أمسكت بهاتفها المحمول تطلبه.. لم يرد، بعد عدة محاولات ألقت بهاتفها على الفراش في ضيقٍ.. تأففت في سخطٍ ثم أمسكت بهاتفها تطلب رقمًا.. أتاها صوت "هشام" سريعًا جدًّا قائلًا:

- أنا كمان مش جايلي نوم.
- قابلني في عيادة أكرم دلوقتي.
- إيه؟! عيادة أكرم؟!
- بعد نص ساعة، ما تتأخرش.

كان سيقول شيئًا ولكنها أنهت عبارتها ومعها المكالمة سريعًا ثم ارتدت ملابسها على عجلٍ.. تحرَّكت بسيارتها متجهةً إلى الدقي.. نحو عيادة "أكرم"..

***

فتح "أكرم" عينيه في صعوبةٍ، كان ذهنه مشوشًا من تأثير ليلة أمس الصاخبة.. نظر حوله فتذكر أنه قضى ليلته في العيادة، اعتدل جالسًا فوق الأريكة وهو يُمسد جفنيه بأصابعه.. حين انجلت الرؤية أمامه اتسعت عيناه

عـن آخرهـما مـن الدهشـة لرؤيـة "ليـلى" و"هشـام" جالسـيْن أمامـه.. كانـت "ليـلى" جالسـةً خلـف المكتـب تُقلـب في أوراق ملـف "صبـاح"، بينـما كان "هشـام" جالسًـا عـلى المقعـد المواجـه لـه يرميـه بنظـراتٍ متشـككةٍ..

- إنتوا بتعملوا إيه هنا؟!

قالهـا "أكـرم" في صـوتٍ لا يـزال محمـلًا بآثـار النعـاس.. رمقتـه "ليـلى" لفـترةٍ، ثـم قالـت:

- إنـت إلـلى بتعمـل إيـه هنـا؟ ليـه مـا روحتـش عـلى البيـت؟

- سهرت شوية، وما حبيتش أقلقك.

- سهرت ولا كنت مع واحدة من اللي تعرفهم.

- ليلى، أرجوكِ كفاية بقى.. أنا مبقيتش.....

قاطعته في حدةٍ:

- إنت اللي كفاية، أنا خلاص مبقيتش قادرة أستحمل.

- يا ليلى أنا.....

تدخَّل "هشام" في الحديث فجأةً:

- أكرم، من فضلك كفاية لحد كده.

رمقه "أكرم" في غيظٍ، ثم قال بحدة:

- وإنت مالك أصلًا، إيه اللي دخلك في الحديث.

رمته "ليلى" بنظراتٍ مستفزةٍ، ثم قالت في هدوءٍ:

- أنا اللي دخَّلته يا أكرم.

هـمَّ "أكـرم" بالـردِّ عليهـا لكنـه تمالـك أعصابـه، توجَّـه نحـو مكتبـه وأمسـك علبـة سـجائره ثـم أشـعل واحـدةً منهـا.. نفـث دخانهـا في عصبيـةٍ، وقـال:

- ليه يا ليلى؟ ليه؟!

أجابت "ليلى" ببرودٍ غريبٍ:

- علشان يخرجنا من المصيبة اللي إحنا فيها.

ردَّ "أكرم" بتعجبٍ:

- مصيبـة إيـه الـلي بتتكلمـي عنهـا؟! أنـا مـش فاهـم حاجـة.

قـام "هشـام" واقفًـا ثـم تحـرَّك في اتجـاه الحـمَّام، وقـف عنـد بابـه ثـم أشـار بيـده للداخـل وهـو يقـول مخاطبًـا "أكـرم":

- تعالى، اتفضل شوف بنفسك.

نظـر "أكـرم" صـوب "ليـلى" متسـائلًا، لكنهـا أشـاحت بوجههـا عنـه في غضـبٍ.. تحـرَّك نحـو الحـمَّام ثـم دخلـه فصـدرت عنـه شـهقةٌ قويـةٌ، تراجـع إلى الخلـف خطوتـين حتـى كاد يقـع.. اسـتند عـلى ذراع "هشـام" وهـو يـصرخ:

- مش ممكن، إيه ده؟!

كانـت "صبـاح" عاريـةً تمامًـا، غارقـةً في حوض اسـتحمامه.. ازرقـت بشرتهـا وارتسـمت عـلى ملامـح وجههـا علامـات ألمٍ فظيـعٍ.. سـقط "أكـرم" عـلى ركبتيـه يبـكي في ألمٍ وهـو يُتمتـم بصـورةٍ أقـرب إلى الهذيـان:

- ليه كده، أنا معملتش حاجة.

لكن "ليلى" صرخت في وجهه بقسوةٍ:

- لأ، عملت.. إنت قتلتها زي ما قتلت فريدة.

امتقـع وجـه "أكـرم" واتسـعت عينـاه عـن آخرهـما ولم يـرد.. أردفـت "ليـلى" تقـول في ثـورةٍ عارمـةٍ:

- أيـوه يـا أكـرم، إنـت قتلـت بنتـك الوحيـدة.. غرَّقتهـا في البانيـو، زي مـا غرَّقـت عشـيقتك مـراة البـواب.

- مش معقول!

- لأ معقول، إنت قتلت فريدة وقتلتني معاها بخيانتك.

كانت الصدمة أكبر من قدرة عقله المضطرب من الأساس على الاحتمال، فردَّد "أكرم" في ذهولٍ:

- يبقى أنا اللي قتلت صفاء.

لم ترحمه "ليلى" وأكملت صراخها حين قالت في قرفٍ:

- طول عمرك ذوقك يقرف.

تدخَّل "هشام" في الحديث، فقال متصنعًا الهدوء:

- مش مهم دلوقتي هو عمل إيه، إحنا لازم نبلغ البوليس حالًا.

كان "أكرم" يشعر أنه في حلمٍ مريعٍ، لم يجد لديه أدنى قدرة على الرد فالتزم الصمت.. سمع صوت "ليلى" يقول في حسمٍ لم يعتده منها:

- لا، مش لازم البوليس يعرف حاجة.

نظر إليها "هشام" في دهشةٍ حقيقيةٍ، ثم قال:

- يعني إيه؟ مش فاهم.
- إحنا لازم نتخلص من الجثة دي فورًا.
- إزاي يعني؟!
- هتشيلوها إنتوا الاتنين، وترموها في أي مكان بعيد.. صعب إن حد يتعرف عليها وهي بالشكل ده.

- لكن أنا مش....

- مفيش لكن يا هشام، علشان خاطري.

كان "أكرم" لا يزال مذهولًا من وقع ما جرى، لم يسترع انتباهه تلك الطريقة التي تُخاطب "ليلى" بها "هشام".. لم يلفت نظره تلك السهولة التي استجاب بها الأخير لطلبها الغريب..

أشارت إليهما نحو سجادةٍ كبيرةٍ كانت تتوسط مدخل العيادة، أمسكت بملف "صباح" وتلك المفكرة البنية التي كان "أكرم" يدون فيها أفكاره ثم دستهما في حقيبة يدها.. تعاون "أكرم" و"هشام" على وضع "صباح" في منتصف السجادة ثم أحكموا لفها حول جثتها المبتلة.. كان الوقت لا يزال مبكرًا وقد خلا الشارع من المارة تقريبًا، لم يجدوا أدني صعوبة في وضع السجادة الملفوفة في حقيبة سيارة "هشام" الفارهة.. انطلقوا بعدها نحو طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.. وعند نقطةٍ مهجورةٍ ليست ببعيدٍ عن مصحة "هشام" تعاون كلاهما مجددًا في حمل السجادة ودفنها في وسط الرمال بعيدًا عن أعين العابرين..

***

"لا بأس بالوصول إلى هنا بالنسبة لفتى نشأ في حارةٍ قذرةٍ بتلك القرية الفقيرة".. حدَّث "هشام" نفسه بذلك وهو يقف في شرفة بيته بالطابق العشرين، الواقعة بأحد الأبراج الشاهقة في حي المعادي والمطلة على نيل القاهرة الساحر.. كان الجو صافيًا تشوبه ريحٌ باردةٌ، للمرة الأولى منذ أسبوعٍ أضاءت شمسٌ ساطعةٌ السماء..

وعلى الرغم من صفاء الجو إلا أن عقله رفض أن يصفو.. داعبت ذهنه ذكرياتُ طفولته البائسة، كانت طفولته حقًّا شاقة.. طفولة تتسم بالفقر وضنك العيش.. حياة معدمة، كان وأسرته يأكلون في الغالب مما يجود به عليهم الآخرون.. الناس الأكابر كما كان يسمع أمه تسميهم دومًا..

مات أبوه منذ زمنٍ بعيدٍ وتركه طفلًا صغيرًا، ترك أمه وحيدةً ترعى خمسة أبناء.. لم تكن حياتها سهلةً أبدًا بعد رحيل أبيه، لكنها تدبرت أمرها بمفردها لتربي أبناءها قدر استطاعتها.. عملت بجهدٍ كبيرٍ، عملت أحيانًا عملين وثلاثة لتوفر لهم عيشة بالكاد تفي بحاجاتهم الضرورية.. خادمة، دلالة وحتى نائحة في أوقات الموت.. لم تنفر أبدًا من عملٍ، تحمَّلت في صبرٍ الإهانات المتكررة التي نالتها من جراء تلك الأعمال.. ولأنها كانت غريبةً عن قرية

أبيهم، لم يكن لديها من يمكنها الإعتماد عليه.. لم يكن في بيتهم غسالة أو ثلاجة، لكنهم كانوا يأكلون دومًا ما يشبعهم.. ولم يكن ما يشبعهم كثيرًا..

كان "هشام" هو الوحيد بين إخوته الذي نجح في تعليمه، تسرَّب الباقون في مراحل التعليم المختلفة.. كان يشعر أن التعليم هو طوق نجاته الأخير في مواجهة خضمِّ أمواج الحياة القاسية..

وعلى الرغم من كل الشقاء الذي كانت تُكابده أمه، لم يرها قط تعتني بنفسها كأنثى أو حتى تستمتع ببعض المتع البسيطة.. كان همها الوحيد هو تربية أبنائها، على الرغم من افتقارها للتعليم إلا أنها حرصت على بذل كل طاقتها ليواصل تعليمه حين وجدت لديه ميلًا وتفوقًا.. حقًّا كانت تفتقر إلى العلم، لكنها كانت تمتلك قلبًا كبيرًا.. حبًّا هائلًا دائمًا غير مشروطٍ.. كانت تُردد على سمعه دومًا:

"سوف تكون شخصًا عظيمًا في يومٍ من الأيام، تذكر ذلك دائمًا.. لا يمكن أن يضيع عمري هباءً"..

جفَّف دموعه التي تساقطت حين تذكَّر ما كانت تقوله.. دخل من الشرفة ملقيًا بجسده فوق كرسيه المفضل، كرسي "الولد الكسول" الذي كلفه شراؤه مبلغًا

يُعادل قيمة شراء غرفة طعام لأسرةٍ متوسطة الدخل.. فرد ساقيه على الكرسي ومعها تمددت ذكرياته حتى استحوذت على عقله كله..

كانت أمه هي شمسه التي يدور في فلكها، تُنير حياته بأكملها خلال سنوات الصبا والشباب.. كانت هي حارسه الذي يحرسه ليلًا من فزع الكوابيس، طبيبه الذي يُداويه في المرض.. كانت ملاكه الذي يُباركه بالدعاء، تترك له القليل من المال وتواسيه بكلماتٍ رقيقةٍ حين يُذكره أولاد القرية بيتمه..

كانت أمه كل شيء في حياته، قبل أن يذهب إلى الجامعة.. حينها ظهر بينهما حاجزٌ غريبٌ، بدأ يفرق بينهما شيئًا فشيئًا..

اكتشف عالم القاهرة الساحر، تلك العمارات السكنية الفاخرة والشوارع الواسعة.. لمراتٍ عديدةٍ كان زملاؤه يدعونه لبيوتهم فبدأ يشعر بالخجل من أمه.. لم يكن يتودد إليه سوى الأثرياء طمعًا في أن يمنحهم شرحًا لما يستعصي على عقولهم الكسولة، على أقل تقديرٍ أن يعاونهم بإجابةٍ ولو مختصرةً في الإمتحانات.. كان تفوقه سببًا في ازدياد شعوره بالنقمة على أمه.. بدأ يخجل من لهجتها الريفية وعاداتها التي أصبح يسميها بالمتخلفة..

لأول مـرةٍ في حياتـه شـعر أن كل هـذا الحـب الـذي كانـت تحوطـه بـه مزعـجٌ، بـدأ يتحـرر منـه تدريجيًّـا..

بعـد تخرجـه بتقدير جيـد جـدًّا وتعيينه في هيئـة التدريس بالجامعـة لم يسـهم ذلـك في تحسـين علاقتـه بأمـه.. بـل عـلى العكـس زاد مـن حنقـه عليهـا وخجلـه منهـا.. أصبـح خجلـه مضاعفًـا، منهـا ومـن إخوتـه، كان يـرى أنـه مـن غـير اللائـق أن يكـون إخوتـه غـير متعلمـين.. ركـز كل جهـده لارتقـاء سـلم النجـاح، لكـن جانبًـا صغـيرًا في نفسـه كان يلومـه ويؤنبـه عـلى الـدوام.. يُحملـه الذنـب ويُخـبره أن هـذه السـيدة لا تحتـاج لمالـه فقـط، لكنهـا تحتـاج إلى حبـه ورعايتـه أكـثر..

وفي أحـد تلـك الأيـام جـاءه اتصـالٌ مـن أخٍ لـه يُخـبره بوفاتهـا، ينبئـه أنهـا أوصتـه قبيـل موتهـا أن يبلغـه السـلام.. عـاوده آنـذاك ذلـك الحـب الطفـولي الـذي كان يحـس بـه معهـا.. عضـه النـدم وتسـلطت عليـه سـياط كل اللحظـات التـي كان فيهـا جاحـدًا تجلـده في قسـوة..

ومنـذ ذلـك الحـين لا يمـرُّ يـومٌ دون أن يُفكـر فيهـا، أصبـح يـواسي نفسـه بـأن كل نجـاح يحققـه هـو في الأصـل نجـاحٌ لهـا.. مكافـأةٌ لهـا عـلى شـقائها فيـما مـضى.. وكلـما صـادف في الطريـق امـرأةً منهكـةً تعبـةً ترتـدي ملابـس باليـةً تـراءت لـه صـورة أمـه فيبـكي.. يأسـف لأن الأوان كان قـد فـات.. فـكل

شيء وأي شيء كان يفعلـه لإحيـاء ذكراهـا كان لا يمكـن أن يحـل أبـدًا محـل الوقـت الـذي لم يقضـه معهـا، عندمـا كانـت لا تـزال حيـةً..

قـام "هشـام" واقفًـا مـن فـوق الكـرسي، محـاولًا إبعـاد تلـك الأفـكار التـي كانـت تجعلـه ضعيفًـا جـدًّا.. نظـر في سـاعة يـده السـويسرية الصنـع، كانـت عقاربهـا تشـير للعـاشرة صباحًـا.. توجـه إلى غرفتـه ليسـتعد للقـاء "ليـلى" و"أكـرم"..

نظـر إلى خزانـة ملابسـه المتخمـة عـن آخرهـا بأغـلى المـاركات وأشـهرها، اختـار بذلـةً تظهـر قوامـه ثـم نظـر نحـو المـرآة الكبـيرة التـي تتوسـط خزانـة الملابـس وتمتـم:

"لم يتبـق لي سـوى حلـم واحـد فقـط، لـن أتنـازل عنـه أبـدًا.. أنـت يـا ليـلى"..

***

(١٢)

جلس "معتز" خلف مكتبه يُفكر بعمقٍ في تلك القضية الشائكة التي بات يظن أنها ستنهي مستقبل عمله في المباحث.. كان هاتفُه المحمول لم يتوقف عن الرنين منذ أن تناثرت الأخبارُ بأمر اقتحام شقة "صفاء".. كل المكالمات كان مضمونُها واحدًا، خلاصته أن مستقبله متوقفٌ على حلِّ غموض هذه القضية.. دار بصرُه في حيرةٍ ما بين ملف القضية وتلك المطفأة التي امتلأت عن آخرها بأعقاب السجائر.. تأفف في ضيقٍ وهو يفض غِلاف علبته الثانية منذ فجر اليوم.. أشعل سيجارته ثم نفث دخانها بحدةٍ وصاح على أحد العساكر يطلب كوبًا من القهوة السادة..

دخل "عمرو" إلى الغرفة فجأةً وهو يقول:

- يـاسر شـعبان الدسـوقي، زوج القتيلـة التانيـة بـره يـا باشـا.

- خليه يدخل بسرعة.

اعتـدل في جلسـته، تظاهـر بإجـراء تلـك المكالمـة الوهميـة كعادتـه.. دخـل "يـاسر الدسـوقي" إلى الغرفـة بخطـواتٍ مضطربـةٍ، هيئتـه وملبسـه تـدلان عـلى تواضـع مسـتوى معيشـته.. طويـلٌ عريـضٌ، ممتلـئ الجسـم.. لـه رأسٌ كبـيرٌ يرتكـز عـلى رقبـةٍ قصيرةٍ غليظـةٍ، تحـس أن رأسَـه بـلا رقبـةٍ.. وجهـه حليـقٌ بـلا اهتـمامٍ، أنفـه مفطـوسٌ وشـفتاه غليظتـان.. شـعره أسـود غزيـرٌ يُغطـي جبهتـه، يـكاد يتلامـس مـع حاجبيْه الكثيفـين المتلاصقـين.. ذراعـاه طويلتـان متدليتـان إلى أسـفل، تشـعر أنهـما شـارفتا عـلى تجـاوز ركبتيـه..

كل ملامحـه وأوصافـه تـكاد تكـون متطابقـةً بالضبـط مـع مـا درسـه "معتـز" في كليـة الشرطـة مـن نظريـة علـم الإجـرام الشـهيرة للعـالم الإيطـالي "لومـبروزو".. تشـعر أنـه لا يُفكـر كـما يُفكـر النـاس، لا يشـغل بالـه بمـا يشـغل بالهـم..

تسـمَّرت عينـا "معتـز" حـين وجـد بصحبـة "يـاسر" طفـلًا صغـيرًا، خمَّـن عـلى الفـور أنـه ابـن القتيلـة.. كاد أن يفقـد تماسـكه بعـد أن ذكَّرتـه رؤيتـه لهـذا الصغـير بابنـه "أدهـم".. أنهـى مكالمتـه الزائفـة ثـم نهـض مصافحًـا "يـاسر"، تعجَّـب

مـن اللـين والرقـة اللذيْـن ظهـرا في يـد الأخـير عنـد مصافحتـه.. أشـار إليـه بالجلـوس ثـم أخـبر "عمـرو" أن يذهـب بالصغـير إلى غرفـةٍ أخـرى، لكـن "يـاسر" انتفـض واقفًـا وقـال في ذعـرٍ:

- محمود مش هيبعد عني لحظة واحدة.

رمقه "معتز" بعينٍ فاحصةٍ، ثم قال بهدوءٍ:

- مـا تقلقلـش يـا أسـتاذ يـاسر، إحنـا كنـا هنجيبلـه عصـير أو أي حاجـة.. في كلام هنقولـه مـا ينفعـش ولـد في سـنه يسـمعه.

- اتفضـل سـيادتك قـول كل حاجـة، إحنـا مـا بنخبيـش حاجـة عـلى ابننـا.

- براحتك يا عم ياسر.

أنهـى عبارتـه الأخـيرة ثـم تعمَّـد التـزام الصمـت فـترةً للضغـط عـلى أعصـاب "يـاسر"، اسـتغل هـذه الفـترة في إشـعال سـيجارةٍ جديـدةٍ.. ثـم نظـر نحـوه مـن بـين دوائـر دخانهـا المتراقـص، وسـأله:

- هي المرحومة كانت إيه علاقتها بصفاء عبد الحميد؟

- معرفش.

- يعني إيه متعرفش؟

- يعني معرفش.

- إنت مش جوزها يا عم ياسر واللا إيه؟

تغاضى "ياسر" عن لهجة "معتز" المستفزة، نظر بعينيه إلى الأرض، ثم قال:

- أيوه جوزها لكن معرفش حاجة عنها.

رمقه "معتز" بعينٍ خبيرةٍ، ثم قال متسائلًا:

- إزاي يعني؟! ممكن توضحلي!

تنهد "ياسر" طويلًا كأنه يزيح حملًا ثقيلًا من فوق صدره، ثم قال:

- أنا وإيمان كنا بنشتغل في سنترال المنشية، كمان كنا جيران في باكوس.. إيمان طول عمرها حلوة وشقية، كل شباب المنطقة كانوا حاطين عينهم عليها.. لكن هي ما كانش في حد يملى عينها أبدًا.

صمت "ياسر" فجأةً، حاول "معتز" تشجيعه على استكمال الحديث فقال ملطفًا من حدة التوتر:

- هاتلنا طقم ليمون يا عمرو، مش معقولة الكابتن محمود يجيلنا وما نقومش معاه بالواجب.

غـادر "عمـرو" عـلى الفـور منفـذًا تعليماتـه عـلى حـين التفـت هـو نحـو "يـاسر" قائـلًا:

- وبعدين يا أستاذ ياسر، كمِّل من فضلك.

رمـاه "يـاسر" بنظـرةٍ حزينـةٍ ثـم شرد ببـصره جهـة اليمـين كأنـه يتذكـر أحداثًـا ماضيـةً:

- كنـت دايمًـا بمـشي وراهـا وهـي رايحـة السـنترال، حتـى لمـا كانـت بـتروح برضـه كنـت بمـشي وراهـا.. كنـا بنركـب مـع بعـض الـترام.. هـي كانـت شـايفاني، لكنهـا مـا كانتش بتعـترض عـلى الـلي بعملـه.. كانـت فرحانـه إني بمـشي وراهـا.. هـي قالـت لي إنهـا كانـت حاسـة إني البـودي جـارد بتاعهـا...

- وبعدين..؟

- في يـوم وإحنـا مروحـين لقيتهـا بتعيـط، كانـت حالتهـا صعبـة قـوي.. مقدرتـش أشـوفها في الحالـة دي، سـألتها فقالـت لي إن واحـد مـن ولاد المنطقـة عشـمها بالجـواز وبعديـن ضحـك عليهـا..

صمـت "يـاسر" مجـددًا فأخـرج "معتـز" سـيجارة مـن علبتـه وأعطاهـا لـه، شـكره "يـاسر" ثـم قـال بعـد أن سـحب نفسًـا طويـلًا:

- اليـوم ده كان أول مـرة أخـرج معاهـا، رحنـا عنـد بـير مسـعود.. نامـت عـلى كتفـي وحكتـلي عـلى كل حاجـة.. أمهـا وأبوهـا، إخواتهـا.. كل حاجـة.. قالـت لي إنهـا خايفـة لـو عرفـوا الـلي حصلهـا يموتوهـا.. قلـت لهـا إني مسـتعد أتجوزهـا.. فرحـت قـوي وباسـتني في خـدي..

سـالت دموعـه وهـو يمسـح بيـده عـلى خـده فحثـه "معتـز" عـلى الإكـمال بعـد أن منحـه منديـلًا ورقيًـا.. جفَّـف دموعَـه، ثـم قـال:

- اتجوزنـا، وفي اليـوم الأول عرفـت إنهـا مـش بنـت بنـوت.. هـي صحيـح مـا حكتليـش الحكايـة دي، لكـن أنـا قلـت أكيـد النـدل الـلي ضحـك عليهـا هـو السـبب.. بعـد شـهر واحـد عرفنـا إنهـا حامـل..

- منك؟

- مـش مهـم، المهـم إنهـا كانـت حامـل.. قضينـا أحـلى فـترة في حياتنـا لغايـة لمـا جالنـا محمـود.. مـن سـاعتها حياتنـا اتبدلـت.

- إزاي؟

- إحنـا اتجوزنـا في شـقة أمـي في باكـوس، ودي منطقـة شـعبية زي مـا سـيادتك عـارف.. إيمـان مـا كانـش عاجبهـا

العيشة في المنطقة، الله يرحمها كان طموحها كبير جدًّا.

- طموحها كبير، قصدك إيه؟

- قصدي إنها كانت عاوزة تسكن على الكورنيش وتركب عربيات وتسهر، وأنا طبعًا موظف على قدّ حالي.. فوجئت بيها في يوم بتقول لي إنها استقالت من السنترال، هتشتغل مع رجل أعمال عنده شركة شحن بحري.. وافقت لما لقيت المرتب كويس وممكن يساعد في مصروف البيت.. بدأت تتأخر وألاحظ الفلوس الكتير اللي بقت في إيدها.. بعد فترةٍ قالت لي إنها مش هتقدر تكمل معايا.

- كانت عاوزة تطلق؟

- لا بالعكس، هي بس كانت عاوزة تعيش لوحدها.

- وبعدين؟

- أنا رفضت طبعًا، بدأت الخلافات تزيد بينا.. ومعاها بدأت هداياها اللي بتيجي البيت تزيد أكتر.. مرة تليفزيون، ومرة دِش.. مرة خاتم ذهب ومرة سلسلة.. بدأت الناس تتكلم علينا في المنطقة.. في الآخر وافقت على طلبها، وهي قالت إنها خلاص مش هتعيش في

إسكندرية.. قالت لي إنها جايلها شغل مهم قوي في القاهرة.. ومن ساعتها وإحنا منعرفش عنها حاجة، كل كام شهر تيجي تشوف محمود وتسيب قرشين.. وبعدين تمشي.

حانت من "معتز" نظرة خاطفة نحو الصغير "محمود"، لمحها "ياسر" فقال على الفور:

- حتى لو مش ابني يا باشا، فأنا حاسس إنه ابني.. أنا حاسس إن ربنا بعتني للواد ده علشان أربيه بدل أبوه وأمه.

شعر "معتز" بغصةٍ في حلقه من حكاية "ياسر"، شعر أنه قد ظلمه حين حكم عليه من مظهره.. تمالك نفسه سريعًا، ثم عاد مجددًا يسأله:

- طيب يا عم ياسر، مسمعتش إن المرحومة كانت تعبانة أو بتتعالج من حاجة.

- لا يا باشا، على حد علمي كانت صحتها كويسة.

صمت لوهلةٍ، ثم قال كأنه تذكَّر شيئًا:

- لكن هي مرة قالت لي إن أعصابها تعبانة من الشغل، وإنها بتروح تعمل جلسات نفسية.

انتفض "معتز" في مقعده، فقاطعه في لهفةٍ:

- عند الدكتور هشام وهدان، مش كده؟
- لا يـا باشـا، كانـت مـرة نسـيت عندنـا روشـتة مكتـوب عليهـا اسـم الدكتـور أكـرم رشـدي.

***

أدارت "ليـلى" مشـغل الأسـطوانات فانسـابت موسـيقى رائقـة في فضـاء الصالـة.. كانـت تعشـق هـذه الأغنيـة بكلماتها التـي تبـث فيهـا دومًـا حالـةً غريبـةً مـن النشـوة، لم تفلـح أبـدًا في أن تجـد لهـا سـببًا.. انسـابت في الأجـواء دندنـة صـوت "عبـد الوهـاب" الدافـئ، يتغنـى بكلـمات أمـير الشـعراء "أحمـد شـوقي":

مُضْنَـاكَ جَفَـاهُ مَرْقَدُهُ .. وَبَـكَاهُ وَرَحَّـمَ عُـوَّدُهُ
حَـيْرَانُ الْقَلْـبِ مُعَذَّبُهُ .. مَقْـرُوحُ الْجَفْنِ مُسَـهَّدُهُ

تحركـت نحـو المطبـخ لتُعـد فنجانًـا مـن القهـوة، وهـي تُـردد كلـمات الأغنيـة في انسـجامٍ تـامٍّ.. كان بـاب غرفـة النـوم مواربًـا فمالـت بجزعهـا جانبًـا تختلـس النظـر إلى "أكـرم".. لمحـت أنـه مغمـضُ العينـين وقـد غمـرت وجهَـه مسـحةٌ مـن الحُـزن الدفـين.. تمامًـا كـما كانـت تنظـر إليـه في المـاضي وهـو نائـمٌ.. خفـق قلبهـا بشـدةٍ، فرغـم كل شيء كانـت دومًـا

مولعـةً بـه، مجنونـةً بعشـقه.. أغمضـت عينيْهـا وهـي تُغلـق عليـه بـاب الغرفـة..

دخلـت إلى المطبـخ دون أن تعـرف سـببًا واضحًـا لهيامهـا بـه، لم تفهـم ذلـك أبـدًا.. كان بينهـا وبينـه نـوعٌ مـن الترابـط الروحـي، صبَّـت قهوتهـا وهـي تبتسـمُ حـين تذكَّـرت ذلـك التناقـض الغريـب في شـخصيته.. ربمـا كان ذلـك مـا دفعهـا للتعلـق بـه مـن الأسـاس.. هـزتَّ رأسَـها وهـي تتـذوق قهوتهـا ثـم تمتمـت تُحـدِّث نفسَـها:

"لا يهم، المهم أني أعرفه كما لم يعرفه أحدٌ غيري"..

جلسـت عـلى مقعـدٍ وثـيرٍ في الصالـة بعـد أن أمسـكت في يدهـا بالملـف الأخـضر ومفكـرة "أكـرم" الشـخصية، اللتـين أخذتهـما مـن عيادتـه صبـاح اليـوم.. تفحصـت أوراق الملـف فوجـدت بعـض المعلومـات عـن "صبـاح"، قليـلًا مـن المعلومـات الطبيـة عـن حالتهـا وتحليـلًا لشـخصيتها مكتوبًـا بخـط "أكـرم" المنمـق.. ألقـت بالملـف عـلى أريكـةٍ مجـاورةٍ بعصبيـةٍ شـديدةٍ ثـم أمسـكت بالمفكـرة.. تناولـت رشـفةً مـن قهوتهـا ثـم شرعـت في قـراءة مـا دوَّنـه "أكـرم" بهـا.. أصابهـا وجـومٌ بعـد قراءتهـا لبضعـة أسـطر.. لمعـت الدمـوعُ في عينيْهـا، لكنهـا سرعـان مـا سـيطرت عـلى نفسـها وأكملـت القـراءة..

"لا أعلم حقًّا ما الذي دفعني إلى الإقدام على الإمساك بهذا القلم، فأنا كما تعلمين لا أحب كتابة الرسائل.. لأنها لا تحمل لي سوى معنى واحدٍ فقط.. الفراق.. لكنني مشتاقٌ إليك.. لا قدرة لديَّ على تخيُّل فراقك، لا معنى للحياة عندي بدونك..

لكن.. لعلها الرغبةُ في البوْح ببعض الأشياء التي عجزتُ عن قولها في مواجهتك.. أو ربما هي تلك الظلمة والوحدة اللتان باتتا تُحاصرانني حتى كادتا تذهبان بما بقي لي من عمرٍ معدودٍ..

على كل حالٍ لم يعد ذلك يهمُّ كثيرًا.. فأنا لم أشعر بالسعادة سوى معك، أتمنى أن نعود كما كنا.. أعشق قدرتك على رؤيتي من الداخل، على فهمي دون أن أحتاج إلى الكلام..".

مرتجفةً ومضطربةً رفعت "ليلى" عينيها الدامعتين عن المفكرة، توقَّف عقلُها عن التفكير تمامًا.. عاد "أكرم" يُسيطر عليها بقوةٍ، تحرَّك مرةً أخرى من ذلك الركن القصي في رأسها ليستحوذ على كيانها بأكمله.. قامت من مكانها واتجهت نحو النافذة التي تطل على الشارع، ترقب الحياة من خلف زجاجها.. كان الطقسُ قد بدأ يغيم ولاحت السحب الرماديةُ في الأفق، سرعان ما انهمر

مطـرٌ غزيـرٌ.. عـادت إلى مكانهـا فـوق المقعـد ومسـحت دموعَهـا بكفهـا.. تسـاءلت عـما حـلَّ بـه، أيرغـب حقًّـا فيهـا لهـذه الدرجـة؟..

أمسـكت بالمفكـرةِ مـن جديـدٍ وشرعـت في اسـتكمال القـراءة.. ولا يـتردد في عقلهـا سـوى كلمـةٍ واحـدةٍ.. "أكـرم".

"كـم اشـتقت لضمـك مـن جديـدٍ، لكـن مـا يُعزينـي هـو طيفـك الـذي لا يُغـادرني لحظـةً.. لـو علمـت مـدى لهفتـي عـلى إحاطتـك بذراعـيَّ كـما كنـا نفعـل لربمـا غفـرت لي كل شيء..

أعلـم أني آذيتـك كثـيرًا، لكنـي لم أسـتطع التوقـف.. كنـتُ أرى تلـك النظـرة الحزينـة اللائمـة في عينيـك، لا أجـرؤ عـلى مواجهتهـا ولا أجـدُ تفسـيرًا لمـا فعلتـه.. لم أعـد أعـرفُ عـن أي شيء أطلـب الغفـران، فـكل شيء في حيـاتي لم يكـن إلا خطيَّـة..

لم يعـد بوسـعي أن أُخفـي عنـك شـيئًا بعـد أن كَلَّ عقـلي ووهـن مـن التفكـير.. لم يبـق أمامـي سـوى الاعـتراف أمامـك، حتـى وإن كان عـلى أوراق هـذه المفكـرة..

أنـا مريـضٌ.. قـد تتعجبـين مـن كلـماتي هـذه.. لكنهـا الحقيقـة التـي لا أدري كيـف أو متـى تشـكلت حتـى باتـت واقعًـا ملموسًـا، لا أقـوى عـلى التغلـب عليـه أو حتـى عـلى

أقـل تقديـرٍ تجاهلـه.. وأكـثر مـا يُخيفنـي هـو أن تنتهـي حياتنـا معًـا..

فقبلـك كانـت الحيـاة عاديـةً، أمـا معـك فقـد أصبحـت حيـاتي حقيقيـةً..

فأنت وحدك من ملكت قلبي..″

انتبهـت عـلى صـوت جـرس البـاب، فتحـت عـلى الفـور كأنهـا تعـرفُ الطـارق..

- مساء الخير يا أفندم، يا ترى الدكتور أكرم موجود؟

تسـمَّرت في مكانها بعـد أن فوجئـت بهـذا الغريـب الـذي يسـأل عـن ″أكـرم″، لكنهـا تمالكـت نفسـها وقالـت بهـدوءٍ:

- مين حضرتك؟

- المقدم معتز الشامي، مباحث القاهرة.

ارتجفـت عيناهـا قليـلًا، لكنهـا أفسـحت لـه المجـال سـامحةً لـه بالدخـول.. أوقفـت مشـغل الأسـطوانات، ومعـه توقـف صـوت ″عبـد الوهـاب″.. جـال ″معتـز″ ببـصره في أنحـاء الشـقة كأن عينـه المدربـة تـأبى التوقـف عـن أداء عملهـا ولـو لفـترةٍ قصـيرةٍ.. انتبـه عـلى صـوت ″ليـلى″ تقـول في رصانـةٍ بعـد أن أشـارت إليـه بالجلـوس عـلى أحـد المقاعـد الوثـيرة:

- أي خدمة يا سيادة المقدم؟

تأمل "معتز" مظهرها بعينه المتفحصة، لاحظ تورمًا واحمرارًا في جفنيْها.. أرجع سببه لقلة نومها أو كثرة بكائها، لكنه تجاهل ملاحظاته حين جلس وسألها:

- الحقيقة إحنا كنا عاوزين ناخد رأي الدكتور في قضية مهمة .
- تقصد قضية صفاء عبد الحميد؟

ارتسمت على شفتيْ "معتز" ابتسامةٌ خبيثةٌ، ثم قال في هدوء:

- مش بالضبط، لكن موضوع متعلق بالقضية.

قالت "ليلى" على الفور:

- يبقى لازم حضرتك تقصد موضوع قتل إيمان الشهاوي.

لمعت عينا "معتز" بقوةٍ، واعتدل في جلسته ثم قال في هدوءٍ شديدٍ:

- وحضرتك عرفتي منين؟
- مش فاهمة قصد حضرتك؟
- عرفتي منين إنها اتقتلت؟

توترت عضلاتُ عينيْها، لكنها سرعان ما سيطرت على أعصابها وقالت:

- من الجرايد طبعًا، همَّا وراهم حاجة غير الموضوعات دي.
- بس الجرايد ما نشرتش حاجة عن موضوع إيمان.
- أيوه ما هو.....

أنقذها صوتُ جرس الباب فقامت مسرعةً وهي تمتم بعبارات الاعتذار، كان "هشام وهدان" هو الطارق.. دخل على الفور للصالة، لكنه تسمَّر لوهلةٍ حين وقعت عيناه على "معتز".. ارتسمت على ملامح الأخير ابتسامةٌ وقال بلهجةٍ مرحةٍ:

- ده الحبايب كلهم هنا.
- أهلًا سيادة المقدم.

ردَّ "هشام" بطريقةٍ مقتضبةٍ، وحانت منه نظرةٌ سريعةٌ نحو "ليلى" التي قالت:

- سيادة المقدم كان عاوز ياخد رأي أكرم في قضية صفاء عبد الحميد.
- قصدك في قتل إيمان الشهاوي.

قالها "معتز" بنبرةٍ تحمل الكثير من المعاني في باطنها، رمقه "هشام" في حدةٍ ثم قال متصنعًا الهدوء:

- أؤمر يا معتز بيه، ممكن نساعدك إزاي؟

- أُمال فين الدكتور أكرم؟ هو مش موجود واللا إيه؟!

قالها "معتز" وهو يفتش بنظره في أنحاء المكان، قالت "ليلى" على الفور:

- موجود طبعًا، هو بس تعبان ونايم شوية. تحب نصحيه لحضرتك؟

شرع "معتز" في الإجابة لكن رنين هاتفه المحمول قاطعه، ردَّ على الفور حينما رأى اسم "عمرو" يلمع فوق الشاشة.. جاءه صوته يقول بنبرةٍ سريعةٍ:

- باشا، داليا اتصلت وبتقول لحضرتك إنها هتكون في مكتبك خلال نص ساعة.

- تمام، حالًا هكون عندك.

أنهى المكالمة ثم انتصب واقفًا، رمى نظراتٍ ثاقبةً نحو "ليلى" و"هشام" حين قال بلهجةٍ ذات مغزى:

- هنتقابل تاني، قريب جدًّا.

انصرف مغادرًا بعد أن تركهما خلفه غارقيْن في بحرٍ من التساؤلات ودواماتٍ من القلق.

***

(١٣)

- هنعمل إيه دلوقتي؟

قالتها "ليلى" حين أخذت تتمشى في الصالة بخطواتٍ عصبيةٍ، تأملها "هشام" لوهلةٍ، ثم قال دون تردد:

- هنعمل اللي اتفقنا عليه طبعًا.

- طيب والضابط، هنعمل معاه إيه؟

- عادي، سيبك منه.. كل حاجة هتمشي زي الخطة بتاعتنا بالضبط.

صمت قليلًا ثم قال بعد أن لاحظ الارتباك الذي بدا عليها:

- مش إنتِ بتدي لأكرم الدواء زي ما اتفقنا؟

- أيوه.

- يعني بياخده بانتظام وغيرتي العلبة زي ما قلت لك؟

قالت بنفاد صبرٍ:

- قلت لك أيوه.

- خلاص، يبقى مفيش داعي للقلق.. مش ممكن أكرم يشك في حاجة، كلها أيام أو ساعات ونخلص من كل حاجة.

أنهى عبارته الأخيرة ثم اقترب منها يحاول احتضانها، لكنها تملصت مبتعدةً عنه بسرعةٍ ثم قالت:

- من فضلك يا هشام، الوقت مش مناسب.

أومأ "هشام" برأسه وأطرق بنظره إلى الأرض، قال بعد فترةٍ من الصمت:

- أكرم لسه نايم؟

لم تُجبه "ليلى" واكتفت بإيماءةٍ خفيفةٍ من رأسها، فقال بعد أن فقد الأمل في استمالتها:

- طيب أنا هطلع على العيادة دلوقتي، هكلمك بالليل علشان ننفذ باقي الاتفاق.

ألقت بجسدها المنهك على أحد مقاعد الصالة الوثيرة بعد أن انصرف "هشام".. تناولت مفكرة "أكرم" تُحاول

استكمال قراءة ما دوَّنه فيها، لكنها أمسكت برأسها حين عصف به صداعٌ فظيعٌ.. كان عقلها يُواجه معركةً طاحنةً، تتنازعه أفكارٌ كثيرةٌ متضاربةٌ بعد أن قرأت رسائل "أكرم"..

توجَّهت نحو غرفة النوم مترنحةً بعد أن دار رأسها من شدة الألم، كان "أكرم" لا يزال نائمًا يكسو وجهه الحزن.. أمسكت بحقيبة يدها تفتش فيها، توترت أعصابها حين أخرجت علبة دواء.. جلست على حافة الفراش تتأمل جسد "أكرم" الممدد، أخذت تُجيل بصرَها بينه وبين المفكرة.. فتحت علبة الدواء تهم أن تأخذ منها حبةً، لكنها سرعان ما ألقت بالعلبة بعيدًا على الأرض.. كانت قد امتنعت عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم" منذ فترةٍ طويلةٍ، قبل حادث وفاة "فريدة" بقليلٍ..

- ما سمعتكيش وإنتي داخلة!!

غمغم"أكرم"وهو يفتح عينيه بوهنٍ بعد أن أزعجه صوتُ سقوط علبة الدواء على أرضية الغرفة.. تأملته "ليلى"فترةً ثم قالت:

- عامل إيه دلوقتي؟

أومأ "أكرم" برأسه في بطءٍ ولم يرد، أمسك برأسه حين حاول النهوض فدارت الدنيا من حوله.. سألته "ليلى":

- أعملك قهوة؟

هزَّ "أكرم" رأسه نافيًا ثم تمتم بحروفٍ مقتضبةٍ:

- متشكر.

كان الارتباك يفرد أشرعته عليهما، كانا كحبيبين يخشى كلٌّ منهما الإفصاح عن مشاعره للآخر.. قامت تُغادر الغرفة، لكن "أكرم" لمح مفكرته الخاصة في قبضتها فقال على الفور:

- قرأتي كل اللي فيها؟

توقفت عن الحركة ثم التفتت نحوه، نظرت في صفحة عينيه.. رأت فيهما حياتها بأكملها، تجسدت أمامها كل ذكرياتهما الماضية من جديدٍ.. كادت أن تبكي، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- ما كنتش أعرف إنك بتكتب حلو.

ابتسم "أكرم" حين أجابته، وقال بنبرةٍ حانيةٍ:

- بقالنا كتير ما اتكلمناش مع بعض، خليكي جنبي.. من فضلك.

توترت عضلاتُ وجهها، وبدا عليها أنها تقاوم شيئًا.. لكنها في نهاية الأمر استجابت، وعادت إلى مكانها على

حافـة الفـراش تلتـزم الصمـت.. قـال محـاولًا كـسر حاجـز الصمـت الـذي طـال بينهـما:

- عمـر الحيـاة مـا هيكـون لهـا معنـى لـو مقدرنـاش نعيشـها مـع الـلي بنحبهـم.

امتلأت عيناها بالدمـوع، لكنهـا حدقـت فيـه بغضـبٍ ولم تـرد.. فاسـتطرد قائـلًا:

- أنا مفيش حاجة عندي أهم منك، أنا طول عمري.....

قاطعته في حدةٍ، ومع كلماتها انهمرت دموعها بغزارةٍ:

- أنـا عمـري مـا حلمـت إني أتجـوز شـخص خـالي مـن العيـوب، كل حاجـة ممكـن تتصلـح.. لـو كنـا عاوزيـن نصلحهـا.

التـزم "أكـرم" الصمـت، فقذفـت بالمفكـرة نحـوه في عصبيـةٍ واضحـةٍ، ثـم أردفـت بنـبرةٍ غاضبـةٍ:

- ليـه؟ ليـه مـا صارحتنيـش قبـل كـده بمشـاعرك.. كان ممكـن تواجهنـي، تقـول لي عـلى مشـاكلك.. كان ممكـن أحـس إنـك عـلى الأقـل بتثـق فيـا.

- مـش ممكـن تفهمـي، أنـا حيـاتي كانـت جحيـم.. عيلتـي كانـوا.....

لم تدعه يُكمل، فقاطعته بصوتٍ خرج مبحوحًا من بين دموعها:

- مين قالك، أنا عارفه ظروفك كويس.. عارفه قد إيه كان صعب عليك إنك تبعد عن أمك وأبوك، لكن أنا مش هما.. أنا بحبك يا أكرم.

انكفأت بوجهها فوق الفراش تنتحب بحُرقةٍ، بقي "أكرم" ينظر إليها من بين عينيْه اللتيْن تلألأت فيهما الدموع.. بعد فترةٍ من الصمت خرج صوته بطيئًا هادئًا بصورةٍ لافتةٍ حين قال:

- بعد لما حصل الانفصال بينهما، فضلت مع أمي فترة.. في شقة الدقي، لكن ما قدرتش أستحمل كتير.. أمي كانت ست متحررة، خروج وسهر وحفلات.. وفي يوم كنت نايم، سمعت حركة بره أوضتي.. خفت، صور لي خيال الأطفال إن ممكن يكون حرامي عرف إننا لوحدنا أنا وهي فقرر إنه يسرقنا أو يخلص علينا.. خرجت من الأوضة وأنا بأرتعش من الخوف، لكن خوفي عليها كان أكبر.. وصلت لباب أوضتها لقيتها منورة، والباب كان متوارب.. سمعت صوت أمي بتصرخ، حاولت أمد إيدي أفتح الباب لكن خوفي غلبني.. قلت أبص الأول، لكن.....

صمت "أكرم" تمامًا وبدا شاردًا، كأن لسانه يعجز عن النطق.. دنت منه "ليلى" ومسحت بكفها على خده.. كان وجهه شاحبًا للغاية، باردًا برودة الأموات.. احتضنت رأسه في صدرها فتنهد تنهيدةً طويلةً، انهارت مقاومته وأجهش بالبكاء.. ربتت على رأسه ثم طبعت قُبلةً حانيةً عليه حين سمعته يقول بصوتٍ متهدج:

- شفتها وهي بتصرخ، لكن كانت بتصرخ من النشوة.. لسه صورتها وهي نايمه في حضن رجل غريب مطبوعة في عقلي كأنها كانت إمبارح، كان بيعاملها بمنتهى العنف والقسوة.. لكنها كانت مبسوطة جدًّا من اللي بيعمله معاها.. في اليوم ده أنا فاكر كويس إني فضلت واقف مكاني مش قادر أتحرك، زي المشلول بالضبط.. شفت كل حاجة، اتفرجت عليهم لغاية لما خلصوا.. ما خدتش بالي غير لما لقيته قام من عليها، فتح الباب وهو لسه عريان.. بص عليا شوية وضحك لي ضحكة مش قادر أنساها، وقال لي إيه اللي مصحيك لحد دلوقتي يا حمادة.. وبعدين بص ناحية أمي وقالها ده عاوز يغير هدومه يا فريدة.. نظرت ناحية أمي لقيتها متكومة في السرير بتحاول تغطي

جسـمها وبتعيـط، سـاعتها بـس أخـدت بـالي إني بليـت بنطلـوني مـن غـير مـا أحـس.

نظـرتْ ليـلى نحـوه في شـفقةٍ بالغـةٍ.. كانـت رؤيتـه عـلى تلـك الحالـة تُرغمهـا عـلى تذكـر ذلـك الفتـي الـذي تحفـظ كل تفاصيلـه عـن ظهـر قلـب، صاحـب الخمسـة عـشر عامًـا الـذي لم تسـتطع مقاومتـه أبـدًا.. نَحَّـتْ غضبهـا منـه جانبًـا، رفعـت رأسـه تنظـر إلى عينيْـه.. كانـت عينـاه غائمتـيْن بالدمـوع، طبعـت قُبلـةً حانيـةً عـلى جبهتـه ثـم أنامتـه فـوق الفـراش واندسَّـت في حضنـه الـذي طالمـا منحهـا الـدفء والأمـان.. كانـت تعلـم أنـه لا يجـب أن تقسـو عليـه الآن، فبعـد أن عرفـت منـه كل شيء لم يعـد بوسـعها أن تلومـه.. أصبحـت كل فِعالـه مـبررةً أمامهـا حتـى وإن كانـت قـد سـبَّبت لهـا الكثـير مـن الألم..

أغمضـت عينيْهـا، تمنَّـت لـو امتـد الزمـنُ بهـذه اللحظـة ليصبـح أبديًـا.. داعبـت بلطـفٍ صـدره فتحسـس بكفـه خدَّهـا، مـدَّت ذراعيْهـا حولـه تحتضنـه بقـوةٍ كأنهـا تخـشى أن تفقـده مـرةً أخـرى.. التفـت بوجهـه نحوهـا، التقـت شـفاههما لأول مـرةٍ منـذ فـترةٍ بعيـدةٍ.. كانـت قبلتهـما طويلـةً جـدًّا، شـديدة الرقـة وبالغـة العذوبـة.. في تلـك اللحظـة اجتاحتهـا رعشـةٌ قويـةٌ، اهتـزَّ لهـا كل كيانهـا.. أحسَّـت أنهـا تُريـد أن تُنجـب

منـه طفـلًا آخـر.. اعتدلـت جالسـةً عـلى ركبتيهـا تنـزع قميصهـا مـن فـوق صدرهـا، داعبهـا برفـقٍ كأنـه يتحسـس جوهرتـيْن نفيسـتيْن.. تبـادلا القبـلات في شـغفٍ، وتعانقـا بقـوةٍ حتـى ذاب كلٌّ منهـما في الآخـر..

***

تجـاوزت السـاعةُ العـاشرةَ ليـلًا حـين اتسـعت عينـا "معتـز" عـن آخرهـما وهـو يُغلـق حاسـبه الشـخصي في ذهـولٍ، لا يُصـدق مـا وقـع عليـه بـصره حـالًا.. كان قـد قابـل "داليـا" منـذ مـا يقـرب مـن السـاعتين بعـد أن تلقـى منهـا اتصـالًا تُخـبره فيـه أنهـا لـن تقابلـه في مكتبـه، أخبرتـه أنهـا مراقبـةٌ وأنهـا تلقـت تهديـدًا بالقتـل.. قابلهـا في أحـد مقاهـي حـي المهندسـين المزدحمـة بالـرواد.. وجدهـا خائفـةً، تبدلـت هيئتهـا تمامًـا.. لم تعـد تلـك الفتـاة الشـقراء الجميلـة، أصبحت صورتُهـا أقـرب لواحـدةٍ مـن تلـك الفتيـات المدمنـات..

لم يطـل لقاؤهـا معـه، اكتفـت بـأن أعطتـه قرصًـا صلبًـا أزرق اللـون مـن تلـك التـي تسـتخدم في تخزيـن الملفـات الإلكترونيـة.. تناولـه منهـا في دهشـةٍ، لكنهـا لم تمهلـه.. أخبرتـه أن خالتهـا "صفـاء" كانـت قـد اتصلـت بهـا قبـل مقتلهـا بيـومٍ واحـدٍ فقـط، أعطتهـا هـذا القـرص الصلـب وأخبرتهـا أن تحتفـظ بـه عندهـا لأنهـا لا تأمـن عليـه في بيتهـا.. أوصتهـا أن

تسلمه للشرطة في حال إذا ما أصابها مكروهٌ.. حين سألها عن محتواه، غضَّت بصرها وقالت وهي تُغادر: "مِن الأفضل أن تشاهده بنفسك.."

حين عاد إلى مكتبه أصدر أوامره بمنع أي شخص من الدخول لمكتبه، أوصل القرص بحاسبه الشخصي على الفور وفيه شاهد ما لم يتخيله عقله أبدًا.. كانت بالقرص مجموعةٌ كبيرةٌ من الملفات المصورة بواسطة كاميرا تم إخفاؤها بعنايةٍ في غرفة نوم "صفاء"، التي عرفها على الفور حين وقع بصره على سريرها الضخم ذي الأعمدة المعدنية.. كل ملف من هذه الملفات يُصور لقاءً غراميًّا جمع بين "صفاء" وأحد الأشخاص.. على مدى ساعتين كاملتين شاهد "معتز" كل الملفات المصورة.. رأى "أكرم رشدي" في أكثر من ملف، "هشام وهدان".. لاعبي كرة في أنديةٍ شهيرةٍ، رجال أعمال.. شخصياتٍ لم يتعرف عليها، وبعض الشخصيات العامة من أصحاب المراكز الشديدة الحساسية..

أشعل "معتز" سيجارةً نفث دخانها في توترٍ شديدٍ، كان عقله لا يتصور أن يصلَ الانحراف والفساد إلى هذا الحدِّ.. فعلى الرغم من كل القضايا الغريبة التي عمل على حلها، إلا أنه لم يُصادف قضيةً تحملُ في طياتها كل

هـذا الشـذوذ والانحـراف.. أخـذ عقلـه يعمـلُ بسرعـةٍ كبـيرةٍ، يُحـاول أن يصـلَ إلى قـرارٍ حـول كيفيـة التـصرف حيـال هـذا القـرص الصلـب الملعـون..

"هـل أرسـل في اسـتدعاء كل هـؤلاء لاسـتجوابهم؟!!".. حـدَّث نفسـه في حـيرةٍ..

كان يعلـم أن بعضهـم مُحصـنٌ بحكـم منصبـه، وآخـرون مُحصنـون مـن واقـع شـعبيتهم الجارفـة.. خطـر في عقلـه "أدهـم" ابنـه، وتـردد في ذهنـه سـؤالٌ عجـز عـن إيجـاد إجابـةٍ لـه:

"كيف سيكون الحال عندما يكبر أدهم؟"..

هـزَّ رأسـه في قـوةٍ باعـدًا عنـه تلـك الأفـكار، أرسـل في طلـب "عمـرو".. لم يطـل انتظـاره طويـلًا حتـى جـاء الأخـير متلهفًـا، قـال:

- إيه يا باشا، قلقتنا عليك.

نظر "معتز" إليه طويلًا ولم يرد، فاستطرد "عمرو":

- أنـا جهـزت لسـيادتك التحريـات الـلي طلبتهـا عـن هشـام وأكـرم وليـلى، في كلام كتـير بيتقـال إن أكـرم وليـلى علاقتهـم الزوجيـة مـش تمـام بعـد مـا بنتهـم ماتـت.. وفي أقـوال بتقـول إن ليـلى عـلى علاقـة مـع هشـام.. المهـم

بقـى يـا باشـا إن هـما التلاتـة كانـوا في عيـادة أكـرم إمبـارح الصبـح بـدري.. وفي نـاس شـافتهم نازلـين شـايلين سـجادة كبـيرة، النـاس بتقـول إن شـكلهم كان مـش طبيعـي، كـمان في نـاس بتقـول...

أشـار "معتـز" بيـده نحـو "عمـرو" ليتوقـف، وأعـاد تشـغيل حاسـبه الشـخصي مـرةً أخـرى..

- يا نهار إسود!!

نطـق بهـا "عمـرو" وهـو لا يُصـدق مـا يـراه، مـضى "معتـز" يسـتعرض أمامـه كل الشـخصيات التـي تـم تصويرهـا حتـى قفـز "عمـرو" مـن مقعـده صارخًـا:

- حتـى ده كـمان!! هـي البلـد كلهـا كانـت بتاخـد البركـة مـن السـت دي والـلا إيـه؟!

أغلـق "معتـز" حاسـبه الشـخصي ثـم التفـت نحـو "عمـرو"، قـال:

- ودلوقتي إيه العمل؟

- العمـل عمـل ربنـا يـا باشـا، إحنـا مـش ممكـن نبعـت نسـتدعي النـاس دول.

- أنا عارف يا عمرو، لكن دول كلهم مشتبه فيهم.

- مفهـوم يـا باشـا، لكـن مـش كل مشـتبه فيـه ينفـع نسـتدعيه هنـا.
- أنـا قلـت كـده برضـه، علشـان كـده هابعـت الهـارد ديسـك ده للمديريـة.

***

اعتدلـت "ليـلى" في فراشـها ببـطءٍ شـديدٍ، كانـت مرهقـةً بـلا أدنى شـهيةٍ للحيـاة.. عـلى الرغـم مـن مطارحتهـا "أكـرم" الغـرام منـذ سـويعاتٍ قليلـةٍ إلا أن الحـب الـذي غمرهـا بـه لم ينجـح في تحسـين حالتهـا النفسـية.. لم تتمكـن مـن النـوم، فعـاد ذلـك الاكتئـاب البشـع يغـزو كيانهـا مـن جديـدٍ..

مـدَّت يدهـا في ضجـرٍ نحـو هاتفهـا المحمـول، كانـت شاشـته تُومـض معلنـةً عـن تجـاوز عقـارب السـاعة لمنتصـف الليـل.. تأففـت في سـأمٍ وهـي تزحـف خـارج الغطـاء، ألقـت نظـرةً خاطفـةً عـلى "أكـرم" النائـم جوارهـا يغـطُّ في سُـباتٍ عميـقٍ.. بـدتْ عـلى ملامـح وجهـه الحزينـة لمحـةٌ خفيفـةٌ مـن السـعادة والسـكينة.. طبعـت قُبلـةً طويلـةً عـلى شَـعره ثـم غـادرت الغرفـة تجـرُّ قدميْهـا..

تهـاوى جسـدُها فـوق أحـد مقاعـد الصالـة، أغمضـت عينيْهـا في ألمٍ وحـزنٍ.. كانـت تتنازعهـا مشـاعر كثـيرةٌ، حـب

"أكرم" الجارف الذي يستوطن قلبها وحِنقها عليه.. لم تعد تعرف ما السبيل للخروج من تلك الورطة.. "هشام" لن يتركها، ربما يُؤذي "أكرم".. حينها لن تسامح نفسها أبد الدهر..

عاودتها نوبةٌ غاشمةٌ من نوبات الصداع الفظيع، التي باتت رفيقةً لها منذ وفاة "فريدة".. بحثت عن أقراصها المسكنة، توجهت للمطبخ وتناولت قرصين بسرعةٍ.. كانت تحتفظ بتلك الأقراص دومًا تحسبًا لنوبات الصداع التي تعصف برأسها، خاصةً بعد أن توقفت عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم"..

هدأت حدةُ الصداع قليلًا، عادت تفكر من جديدٍ في "أكرم".. شعرت نحوه بالرثاء، رأت أنه أصبح أكثر وحدةً منها بعد أن نهش حزنه الدفين روحه.. لكن.. "ألسنا جميعًا بداخلنا مثل هذا الحزن.."، حدَّثت نفسها..

قديمًا كانت قد سمعت أمها تقول :"بداخل كل منا يرقد وجع صامت!!".. تعجبت حين أدركت أن الحياة حقًّا حزينةً، حتى في تلك اللحظات القصيرة التي نشعر فيها بالحب يغمرنا شعورٌ غامضٌ بالخوف.. الخوف مِن انتهاء تلك اللحظات، والخوف مِنْ فقدان مَنْ نحب..

"لا بـد أن أذهـب للقـاء هشـام، لا مفـر مـن ذلـك.."، غمغمـت ثـم قامـت واقفـةً.. لكنهـا توقفـت بعـد أن لمحـت ذلـك الملـف الأخـضر اللـون، الـذي كانـت قـد أخذتـه مـن عيـادة "أكـرم".. أمسـكته بـين يديْهـا تنظـر إليـه في شرودٍ.. أخرجـت ورقـةً فارغـةً مـن بـين طياتـه، شرعـت تكتـب رسـالةً أخـيرة إلى "أكـرم"..

****

(١٤)

مضى "هشام" يجوبُ غرفة مكتبه الواقعة في استراحته الخاصة، الملحقة بمصحته العلاجية الفاخرة.. كان يتحرك في عصبيةٍ واضحةٍ، تملَّك منه الغضبُ بشدةٍ حتى إنه احتسى كأسين من الويسكي على الرغم من امتناعه عن تناول الكحول منذ أكثر من عامين.. كان كل شيء يُومض أمام عقله كأنه لقطاتٌ لشريطٍ سينمائي.. سمع صوت "ليلى" تُحدثه في الهاتف منذ أكثر من عامٍ، تُخبره بحاجتها لمساعدته.. خفق قلبه لتلك الذكرى تمامًا كما خفق حين سمع صوتها آنذاك..

حين قابلها أخبرته أنها قد يئست من إصلاح "أكرم"، حكت له عن مغامراته النسائية التي لا تنتهي.. ذكرت له اسم "صفاء عبد الحميد"، إحدى عشيقات "أكرم".. أخبرته أنها اتصلت بها، وحكت لها كل شيء عن علاقتها

مع "أكرم".. في هذا اليوم بكت "ليلى" كثيرًا، كان لبكائها أثرٌ عجيبٌ عليه.. تمزَّق قلبه لدموعها، لكنه شعر بسعادةٍ عجيبةٍ للجوئها إليه.. أحسَّ أخيرًا بالانتصار على "أكرم".. شعر أنه أفضل منه، ربما للمرة الأولى في حياته.. لكن ما أثار قلقه حقًّا هو نظرات "ليلى"..

كانت نظراتُها لا تزال محتفظةً بذلك البريق الضاحك البريء، تمامًا كذلك الذي كان يلمع في عينيْها حين عرفها وقت أن كانت طالبةً في الجامعة.. لكن شيئًا ما في نظراتها وحدسه كطبيبٍ أوحيا إليه بملاحظتها..

كانت عيناها منكسرتين، تظهر أسفلهما تجاعيد وخطوطٌ زرقاء تنمُّ عن قلة النوم.. حتى تلك الابتسامة التي حاولت "ليلى" رسمها على وجهها في ذلك اليوم لم تفلح في الاحتفاظ بها طويلًا.. بشرتُها المائلةُ للاصفرار، شرودُها الطويلُ في منتصف الحديث.. كل هذه الأعراض دفعته للاعتقاد بأنها مريضةٌ، ضعيفةٌ وتائهةٌ.. لذا قرَّر مساعدتها ومحاولة علاجها..

مضت الأمور فيما بينهما طبيعيةً حتى أخبرته في أحد الأيام بموت ابنتها "فريدة".. جاءته وقتها منهارةً تمامًا، لا تقدر على الوقوف.. احتواها بذراعيْه، طمأنها بأن كل شيء سيكون على ما يُرام.. ازداد قربهما بعد تلك الحادثة،

أصبح لا يطيق الابتعاد عنها.. لكنه كان يشعر طوال الوقت بوجود حاجزٍ بينهما يخشى تجاوزه.. كان طيف "أكرم" دومًا ما يحول بينه وبينها..

ثم جاء اليوم الذي اكتشف فيه حقيقة مرضها.. كان الوقت متأخرًا حين دخلت عليه مساعدتُه تُخبره بأن سيدةً تطلب لقاءه في أمرٍ عاجلٍ.. اقتحمت "ليلى" الغرفة بينما كان "هشام" لا يزال يتحدث مع مساعدته.. ما أن رآها حتى أشار إلى مساعدته بالانصراف وهو ينظر نحوها باستغرابٍ شديدٍ..

كانت مختلفةً، مختلفةً تمامًا..

ترتدي ثوبًا قصيرًا للغاية أسود اللون، فاضحًا يكشفُ نصف صدرها تقريبًا منقوشًا عليه رسم لفراشة.. تفوح منها رائحةُ عطرٍ نفَّاذ.. وشَعرها الأسود الغزير يبدو أنها قضت وقتًا طويلًا في محاولة عقصه وتصفيفه، لكنها أصيبت بالملل فتركته دون الانتهاء من تسريحه.. فبدا مهوشًا فوق رأسها، وتدلت خصلةٌ طويلةٌ منه على جبينها..

أخذت تقتربُ منه في هدوءٍ أثار الخوف في قلبه.. كانت نظراتُها جامدةً، ثابتةً على وجهه كأنها لا ترى أمامها غيره.. كانت عيناها تلمعان ببريقٍ غريبٍ، شاردٍ

لكنـه شـديد القـوة والنفـاذ.. بريـقٍ يعرفـه جيـدًا بحكـم عملـه.. بريـق الجنـون..

لم يسـتطع السـيطرة عـلى نفسـه، فغلبتـه الدهشـة حينهـا وقـال:

- ليلى!!

اقتربـت منـه في دلالٍ، أخـذت تتمايـلُ في مشـيتها تُـبرز فتنـة رِدفيهـا.. انحنـت فـوق مكتبـه بنصفهـا العلـوي ثـم مسـحت بيدهـا عـلى صدرهـا، قالـت بصـوتٍ بـدا كالفحيـح:

- بتحبها؟!

تغلـب عـلى دهشـته وتمالـك أعصابـه سريعًـا، حـاول أن يُركـز ذهنـه في مراقبـة أفعالهـا الغريبـة.. لم يصدهـا، تظاهـر بالاستسـلام لهـا حتـى يكتشـف حقيقـة أزمتهـا.. ابتسـم لهـا في هـدوءٍ متصنـعٍ ثـم قـال:

- طبعًا بحبها.

دارت بجسـدها حـول المكتـب ثـم اقتربـت منـه أكـثر، ألقـت بنفسـها فوقـه.. جلسـت عـلى فخـذه، ثـم قالـت بصـوتٍ مخنـوقٍ:

- كل الرجالـة بتحـب ليـلى، مـش كـده؟.. مفيـش حـد يقـدر يقاومهـا.

أنهت عبارتها السابقة ثم قربت شفتيها من شفتيه، وهمَّت بتقبيله.. اشتد لمعانُ البريق المخيف في عينيها، تهدجت أنفاسها في حشرجةٍ مسموعةٍ..

على الرغم من طوفان المشاعر التي غمرته، تلك الأحاسيس التي يُكنها لها.. إلا أنه تمكن من السيطرة على نفسه بصعوبةٍ.. فأمسك بها يرفعها من فوق فخذه ثم انتفض واقفًا، أخذ يهزها بعنفٍ من كتفيها ويصيح:

- ليلى فوقي، كفاية كده!

اشتد الجنون في عينيها وكشفت عن أسنانها كأنها تهم بعضِّه.. قالت وهي تصرخ بصوتٍ أعلى من صياحه:

- إنت ليه مش عاوزني؟! ليه مش عاجباك؟!

مدَّت ذراعيها تُحاول التعلق بعنقه، قرَّبت وجهها منه تُحاول أن تنقض بأسنانها على شفتيه.. فعاد يصرخ فيها من جديدٍ وهو يهزها في عنفٍ أكبر.. يُحاول إبعادها عن وجهه، وعيناه مُسلطتان على عينيْها لمراقبة ذلك البريق المخيف.. لكنها لم تكن تسمعه، ظلت تصرخُ بهستيريا شديدةٍ:

- حرام عليك، حرام عليك.

لم يكن أمامه طريقٌ آخر.. رفع كفه وهوى بها على وجهها بقوةٍ شديدةٍ.. وجمت لبرهةٍ، كأنها لم تشعر بالصفعة.. تاهت عيناها للحظاتٍ ثم عاودت الهجوم عليه.. بكل قوته صفعها صفعةً ثانيةً، ثم ثالثة..

سقطت على الأرض أسفل قدميْه، تنظر نحوه بعينيْن متسعتيْن كأنها بدأت تفيق.. بدأت تستعيدُ شخصيتها الحقيقية..

ظلت على تلك الحال لفترةٍ.. تنظر نحوه بعينيْها الواجمتيْن المتسعتيْن عن آخرهما، أنفاسُها لاهثةٌ كأنها عادت للتوِّ من مشوارٍ بعيدٍ.. لحظات، وبدأت رموشُها الطويلةُ تهتز فوق عينيْها هزَّاتٍ سريعةً متتاليةً.. أخذت تتلفت حولها في ذهولٍ كأنها لا تعرف أين هي.. عادت تنظرُ إليه من جديدٍ كأنها تسأله.. ثم نظرت إلى نفسها، إلى ثوبها الفاضح وصدرها المكشوف.. وضعت ذراعيها فوق صدرها تُحاول ستره ثم شهقت شهقةً حادةً.. وسقطت في نومٍ عميقٍ، كأنما أغشى عليها.. تركها لتنام، فلم يكن في وسعه أن يفعل شيئًا آخر..

ومنذ ذلك اليوم والعَلاقة فيما بينهما أصبحت وطيدةً.. أخبرها بأن تمتنعَ عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم".. كان يستمتع أكثر حين تستحوذ عليها الشخصية

الثانيـة.. كانـت جامحـةً هيسـتيريةً، لا تتـورع عـن فعـل شيء.. مـارس معهـا الحـب كثـيرًا، كـما لم يُمارسـه مـع غيرهـا.. حـين تُفيـق كانـت لا تتذكـر شـيئًا مـما حـدث.. بـدأت أحلامـه تغـدو واقعًـا، أصبـح يلمسـه كل يـومٍ.. فقـط كان "أكـرم" هـو العائـق..

كان يعلـم أن توقفهـا عـن تنـاول الـدواء سـيزيد مـن سـوء حالتهـا، لكنـه لم يُبـال وأقنعهـا بـضرورة الإمتنـاع عـن تناولـه.. كان في حقيقـة الأمـر يخـشى إن عـادت لهـا شـخصيتها الحقيقيـة أن ترفضـه كـما فعلـت قديمًـا، كان يخـاف أن تختـار كـما هـي عادتهـا "أكـرم"..

حـين أخبرتـه شـخصيتها الثانيـة برغبتهـا في الانتقـام مـن "أكـرم"، عزمهـا عـلى التخلـص منـه.. لم يـتردد، ووافـق عـلى الفـور.. أخبرهـا بـأن تعطيـه دواءً مهدئًـا منحهـا علبتـه، لكنـه كان في حقيقتـه دواءً يُسـبب الهـلاوس والاضطرابـات.. فقـط بـدَّل علبـة الـدواء الأصـلي ووضـع فيهـا حبـوب الهلوسـة.. ثـم شـاركها في إزاحـة كلَّ مـن عكـر صفـو حياتهـا مـن طريقهـا.. "صفـاء" و"إيمـان"، حتـى "صبـاح".. بـل إنـه شـاركها في تحليـل شـعور "أكـرم" نحوهـم.. تذكـر تلـك القُبلـة التـي منحهـا لهـا حـين أخبرتـه أنهـا تظـن أن "أكـرم" يبحـث في "صفـاء" عـن

أمـه وفي "إيمـان" عـن الحبيبـة، يأمـل أن يجـد في "صبـاح" الابنـة التـي فقدهـا..

صـبَّ لنفسـه كأسًـا جديـدةً ثـم جرعهـا دفعـةً واحـدةً، تقلصـت ملامحُـه لوهلـةٍ مـن مـرارة مـذاق الكحـول.. أمسـك بهاتفـه المحمـول ثـم طلـب رقـمًا، جـاءه الـرد عـلى الجانـب الآخـر فقـال:

- هستناكي دلوقتي في الاستراحة بتاعة المصحة.

صمت قليلًا ثم قال بحدةٍ:

- أيـوه دلوقتـي، الموضـوع مهـم.. مـش هينفـع يسـتنى للصبـح.

أنهى مكالمته ثم تمتم في غضبٍ:

"ليس الآن يا أكرم، لن أخسر كل شيء الآن"..

***

فتـح "أكـرم" عينيـه بتكاسـلٍ، كانـت لحظـاتُ السـعادة القليلـة التـي حصـل عليهـا مـع "ليـلى" قبـل نومـه مـا زالـت تُسـيطر عـلى حواسـه.. تثـاءب وفـرد ذراعيْـه إلى أقـصى مداهـما، ثـم التفـت إلى جـواره يبحـثُ عنهـا.. ابتسـم حـين لم

يجدها نائمةً، خمَّن أنها ربما تجلس كعادتها على مقعدها الأثير في الصالة..

قام مترنحًا من الفراش، كان مفعول سكرة الحب مستحوذًا عليه إلى الآن.. خرج للصالة فلم يجدها، نادى عليها عدة مرات.. لكن، لا مجيب..

بدأ القلقُ يستولي على ذهنه.. لكنه لمح ذلك الملف الأخضر موضوعًا على كرسيها الأثير.. اقترب منه فوجد ورقةً مطويةً بعنايةٍ أسفله.. فتحها وقد تملَّكه الفضول، وشرع يقرأ ما فيها..

"لا توجد سوى امرأةٍ واحدةٍ فقط تتربع قلب الرجل، وكذلك هو رجل واحد من يأسر قلب المرأة، أما ما عدا ذلك فليس سوى محاولاتٍ يائسةٍ للتعويض.."، لم أجد أفضل من هذه العبارة أبدأ بها رسالتي الأولى والأخيرة لك..

كان عليَّ أن ألقي وراء ظهري كل ما جرى، لكني لم أستطع حمل نفسي على ذلك.. حين كنتُ صغيرةً سألتُ نفسي كثيرًا لماذا نحيا؟.. لم أتمكن من الإجابة، وكذلك أبي وأمي لم يمنحاني جوابًا مقنعًا.. خمَّنت أنهما لا يعرفان أيضًا.. على أية حالٍ من بإمكانه أن يعرف؟..

اكتشفت مع مرور الأيام وتقدمي في العمر أن الأمر ليس إلا خدعةً كبيرةً.. فالحياةُ ما هي إلا كذبةٌ نحياها في حيرةٍ بلا هدفٍ، ندور في فلكها تائهين بغير توقفٍ.. ظاهرها أنك يتوجب عليك الحياة فور ولادتك حتى يأتيك الموت.. كلا ليس هذا حقيقيًّا على الإطلاق.. فالحقيقة أننا من الممكن أن نموت ومع ذلك نبقى أحياء.. هذا ما حدث معي منذ أن ماتت "فريدة"..

كنت أتمنى أن أجدك إلى جواري حينها، لكن ذلك لم يعد يهم الآن.. هل أخبرتك من قبل أنني كلما انتهيت من الاستحمام كنت أرتجف.. نعم كان جسدي يرتجف بشدةٍ، ليس من البرودة ولكن من الوحدة.. يهزني النواح الذي أكتمه، الأسى على يومٍ آخر سينقضي دون أن أكون إلى جوارك.. أصبحت كنهرٍ جفَّ ماؤه، امتلأ مجراه بحجارةٍ قاسيةٍ أخذت تقطع في لحمي قطعةً تلو القطعة..

حاولت كثيرًا أن أبتعد عنك، لكنني فشلت.. فمأساتي الحقيقية تكمن في أني أحبك بصورةٍ لم أقدر على إخفائها أو حتى تجاهلها.. فأنا فقط التي تعرف كم أنت أذكى وأرق وأنبل رجل في هذه الحياة.. عرفتك قبل أن ألتقيك.. كنت في بدني طوال الوقت لكنني لم أحسك حتى التقينا،

في شفتي لكنني لم أتذوقك حتى قبَّلتك، في عيني لكنني لم أرك حتى غامت رؤيتي بين أحضانك..

كنتَ عذابي المقيم، شوقي الدائم.. كنت دومًا ذلك الشيء الرائع الذي أتذكره كي أتمكن من البقاء.. فأنَّى تكون لدي المقدرة على تحمُّل فراقك..

أتعلم ما أريده حقًّا؟!.. الصمت، لا تتعجب فأنا أتوق للحظة صمتٍ بداخلي.. صمت يمكنني فيه سماع صوت تدفق دمي في عروقي.. صمت أسمع معه صوت انسياب دموعي على خديَّ.. لكنني اكتشفت أنه لا وجود لمثل هذا الصمت سوى في مكانٍ واحدٍ بعيدٍ.. هناك في القبور، عند "فريدة"..

أرجو أن تسامحني على كل شيء، فأنا قد سامحتك.. ولتعلم أني أحبك إلى الدرجة التي أستطيع معها أن أختفي من حياتك إذا كان هذا الاختفاء سيجعلك سعيدًا.. فبك غسلت روحي من صدأ لازمها حتى ظننت أنه لن يفارقها أبدًا، ومعك بدأت حياتي الحقيقية.. ويبدو لي أنها ستنتهي قريبًا كما بدأت معك..

أحبك..

نظر "أكرم" إلى الورقة بين يديه لا يُصدق ما قرأته عيناه، أخذ يتلفت حوله كالمجنون.. علم ما تنتويه "ليلى"، كانت ستنتحر.. توجَّه سريعًا لغرفة نومه، ارتدى ملابسه وعقله مشغولٌ بالتفكير عن المكان الذي قد تتوجه إليه.. فتح باب الشقة، لكنه توقف حين سمع هاتفه المحمول يرنُّ.. عاد وقد امتلأت نفسه بالسخط، لكنه لسببٍ لا يعلمه قرر أن يرد..

جاءه صوتُ "هشام" يقول في سخريةٍ:

- إنت لسه عايش يا دكتور؟!

جزَّ "أكرم" على أسنانه وقال في حدةٍ:

- أنا مش ناقصك دلوقتي، ليلى مش لاقيها واحتمال.....

قاطعه "هشام" في هدوءٍ:

- ليلى عندي، لو عايزها تعالى.. وساعتها ممكن نشوف هي هتختار مين؟

- إنت بتقول إيه يا حيوان إنت؟

- زي ما سمعت بالضبط، أنا مستنيك في استراحة المصحة بتاعتي.. عارفها؟ في نفس المكان اللي دفنا فيه صباح.

أنهى عبارته ثم أغلق الخط في وجهه، تركه وقد فارت الدماء في رأسه.. قرَّر أن يتخلص منه، يسترد "ليلى"..

مهما كان الثمن..

***

- إنت لسه ما روحتش يا باشا؟

انتبه "معتز" من شروده حين سأله "عمرو"، رفع رأسه نحوه ثم قال:

- هروح أعمل إيه؟ مفيش حد في البيت.

- هي الهانم لسه عند والدتها؟

اكتفى "معتز" بإيماءةٍ من رأسه، ولم يرد.. استطرد "عمرو" قائلًا:

- يا باشا مفيش داعي للعند، برضه هي عندها حق.. سيادتك تقريبًا متجوز المباحث.

رمقه "معتز" بنظرةٍ حانقةٍ فالتزم "عمرو" الصمت، بعد فترةٍ قطعه "معتز" حين قال بنبرةٍ رسميةٍ:

- عملت إيه في مراقبة الدكاترة؟

- تمام سعادتك، هشام وهدان موجود في طريق إسكندرية الصحراوي.. في المصحة بتاعته.. فرد المراقبة اللي تحت بيت أكرم رشدي لسه قافل معايا، قال لي إن ليلى نزلت من البيت.. اتحركت بعربيتها، هي معاها تويوتا زرقاء.. كان عاوز يتابعها لكن أنا قلت له خليك تحت البيت وإياك تتحرك.

- الساعة كام دلوقتي؟

- ثلاثة إلا ربع صباحًا يا باشا.

- غريبة جدًّا!! إيه إللي ممكن ينزلها في وقت زي ده؟!

قطع حديثهما صوت رنين هاتف "معتز".. التقطه على الفور ما أن شاهد اسم محدثه، اعتدل في جلسته.. تغيرت لهجته إلى احترامٍ بالغٍ:

- تمام يا باشا، تحت أمر معاليك.

صمت لوهلةٍ، تغيرت ملامح وجهه بصورةٍ عجيبةٍ.. تحدَّث بعد فترةٍ فخرج صوته مبحوحًا:

- لكن سيادتك الموضوع مش محتاج....

صمت مرةً أخرى بعد أن قاطعه مُحدثه، خرج صوته مرةً أخرى لكنه كان باردًا هذه المرة:

- لا يا باشا، مفيش حد غيري شاف الملفات دي.

صمت من جديدٍ، ثم قال بنبرةٍ جامدةٍ:

- أوامرك يا باشا، مع ألف سلامة.

ضغط على زرٍّ إنهاء المكالمة ثم أمسك بهاتفه يعتصره في يده بقوةٍ شديدةٍ.. وضعه على المكتب ثم خبط بقبضته الضخمة فوقه فأصدرت صوتًا واضحًا.. انتاب "عمرو" القلق لهذا التحول الغريب في سلوك "معتز" فقال بتوتر:

- خير يا باشا، فيه حاجة؟

تفحصه "معتز" طويلًا ثم قال:

- المديرية بتبلغني إننا نعتبر التحقيق اتحفظ في قضية صفاء.

- نعم!! اتحفظ إزاي؟.. مش فاهم.

- إيه اللي إنت مش فاهمة بس يا عمرو؟

- يعني التحقيق اتحفظ واللا لأ؟

- الموضوع مبقاش ضمن اختصاصنا.

- إزاي كده؟! وإحنا مقدمين لهم دليل إدانة صريح؟!

- ما هو الدليل ده كان السبب للأسف.
- أنا مش قادر أصدق، طيب والناس اللي ماتت دي.
- الله يرحمهم.
- الله يرحمهم!! طيب والعدالة؟
- العدالة في بلدنا نسبية يا عمرو.

ساد الصمت بينهما لفترةٍ حتى همَّ "عمرو" بالمغادرة، لكن "معتز" أشار إليه أن يأخذ هاتفه معه أخبره أنه لا يريد أن يُحدث أحدًا الآن.. تناول "عمرو" الهاتف وذهب إلى مكتبه مذهولًا، لا يُصدق ما سمعه منذ دقائق قليلة.. قطع حبل أفكاره صوت رنين هاتف "معتز" مجددًا.. حين ردَّ على المكالمة جاءه صوت "هشام" على الطرف الآخر يصرخ قائلًا:

- إلحقني يا معتز بيه، أكرم رشدي اتجنن يا باشا.
- إهدا من فضلك يا دكتور، أنا النقيب عمرو الوقاد.
- يا عمرو بيه، أكرم لسه قافل معايا دلوقتي.. هددني إنه هيقتلني أنا وليلى.
- هي ليلى عندك؟

- أيــوه يــا باشــا، هددهــا هــي كــمان بالقتــل فهربــت تســتخبى عنــدي.

- تمام، خليك عندك ما تتحركش.. إحنا هنكون عندك حالًا.

عــلى الفــور أمســك "عمــرو" بهاتفــه المحمــول وطلــب رقــمًا، قــال بعــد أن ســمع الــرد عــلى الجانــب الآخــر:

- أيوه يا ابني، أخبار الهدف المراقب عندك إيه؟

- لسه نازل من شوية يا باشا.

- وما قلتليش ليه ساعة لما نزل؟

- مش سعادتك قلت لي أفضل مكاني!!

لم يجــد "عمــرو" فائــدةً مــن الحــوار فأنهــى المكالمــة وهــو يســب ويلعــن.. تنــاول هاتــف القســم ثــم طلــب رقــمًا داخليًّــا، ســمع صــوت "معتــز" يقــول في حــدة:

- أنا مش قلت مش عاوز إزعاج.

لكن "عمرو" قال بلهجةٍ جادةٍ:

- أكــرم يــا باشــا بيتحــرك دلوقتــي، رايــح يقتــل هشــام وليــلى.

***

(١٥)

كان الماءُ ينهمرُ بشدةٍ، كاسحات المطر تميل يمينًا ويسارًا بأقصى سرعة على الزجاج الأمامي لسيارة "أكرم".. تنافس في سرعتها تلك السرعة المرعبة التي تنهش بها السيارة الطريق الصحراوي.. فمنذ أن تلقى "أكرم" اتصال "هشام" لم يعد يرى أمامه سوى صورة "ليلى"، تمد يدها نحوه في رجاء.. لم يعد يسمع إلا صوتها تطلب منه النجدة.. أصبح إنقاذها واستعادتها هما كل ما يشغل باله، كل ما تبقى له في هذه الحياة.. لذا فقد استعدَّ جيدًا لهذا اللقاء.. جزَّ على أسنانه حين نظر لذلك السلاح الناري على المقعد المجاور له، كان خاصًّا بوالده..

انتبه من أفكاره على صوت رنين هاتفه المحمول، أبصر اسم "هشام" يومض فوق الشاشة فأجاب على

الفـور.. جـاءه صوتـه يقـول بنـبرةٍ بـاردةٍ بـات لا يكـره أكـثر منهـا في هـذه الحيـاة:

- لمـا توصـل عنـد المصحـة، ادخـل في الشـارع الـلى قبلهـا.. هتلاقينـي مسـتنيك هنـاك.

لم يـزد عـلى تلـك العبـارة شـيئًا، ثـم أنهـى المكالمـة.. اسـتعرت الشـكوك في عقـل "أكـرم"، لكنـه طـمأن نفسـه وأمسـك بسـلاح والـده يدسـه أسـفل ملابسـه.. لمعـت عينـاه ببريـق الانتقـام..

هـدَّأ مـن سرعتـه قليـلًا حـين اقـترب مـن المصحـة.. عـرج بسـيارته إلى الشـارع قبلهـا، تمامًـا كـما أخـبره "هشـام".. في نهايتـه وجـد ضـوءًا يلمـع وسـط الظـلام بإشـاراتٍ متكـررةٍ، أوقـف سـيارته بالقـرب مـن السـور المرتفـع للمصحـة.. ترجَّـل مـن السـيارة يُحـاول اسـتجلاء الرؤيـة، التـي باتـت متعـذرةً مـع اشـتداد المطـر وغزارتـه.. حملـت لـه الريـاحُ القويـةُ صـوت "هشـام" يقـول صائحًـا:

- لغاية آخر وقت عاوز تحرمني منها.

اقترب منه "أكرم" بخطواتٍ حذرةٍ، وهو يقول:

- مش لو كانت بتاعتك من الأصل.

قهقه "هشام" بصوتٍ مرتفعٍ، ثم قال يستفزه:

- لا هي بتاعتي، بس إنت اللي مش واخد بالك.

- تقصد إيه؟!

- قصدي إنك طول عمرك أناني، مش بتفكر غير في نفسك.. حتى ليلى كنت بتعاملها على إنها حاجة مُسلم بيها، أو عاملها احتياطي لو واحدة من الستات بتوعك سابتك.

- إيه الكلام الفارغ ده؟

- دي الحقيقة يا دكتور.

صمت بعدها "هشام" لوهلةٍ ثم أشار لـ "أكرم" بالتوقف عن السير، اقترب منه مسلطًا ضوء الكشاف في عينيْه.. رفع "أكرم" كفَّيه أمام وجهه حاميًا عينيه من شدة الضوء، لم يتنبه إلا حين شعر بضربةٍ قويةٍ على رأسه..

أظلمت الدنيا من حوله تمامًا، تهاوى جسده.. ارتطم وجهه بعنفٍ في الوحل..

***

فتح "أكرم" عينيْه بصعوبةٍ شديدةٍ.. كان رأسه يؤلمه بشدةٍ، تجلطت بعض الدماء على جبهته.. دوار طفيفٌ

لا يـزال مسـيطرًا عـلى عقلـه، ذلـك الضـوء المبهـر في المـكان يُسـبب ألمًـا حـادًّا في عينيـه.. سـمع صـوت "هشـام" يقـول سـاخرًا:

- حمدا لله على السلامة يا دكتور.

- إنت أكيد اتجننت.

صمت "هشام" قليلًا، ثم قال وهو يمط شفتيه:

- أنا!! ما أظنش.. لكن إنت، احتمال كبير.

- مش فاهم.

- مـش مهـم تفهـم، مـش كل حاجـة بتـدور في فلـكك يـا كيمـو.

ثـم أطلـق ضحكـةً سـاخرةً تـردد صداهـا في فضـاء الغرفـة وهـو ينظـر لمظهـر "أكـرم" المـزري، ملابسـه المبتلـة المتسـخة مـن أثـر سـقوطه في الوحـل.. تلفـت "أكـرم" حولـه، حـاول أن يتحـرك فاكتشـف أنـه مُقيـد بحبـالٍ غليظـةٍ تشـد وثاقـه إلى كـرسي معـدني.. حـاول التحـرك مـن جديـدٍ فتحـرك الكـرسي مـن تحتـه مصـدرًا جلبـةً، واسـتعرت آلامٌ حارقـةٌ في معصميْـه بفعـل الحبـال.. التفـت "هشـام" نحـوه ثـم قـال:

- إيه مش عارف تفك نفسك؟ حاول مرة كمان.

- إنت أحقر إنسان شفته في حياتي، لو راجل فكني.

- ليه علشان تقتلني.

قالها "هشام" ثم أخرج من خلف ظهره سلاح والد "أكرم".. نظر نحوه طويلًا في شماتةٍ واضحةٍ ثم قال:

- طول عمرك خايب، مش بتعرف تعمل حاجة لوحدك.. حتى لما فكرت تقتل، دورت على سلاح أبوك.

رمقه "أكرم" وقال محتدًا:

- إنت اللي الحقد مغطي عينيك، طول عمرك شايف نفسك أقل مني.. حتى لما نجحت، برضه عاوز تاخد حاجتي.

رفع "هشام" حاجبيْه، ثم قال متعجبًا:

- أنا! أحقد عليك إنت!!.. مش قلت لك، مشكلتك إنك فاكر إن كل حاجة بتدور حواليك.

تجاهله "أكرم" تمامًا، كأنه لم يقل شيئًا.. أخذ يتلفت حوله ويصرخ مناديًا:

- ليلى، ليلى.

قاطع "هشام" صياحه قائلًا بنبرةٍ مستفزةٍ:

- ما تحاولش، مش هتسمعك.

حدجه "أكرم" بنظرةٍ غاضبةٍ، ثم قال بصوتٍ هادرٍ:

- عملت فيها إيه يا حيوان؟!

- ولا حاجة، هي اللي مش عاوزة تشوفك.

قرن "أكرم" حاجبيه وتمتم بحدةٍ:

- مش ممكن، مستحيل!!

رسم "هشام" على وجهه ابتسامةً لزجةً، وقال بهدوءٍ قاتلٍ:

- ليلى اللي إنت تعرفها خلاص، ماتت.

خرج صوت "أكرم" هادرًا حين صرخ فيه:

- لو عملت فيها حاجة، أنا هقتلك.

- مش أنا اللي قتلتها، هي قتلت نفسها.

- مستحيل.

- زي ما قَتَلِتْ فريدة.

صمت "أكرم" تمامًا حين سمع اسم ابنته، ارتعشت عينه اليسرى واهتزت شفته السفلى.. رغمًا عنه خرج صوته مرتعشًا ضعيفًا حين قال:

- إنت بتقول إيه؟!

- بقولك على الحقيقة، ده حقك عليا كصاحب.

تمالك "أكرم" نفسه وصرخ بحدة:

- اخرس!

- مش بقولك ضعيف، مش قادر حتى تواجه نفسك بالحقيقة.

هزَّ "أكرم" رأسه بعنفٍ، قال بصوتٍ مخنوقٍ بعد أن شعر بغصةٍ قويةٍ في حلقه:

- اخرس، فريدة ماتت بسببي.

- حتى شهادتك اللي عملت منك بني آدم، ما كنتش تستحقها. تقدر تقول لي فريدة ماتت إزاي يا دكتور؟

هز "أكرم" رأسه بعنفٍ أكبر ثم سالت دموعه وهو يصرخ:

- مش فاكر؟

- طبعًا، مش هتفتكر.. لأنك ما تعرفش حاجة عن الحكاية دي خالص.

قال "أكرم" بصوتٍ مكتومٍ، شردت عيناه كأنه يتذكر:

- أنا فقدت الذاكرة بعد الحادثة، وليلى قالت....

قاطعه "هشام" بضحكةٍ مستهزئةٍ، ثم قال في سخريةٍ:

- هههههه ليلى قالت، بابا وماما كمان قالوا. هو إنت مش بتعرف تقول حاجة لوحدك أبدًا؟

أشاح "أكرم" بوجهه عنه محاولًا مداراة دموعه التي أبت أن تتوقف، قال بصوته المكتوم:

- إنت أكيد مش بني آدم.

لمعت عينا "هشام" بشدةٍ، وقال بعد أن فرد قامته في زهوٍ:

- صح، في دي عندك حق.

ثم اقترب من وجه "أكرم" ورماه بنظرةٍ ظهر فيها الحقدُ، بانت فيها شماتته.. خرج صوته كالفحيح:

- أنا فعلًا مش بني آدم، أنا الدكتور هشام وهدان.. أنا اللي قدرت أشخص مرض مراتك لما جاتلي عيادتي بترتجف علشان خنقت بنتها بإيديها، مش فاكرة ولا عارفه إزاي ده حصل.

هزَّ "أكرم" رأسه وأخذ يُتمتم في ذهولٍ:

- مش معقول.

- أنا إللي عرفت في اليوم ده إن ليلى عندها ازدواج في الشخصية، عرفت منها إنك كنت كاتبلها مهدئ.

صمت "أكرم" مذهولًا ولم يرد بعد أن زاغت نظراته، فاستطرد "هشام" في صوتٍ بدا مشتعلًا بنيران الغل:

- أنا إللي منعت عنها الدواء، خليت شخصيتها التانية تسيطر. كنت بحقق حلمي الأخير اللي لسه ما حققتوش، حلمي اللي فلوسك ومكانة أهلك حرموني منه. أنا إللي خليتها تبدل الحبوب بتاعتك من علبة المهدئ، خليتها تحط لك بدالها حبوب هلوسة.

- لكن أنا...

لم يتمكن "أكرم" من إكمال عبارته بعد أن صرخ فيه "هشام" مقاطعًا:

- إنت تسكت خالص. إنت خلاص، مش موجود. دلوقتي فيه أنا وبس، وأنا مش هسمح لحد إنه ياخد مني حاجة أنا عاوزها.

- ليلى!!

التفت "هشام" خلفه بحدةٍ فور سماعه لـ"أكرم" ينطق باسمها، كانت "ليلى" تستند على باب الغرفة بذراعيها.. تترنح وقد ظهر على ملامحها الوهن والإعياء الشديد، بالكاد تقف على قدميْها بصعوبةٍ بالغةٍ.. حاول "أكرم" التملص من قيده كالمجنون، لكنه فشل.. تحرك "هشام"

سريعًا نحوها فتهاوى جسدها بين ذراعيْه، التقطتها ثم طبع قُبلةً حانيةً على جبينها وقال بصوتٍ حانٍ:

- إيه اللي خلاكي تقومي دلوقتي يا حبيبتي؟

خرج صوتها ضعيفًا مهزوزًا كأنها واقعة تحت تأثير مخدر:

- أنا حاسة إني بتقطع، بتقسم نصين.. دماغي هتنفجر.

- ليلى.

رمت بنظراتها في وهنٍ نحو "أكرم" حين سمعت نداءه بنبرة صوته الحانية، لكن نظراتها كانت غريبة.. كانت شاردةً تلمع بذلك الوميض.. اتسعت عينا "أكرم" وسالت دموعه من جديدٍ حين أيقن بجنونها، لكنه تماسك وقال بصوتٍ حاول أن يبقيه هادئًا:

- أنا أكرم يا ليلى.

حملها "هشام" بين ذراعيه بعيدًا عن "أكرم"، خوفًا من تأثير نظراته عليها.. أجلسها خلف المكتب ثم أراح رأسها على ظهر مقعده، استكانت وأغمضت عينيها.. مسح على شعرها في حنانٍ وهو يغمرها بنظراتٍ تقطر بالهيام، ثم التفت نحو "أكرم" قائلًا:

- ما تحاولش، ليلى اللي إنت تعرفها خلاص انتهت.

- مش ممكن!!

- وإنت كلها دقايق والبوليس ييجي ياخدك علشان النسوان بتوعك اللي ماتوا.

- لكن أنا مش فاكر أي.....

قاطعه "هشام" بحدة، وهو ينظر نحوه بازدراءٍ بالغٍ:

- مش فاكر، مش فاكر. زهقتني يا أخي، قلت لك مش مهم. المهم إن كل حاجة متظبطة.

قالها ثم رماه بابتسامةٍ صفراء مستفزة، صبَّ لنفسه كأسًا من الويسكي جرعها دفعةً واحدةً ثم قال:

- كل حاجة بالضبط على مقاس رقبتك، علشان لما عشماوي يلف الحبل حولها ما يتعبش.

رماه "أكرم" بنظرة اشمئزازٍ بعد أن شعر أنه لا مفر من مواجهة الموت.. قرَّر ألا يُظهر ضعفه أمامه، أن يخوض معركته معه حتى النهاية:

- إنت فاكر إني هزعل لما أموت، بالعكس أنا هرتاح.

قهقه "هشام" وقال في سعادةٍ واضحةٍ:

- حلو قوي، يبقى كلنا هنرتاح.

تجاهلـه "أكـرم" ثـم التفـت نحـو "ليـلى" التـي كانـت مغمضـة العينـين، وقـال يُخاطبهـا:

- أنـا بـس عـاوز أعـرف منـك حاجـة أخـيرة، إنـت صحيـح مبقتيـش بتحبينـي؟

لم يأتـه رد منهـا وبقيـت عيناهـا عـلى حالهـما سـاكنتين، أتـاه صـوت "هشـام" يقـول سـاخرًا:

- قلت لك ما تتعبش نفسك.

لم يلتفت "أكرم" نحوه، وواصل حديثه مع "ليلى":

- أنا كنت السبب في موت فريدة ولا لأ؟ جاوبي أرجوكي.

لم تـرد مجـددًا، وإن ارتعـش جفناهـا قـدرًا يسـيرًا.. فـأردف "أكـرم" بحـدةٍ:

- ده بيقول إنك إنتِ اللي قتلتيها.

ازدادت الرعشـة في جفنيْهـا، بـدا عليهـا أنهـا تُقـاوم شـيئًا خفيًّـا.. فـصرخ "أكـرم" فيهـا بأعـلى صوتـه:

- بيقول إنك قتلتي بنتنا يا ليلى.

ارتعـش جفناهـا بشـدة واهتزا في حـركاتٍ سريعـةٍ متعاقبةٍ، تهدَّجـت أنفاسُـها في حشرجـةٍ مسـموعةٍ.. انتفـض جسـدُها يرتـج بقـوةٍ، فصرخـت بصـوتٍ مرتفـعٍ.. فتحـت عينيْهـا عـن

آخرهـما تنظـر حولهـا في ذهـولٍ كأنهـا تـرى أشـياء لا يراهـا غيرهـا، تلـوح بذراعيهـا في الهـواء وتتمتـم بعبـاراتٍ غـير مفهومـةٍ.. حاولـت الوقـوف، كاد أن يختـل توازنهـا فاسـتندت بكفيهـا عـلى طـرف المكتـب تُقـاوم السـقوط.. نظـرت نحـو "أكـرم" نظـرةً خاطفـةً.. رأى فيهـا تلـك النظـرة التـي يعرفهـا جيـدًا، التـي يعشـق تفاصيلهـا.. فجـأةً تهـاوى جسـدُها، ارتطـم رأسُـها بـالأرض في صـوتٍ مرتفـعٍ.. بـدأت تتلـوى وتتشـنج في حـركاتٍ عنيفـةٍ، كانـت تـرى خيـالاتٍ وأطيافًـا تتحـرك مـن حولهـا.. بـدأت الدنيـا تُظلـم مـن حولهـا، ذلـك الطنـين اللعـين تـزداد حدتـه.. حتـى باتـت لا تسـمع سـواه.

***

خفَّـت حِـدة الطنـين شـيئًا فشـيئًا، بـدأ الهـدوء يسـود عقلهـا.. فتحـت عينيهـا في بـطءٍ، كانـت تشـعر أنهـا خفيفـةٌ للغايـة وحالـة غريبـة مـن السـكينة تسـيطر عـلى كل كيانهـا.. كأنهـا فراشـةٌ صغـيرةٌ تُحلـق في أعـالي السـماء بحريـةٍ مطلقـةٍ.. تلفتـت حولهـا فلـم تـر شـيئًا في البدايـة، شـيئًا فشـيئًا بـدأت الرؤيـة تنجـلي أمامهـا..

كانـت تـرى نفسـها واقفـةً في غرفـة نـوم "فريـدة" بالقـرب مـن فراشـها، ترميهـا بنظـراتٍ غريبـةٍ.. نظـرات شـاردة جامـدة لا حيـاة فيهـا، و"فريـدة" تنظـر لهـا بحـبٍّ وتصـدر عـن فمهـا

غمغمةٌ طفوليةٌ بريئةٌ.. رأت نفسها تتحرك نحو الفراش بهدوءٍ غريبٍ ثم تميل برأسها إلى اليمين قليلًا، فجأة أمسكت بالوسادة الوردية ووضعتها فوق وجه "فريدة"..

لم تتحمل أكثر من ذلك فأشاحت بوجهها سريعًا وهي تُحاول الصراخ بعد أن انهمرت دموعها، لكن صوتها لم يخرج من فمها كأنما أصابها الخرسُ.. حاولت أن تتحرك، أن تهرب من هذا المكان الغريب لكنها لم تستطع.. أخذت تتلفت حولها في ذعرٍ وهي تبكي بحرقةٍ، لكن بكاءها كان بلا صوتٍ..

بيأسٍ واستسلامٍ نظرت أسفلها، شاهدت جسدها ممددًا على الأرض بلا حراكٍ.. يجلس "هشام" بجواره يحاول إفاقته، يجري له الإسعافات اللازمة.. "أكرم" ينظر نحوهما في ذهولٍ وقد تسمَّر فوق الكرسي..

- إنت كويسة؟! قلقتيني عليكي.

انتبهت حين سمعت تلك العبارة، التفتت ناحية الصوت فاتسعت حدقتاها من الفزع.. رأت نفسها تقف أمامها، وتتحدث معها.. كل شيء فيها يشبهها تمامًا.. لكن نظراتها كانت مختلفةً.. جامدةً، ثابتةً على وجهها كأنها لا ترى سواها.. عيناها تلمعان ببريقٍ غريبٍ، شاردٍ لكنه

شـديد القـوة والنفـاذ.. تملـك الخـوف منهـا فلـم تجـب، اكتفـت بإيمـاءةٍ خفيفـةٍ مـن رأسـها..

- لسه مش عارفه تنامي؟!

أجابـت بعـد أن بلعـت ريقهـا لتقـاوم ذلـك الجفـاف الشـديد الـذي اجتـاح حلقهـا:

- إنتِ عارفه إني مش بنام.

- لسه بتحبيه؟!

- السؤال هو، إنتِ بتحبيه؟

- أنـا مـش بحـب حـد غـيرك، لكـن هـو لازم يعـرف إنـك قويـة.. لازم يدفـع ثمـن كل الـلي عملـه.

قالتهـا ثـم أشـارت بيدهـا إلى الأسـفل، ناحيـة "هشـام" و"أكـرم".. نظـرت "ليـلى" فشـاهدت "هشـام" وقـد تملـك منه غضـبٌ رهيـبٌ، يلتفـتُ ببـطءٍ شـديدٍ ناحيـة "أكـرم".. كانـت كأنهـا تشـاهد فيلـمًا سـينمائيًّا بالحركـة البطيئـة.. شـاهدت تلـك النظـرات الممتلئـة بالحقـد والكراهيـة التـي رمـاه بهـا، "أكـرم" المقيـد إلى الكـرسي بـلا حـولٍ ولا قـوةٍ.. ثـم سـمعت صـوت "هشـام" يـأتي مـن مـكانٍ بعيـدٍ جـدًّا كأنـه يخـرج مـن أعـماق المـاء حـين صرخ بجنـونٍ:

- هقتلك يا أكرم، هقتلك.

قالها ثم قام يتحرك بنفس البطء ناحية المكتب، يلتقط سلاح والد "أكرم".. التفتت "ليلى" نحو نفسها وقالت في رجاء:

- بلاش تعملي كده، أرجوكي.

أتاها الرد في صورة ضحكةٍ هازئةٍ سمعت في أعقابها صوتها يقول:

- نفس اللي قلتيه لما قتلنا فريدة.

- أرجوكي كفاية، بلاش تقولي كده.. أنا ما قتلتش بنتي.

- خايفة تواجهي نفسك بالحقيقة، دلوقتي وقت الاختيار.. لازم تختاري بيني وبينه.

لمعت عينا "ليلى" ببريقٍ مخيفٍ وهي تنظر لنفسها، قالت حين كتمت أنفاسها في قوة:

- يبقى أكيد هتندمي.

دوى الطنين في رأسها من جديدٍ، ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ حزينةٌ وسالت الدموع من عينيها حين رأت طيف "فريدة" يلوح لها من أعلى في سعادةٍ.. أغمضت عينيْها في ألمٍ حين بدأت تهوى باختيارها من أعلى إلى أسفل أرض..

***

شـهقت "ليـلى" شـهقةً قويـةً، فتحـت عينيْهـا عـن آخرهـما.. أنفاسُـها لاهثـةٌ كأنهـا عـادت للتـو مـن مشـوارٍ بعيـدٍ.. وبـدأت رموشُـها الطويلـةُ تهتـز فـوق عينيهـا هـزاتٍ سريعـةً متتاليـةً.. نظـرت نحـو "هشـام" و"أكـرم" ثـم أخـذت تتلفـت حولهـا في ذهـولٍ، كأنهـا لا تعـرف أيـن هـي.. لحظـات، عـادت تنظـر إليهـما مـن جديـدٍ كأنهـا تسـتنجد بهـما.. وأخـيرًا اسـتقرت نظراتهـا فـوق عينـيْ "أكـرم"، الـذي كانـت دموعـه تسـيلُ بغـزارةٍ عـلى خدَّيْـه بعـد أن ظـنَّ أنـه فقدهـا إلى الأبـد..

دنـا منهـا "هشـام" ثـم جلـس عـلى ركبتيـه بجوارهـا، تـرك السـلاح مـن يـده وأخذهـا بـين ذراعيـه يحتضنهـا بقـوةٍ.. أبعدتـه عنهـا في هـدوءٍ، وقالـت بصـوتٍ وهِـن:

- بلاش يا هشام، بلاش.

رمقها "هشام" باستغرابٍ شديدٍ، ابتعد عنها قليلًا ثم قال:

- بلاش إيه بالضبط؟!

- كفاية موت يا هشام.

انتفـض "هشـام" واقفًـا، حدجهـا بنظـراتٍ امتـلأت بالشـك ثـم قـال:

- إنت هتختاريه تاني يا ليلى؟!

اعتدلت "ليلى" جالسةً بصعوبةٍ، أطرقت برأسها إلى الأسفل وسالت دموعها ثم قالت بصوتٍ خافتٍ:

- مش بإيدي يا هشام.

ابتسم "هشام" في حزنٍ ثم صمت تمامًا، أطرق برأسه للأرض قليلًا.. حين رفع رأسه كانت عيناه تلمعان ببريقٍ مخيفٍ، اندفع نحو "أكرم" المقيد فوق الكرسي.. أحكم قبضته حول عنقه، أخذ يصرخ كالمجنون:

- مستحيل أخليه ياخدك مني تاني، مستحيل.

اربدَّ وجه "أكرم" وتلوَّن بزرقةٍ داكنةٍ، بدأت أنفاسُه تتقطع.. شعر بحريقٍ هائلٍ تستعر ناره في رئتيْه، بات حصوله على قدرٍ قليلٍ من الهواء ضربًا من المستحيل.. حاول أن يختلس نظرةً أخيرةً نحو "ليلى"، لكن الرؤية غامت أمامه واسودت تمامًا..

فجأةً دوى في المكان صوت طلقة بددَّ ذلك الظلام الذي كاد أن يُحكم سيطرته على عالمه، انقشعت العتمة من عينيْه فجأةً.. رأى "ليلى" تقف أمامه تترنح، وفي يدها سلاح والده.. سمع صوت طرقاتٍ عنيفةٍ على باب الغرفة، وصياحٍ حادٍّ يأتي من خارجها.. نظر أسفل قدميْه فوجد

"هشام" ملقى على جانبه، وخيط من الدماء يسيلُ من رأسه..

- سامحني يا أكرم، أنا عمري ما كنت لحد غيرك.

التفت نحو "ليلى" وصوت الطَّرَقات العنيفة فوق الباب يزداد، يكاد يخلعه.. حين نظر نحوها كان الأمر قد انتهى، حدث كل شيء بسرعةٍ شديدةٍ..

طلقة ثانية حين سمع صوتها انخلع قلبه، اعتصرت روحَه قوةٌ خفيةٌ غاشمةٌ.. رآها تسقط أمامه متهاويةً وسط بركةٍ من دمائها.. حاول أن يصرخ باسمها عاليًا، لكن صوته لم يُطاوعه.. خانته حنجرته ولم تستجب.. أخذ ينتفض فوق الكرسي كالمسوس حتى سقط به على جانبه.. حاول أن يتحرك نحوها، لكن الكرسي منعه وشلَّ حركته.. تحجرت الدموع في عينيه حين ثبت نظره على عينيْها، شاهد آخر بريقٍ للحياة ينسحب منهما..

كان آخر ما سمعه صوت تحطم الباب، كان آخر ما رآه صورة مهتزة باهتة..

صورة "معتز"واضعًا يديه فوق رأسه.. ينظر حوله في ذهولٍ، دموعه تتساقط في حزنٍ حقيقي..

***

كَمْ نَحْنُ بَطِيئُونَ فِي تَصْدِيقِ مَا يَصْعُبُ تَصْدِيقُهُ..

(١٦)

طبع "معتز" قُبلةً حانيةً على جبين "أدهم" حين رأى أتوبيس المدرسة قد توقَّف أسفل المنزل.. احتضنه في حبٍّ ثم ربت على كتفه، شجَّعه بابتسامةٍ أبويةٍ.. وقف يرقبه من الشرفة حين صعد إلى الأتوبيس وأشار إليه بيده مودعًا، تداعت في رأسه ذكرياتُ تلك الفترة التي كان بعيدًا فيها عن حضنه..

كان عامٌ بالتمام والكمال قد مرَّ على تلك الحادثة التي غيَّرت مجرى حياته، قلبتها رأسًا على عقبٍ.. فبعد كل ما رآه بعينيْه وعايشه بنفسه لم يستطع تغيير أي شيء، تم إغلاقُ ملف القضية.. تمت ترقيته على مجهوداتهِ في كشف غموضِها، ثم بعد فترةٍ تم استبعاده من العمل في المباحث وإلحاقه بعملٍ إداري في المديرية..

"العدالة في بلدنا نسبية"..

تردد صدى تلك العبارة في ذهنه بينما كان يعدل من هندام بدلته الميري..

- الشاي هيبرد يا حضرة الضابط.

انتبه من شرود ذهنه حين سمع صوت "يُمنى".. التفت نحوها يتأمل رقتها التي طالما عشقها، كانت أسنانُها تلمعُ من خلف ابتسامتها الرائعة.. قال بصوتٍ حانٍ:

- طبعًا هشربه، كفاية إنه من إيدك.

اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره.. ضحكت ثم رفعت رأسها عنه، قالت وهي تعدل من وضع الكاب المُزين بنسر صلاح الدين فوق رأسهِ:

- طيب ياللا روح شغلك بقى، وإلا هخليك متنزلش النهاردة.

مسح بكفه الضخم على خدِّها الناعم وهو يقول في حبٍّ:

- مش مهم، الشغل ممكن يستنى.

- دا إنت كسلان بقى.

قالتها حين ضحكت في مرحٍ، لكنه قال بعد أن استعاد مظهرَه الجاد:

- أبدًا والله، دا أنا النهاردة عندي مشوار مهم.

لمحت تلك الدموع التي لمعت في عينيْه، فقالت:

- برضه هتروح المشوار بتاع كل أسبوع ده.

- حاسس بالذنب، مش هقدر ما أروحش.

ودَّعته حتى الباب، غادر سريعًا بعد أن قبَّلها.. طوال الطريق من منزله وحتى العباسية كان ذهنهُ مشغولًا بما حدث.. تساؤلاتٌ كثيرةٌ استعرت في عقله، لكنه لم يجدْ لها إجابةً..

دخل بسيارته من بوابة مستشفى الأمراض النفسية، ترجَّل منها متجهًا نحو عنبر الحالات الخطرة.. استقبله أحدُ الأطباء على الفور بوجهٍ صبوحٍ، ابتدره مرحبًا:

- المستشفى نورت النهارده يا معتز بيه.

- صباح الخير يا دكتور، يا ترى أقدر أقابل أكرم النهاردة؟

صمت الطبيب لوهلةٍ ثم قال بصوتٍ خفيضٍ:

- الحقيقة، أكرم هرب من المستشفى.

- تاني؟!

- واللـه يـا باشـا مـن بعـد آخـر مـرة سـعادتك رجعتـه وإحنـا حاطـين عليـه حراسـة.. لكـن نعمـل إيـه بقـى؟ الإمكانيـات عندنـا ضعيفـة جـدًّا والعِمالـة بقـت زي مـا إنـت عـارف....

لم يُمهلـه "معتـز" حتـى يُكمـل حديثـه، اسـتدار مغـادرًا.. ركـب سـيارته وقـد تملـك منـه الحـزنُ.. كان يعـرفُ أيـن سـيجده، تمامًـا مثـل كل مـرةٍ هـرب فيهـا مـن قبـل..

لكنه في هذه المرةِ قرَّر أن يترك له حريته..

ربما للمرة الأولى في حياته..

***

كانـت السـماءُ مشرقـةً والطقـسُ صحـوًا في هـذا اليـوم مـن أواخـر أيـام الشـتاء.. تجمَّـع الطلبـة حـول بعـض الباعـة الجائلـين، الذيـن افترشـوا بضاعتهـم أمـام أبـواب المـدارس.. يبتاعـون منهـم الحلـوى والبضائـع بأسـعارٍ أقـل بكثـيرٍ مـن أسـعار المحـلات والدكاكـين.. بعـد أن أصبحـت أسـعارُها سَـوْطًا يَجلـد ظهـور النـاس، قيـدًا يُحكـم الالتفـاف حـول رقابهـم..

كان الطلبـة يُصـدرون صخبًـا وضجيجًـا مرتفعًـا، منهـم مـن يطلـب العسـلية وآخـر يصيـح سـائلًا عـن سـعر الـدوم..

التفَّ آخرون حول بائعٍ يفترش الأرض، يعرض علبًا كرتونيةً بداخلها دود القز..

انتبه الجمعُ على مجذوبٍ اخترق الزحام بعنفٍ شديدٍ، وهو يُغمغم بكلماتٍ غير مفهومةٍ.. حافي القدمين، مهوش الشعر.. يرتدي ملابس رثة شديدة القذارة، يجرُّ من خلفه شوالًا من الخيش المهترئ.. كان يترنح يُمنة ويُسرى كأنه سكران أو ممسوسٌ من الجان.. على مقربةٍ منه وقفت إحدى السيدات تلف جسدها بعباءةٍ سوداء تنظر نحوه في قرفٍ ظاهرٍ، قالت بصوتٍ حادٍّ:

- شوفوا الرجل العره، داخل يتحشر بين العيال والنسوان إزاي؟

توقف المجذوبُ عن ترنحه ثم نظر نحوها من بين جفنيْه المتثاقليْن، سالت دموعه من عينيْه فلطختا ذلك السواد الذي يُلون خدَّيه المتغضنيْن.. حاول أن يتكلم ففتح شفتيْه لكن صوته لم يخرج، سال الزبدُ من جانب فمه يُبلل لحيته المهوشة.. أخذ يُحملق بذهولٍ في وجوه الناس التي تحلقت حوله.. صرخ فيه أحدُ البائعين بقسوةٍ:

- ما تغور من هنا يا ابن المرة، العيال مش عارفه تشتري من وش أمك العِكر.

بقـي المجـذوب ثابتًـا في مكانـه حينًـا مـن الدهـر.. ثـم فجـأةً رفـع كفيْـه ومسـح وجهـه بأصابعـه شـديدة الاتسـاخ، فـازداد سـوادُ وجهـه تلطُّخًـا.. اغتـاظ النـاسُ منـه فـصرخ أحدُهـم:

- مين الجدع المجنون ده؟

- أهي بلاوي بتتحدف علينا، محدش عارف له أصل.

- بيقولوا إنه كان متجوز واحدة وخانته فدماغه طارت.

- يا عم جواز إيه وحب إيه في الزمن الأغبر ده؟!

- عنـدك حـق، أنـا سـمعتهم بيقولـوا إنـه كان غنـي وخـسر كل فلوسـه في البورصـة.

- بورصة مين يا عمنا، هو لسه في بورصة؟

- لا يا جدعان، دول بيقولوا إنه كان معتقل سياسي.

انفعل أحدُ الباعة وصرخ بحدةٍ:

- لا سياسة ولا بتنجان، إحنا عاوزين ناكل عيش.

أنهـى عبارتـه ثـم سـحب عصـا غليظـةً مـن أسـفل فرشـته، توجَّـه نحـو المجـذوب يهـمُّ بضربـه عـلى رأسـه..

انـبرى شـخصٌ مـن بـين الزحـام، أمسـك بيـد البائـع في قـوةٍ فتوقـف الأخـيرُ ونظـر نحـوه باحـترامٍ واضـحٍ.. ثـم تمتـم في صـوتٍ خفيـضٍ:

- لا مؤاخـذة يـا حـاج نبيـل، الرجـل ده قارفنـا. مـش عارفين نـاكل عيـش من وقفتـه دي.

ألقـى "نبيـل البغـدادي" بالعصـا الغليظـة بعيـدًا، ثـم صـاح بصـوتٍ مرتفـعٍ:

- سيبوه، ده معايا.

انفـضَّ الجمـعُ عـلى الفـور بعـد سـماعهم لصيحـة "نبيـل"، الـذي اقـترب مـن المجـذوب في هـدوءٍ.. ربـت عـلى كتفـه ثـم منحـه ابتسـامةً رائقـةً، وقـال:

- عاوز إيه؟

لم يـرد المجـذوبُ، وأخـذ يُحملـق في وجـه "نبيـل" بذهولٍ.. أمسـكه "نبيـل" مـن ذراعـه، واقـترب بـه مـن البضائـع المفروشـة عـلى الأرض.. تهلـل وجـهُ المجـذوب في فـرحٍ، مـدَّ يـده نحـو واحـدةٍ منهـا.. تنـاول علبـةً كرتونيـةً، فتحهـا ينظـر لـدودة القـز القابعـة بداخلهـا.. احتضنهـا كأنـه يحتضـنُ عزيـزًا لـه.. أومـأ "نبيـل" برأسـه ثـم نقـد البائـع ثمـن العلبـة.. غـادر المجـذوبُ المـكانَ بعنـفٍ، تمامًـا كـما أتى..

لمعت الدموعُ في عين "نبيل" أو "بلبل" كما كان يُناديه أصحابه.. ووقف من بعيدٍ يتأمل المجذوب وهو يُداعب دودة القز داخل العلبة، بدا كأنه يُلاطفها ويُحدثها حديثًا لا يفقهه سواهما.. سالت دموعُه بعد أن تتابعت في عقله ومضاتٌ خاطفةٌ، كأنها لقطاتٌ لشريطٍ سينمائي.. تروي قصة هذا المجذوب وهو يهبط درجات سلم الحياة، رويدًا رويدًا، ببطءٍ شديدٍ..

كان كورقة شجر يابسةٍ تلاعبت بها رياحُ الشتاء القاسية، فرفعتها إلى الأعلى.. لكنها برغم هذا الإرتفاع كانت تنطق بذلك الهبوط الحتمي المقدر عليها.. حتى توسَّدت الثرى ودهستها الأقدامُ..

رفع المجذوبُ رأسَه عن دودة القز ثم التفت نحو "بلبل"، ابتسم له ابتسامةً عريضةً..

رماه بنظرةٍ طويلةٍ، شاردةٍ.. كانت خاليةً من أي أثرٍ للحياة..

***

.."تَمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ"..

القاهرةُ ٢٨ سبتمبر ٢٠١٦م

مُنْتَصِر أَمِين

إلى معتز أمين..

إلى من علمنى كل شئ..
أرجو أن تكون فى عالم أفضل..

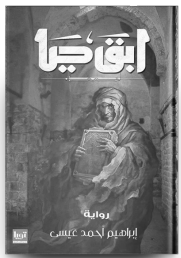

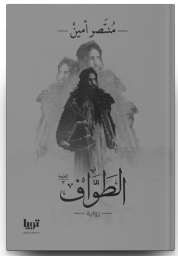

تويا

دار تويا للنشر والتوزيع